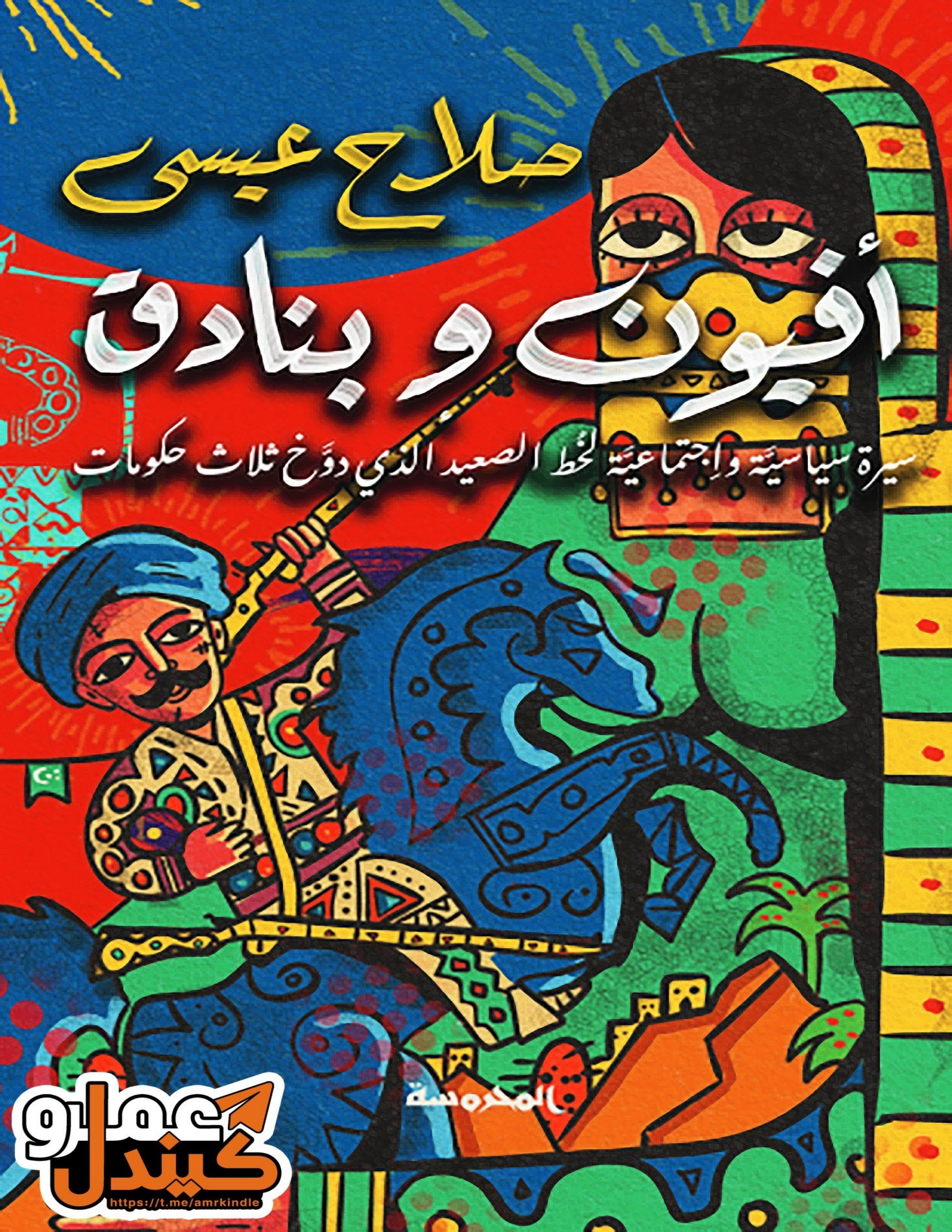

صلاح عيسى
أفيون وبنادق
سيرة سياسية واجتماعية لخُط الصعيد الذي دوَّخ ثلاث حكومات
المحروسة
عمرو كيندل
https://t.me/amrkindle

هذا الكتاب يُنشر حصريًّا بصيغة نصية على قناة «كيندل عمرو» على تطبيق التيليجرام. للمزيد من الكتب -الجديدة لأول مرة- بصيغ نصية أو لكتب الـpdf المعدلة:

https://t.me/amrkindle



القناة البديلة الاحتياطية:

https://t.me/amrkindle1

صلاح عيسى

أفيون وبنادق

سيرة سياسية واجتماعية لخط الصعيد الذى دوخ ثلاث حكومات

المحروسة

افتتاحيَّة

خَوَنَة، ومُستعَمِرون، وأَولادُ لَيل...

هذه قصَّة لا تخلو من إثارة، ولكنها -للأمانة- لم تقصدها!

ولستُ في حاجة لأن أؤكِّد أن فصول التاريخ تحتفل أحيانًا بوقائعَ وشخصيَّاتٍ، ولولا أن كثيرين من الصَّادقين هُم رُواتُها المُعتَمَدين؛ لكان مُحتَّمًا أن نعتبرها وليدةَ «سَرحات» الخيال المَريض، أو العابِث، أو كِلَيْهما مَعًا...

ولأنَّ التاريخ -كالحياة- لا يُعطي أسراره لمن يخوضون بَحرَه بعقولٍ تَفتَقِدُ لشجاعَةِ البحث عن الحقيقة، وجسارة الالتزام بها؛ فَمَا أكثرَ الظَّواهِر التي تمرُّ أمام أعيُنِ هؤلاء، فلا تَلفِتُهم، ولا تَهمُّهم، فإذا فعلوا ذلك -في النادر القليل- فهموها على غير وَجهِها الصحيح؛ فَبَخلَت عليهم بأسرارها، وضَنَّت بجوهرها... ساعَتَها لا يَبقى بين أيديهم من تلك الظواهر سوى وجهها السطحي، وإثارتها غير المُبرَّرة، تبعث على الظَّنِّ بأنَّها وليدة «سرحات» الخيال المريض، أو العابِث، أو كليهما معًا...

والظاهرة التي تَرصُدُها هذه الحكاية واحِدَةٌ من تلك الظواهر الهامشيَّة للتاريخ المصري، لم تَفُز بأيِّ مُحاوَلَةٍ لِفَهمِها أو تفسيرها، وقد كَوَّنتُ فكرتي الأولى عنها عندما لاحَظتُ -وأنا أراجع الأوامر الرسميَّة التي صدرت في عهد الوالي محمد سعيد باشا- أن كثيرًا منها يتعلَّق بمَن وصفَته تلك الأوامِرُ بـ «الشَّقي الشهير عمر المصري»؛ فبعضها يطلب القَبضَ عليه، والآخر يَرصُد مكافأةً لذلك، وثالِثٌ يُحذِّر من مُعاوَنَتِه... وانتهت الأوامِرُ فَجأةً في عصر الخديوي إسماعيل (خليفة سعيد) بأمرٍ يعفو عن «الشقي الشهير عمر المصري».

ولِعدَّة شهور أصبح هذا «الشقي الشهير» هو همِّي الوحيد، إلى أن اتَّضَح لي أنه كان واحِدًا من أشهر زُعَماء البَدوِ في منطقة الفيوم بصعيد مصر، وقد قادهم في ثورة تمرُّدٍ على الوالي محمد سعيد تَمرُّدًا مُسلَّحًا؛ انتصارًا لمطالبهم آنذاك، وهي ثورة كادت تنتهي باستقلال الفيوم عن مصر.

وفي فترةٍ مُبكِّرَةٍ من عمري، اكتشفتُ أن أدهم الشرقاوي شخصيَّة حقيقيَّة. وبينما يقدِّمه المَوَّالُ الشعبيُّ رمزًا للتَّمرُّد على الظُّلم والقَهر الطَّبَقي، فإنه -كما وَصَفَته مجلة «اللطائف المُصوَّرة»، التي نشرت صورَتَه وخَبَرَ مَصرَعِه في 31 اكتوبر (تشرين الأول) 1921- «شقيٌّ، وقاطِعُ طَريق، ومُجرِمٌ أكبَرُ، وطاغية. طارَدَه رجالُ الضَّبطِ والبوليس، واصطادوه؛ فأراحوا البِلادَ من شَرِّه وجَرائِمه».

وقد تعمَّد الوجدانُ الشعبيُّ الذي صاغ المَوَّالَ أن يُحدِثَ تَبديلًا بَسيطًا، يُوهِمُ أن الواقعة حدَثَت في العصر التركي المملوكي، فيها «باش أغا» (حاكِم لَكِين جبَّار)، في حين أن حاكِمَ مصر وَقتَها كان عَظَمة السُّلطان فؤاد الأوَّل!

وقتها لَمَعَت بعضُ الذكريات الباهتة من طفولتي؛ ففي قريتنا -واحدة من قُرَى وسط الدِّلتا- يروون مَوَّالًا عن عبد الحميد عَبَل، ويصوغون رؤيةً له تجعله تَنوُّعًا آخر على لَحن الأدهم

الشرقاوي، بل إنه -في حدود ما أذكر- قد مات نفسَ ميتَتِه؛ إذ خانه حَليفَ له، هو أحد الخَفراءِ، وألصق فوَّهة بُندقيَّته بأذنه، وأطلق عيارًا واحدًا قضى عليه، وهكذا لم يَنَلْه أعداؤه إلَّا بالخيانة.

وقد حاوَلتُ -فيما بعد- أن أجمع تفصيلاتٍ أُخرى عن حياته؛ لأقارن نَصَّ المَوَّال بالحقيقة التاريخية، ولكنِّي فعلتُ ذلك في الغالب بعد الأوان؛ إذ عَصَتني ذاكِرَةُ المُخضرَمين، وذَهَبَ المَوتُ بالعالِمين بالأمر.

وقد فعل آخرون نفسَ الأمر، فقد اكتشف الأستاذ زكريا الحجاوي شَخصيَّةَ الأدهم، وصاغ قِصَّتَه في روايةٍ مَنشورة، كما بذل الصَّديق الأستاذ عبد الملك خليل مَجهودًا لاكتشاف شخصية ياسين (بطل ملحمة ياسين وبهية) الحقيقيَّة، بعد أن علم أن المرحوم اللواء صالح حرب باشا هو الذي قضى عليه، بَيْدَ أنه -للأسف- لم يُكمِله...

والغريب أن الوجدان الشعبي يمزج قصصَ هؤلاء الأشقياء برؤى ومشاهِدَ من تُراثِه الدِّينيِّ، فأبشع ما في ملحمة الأدهم هو خيانة صديقه بدران له؛ فقد تَربَّيَا مَعًا، وتَزامَلَا في المدرسة، وبَكَيَا معًا عند وفاة عم أدهم (الشيخ الشرقاوي الكبير)، ووثِقَ فيه الأدهم، وائتَمَنه علي ابنة عمَّتِه ست الدار، وعلى حبيبته ياسمينة، بَيْدَ أنَّ بدران خانه، وأطلق الرَّصاص عليه؛ شأنَ كُلِّ جَبان، هنا يبدو مشهد «العشاء الأخير» الذي حضره الأدهم وبدران مشهدًا إنجيليًّا صريحًا؛ فبدران يكاد في هذا المشهد أن يكون «يهوذا الأسخريوطي»، الذي باع المسيحَ بثلاثين قطعة من الفضة، وتَنبُّؤ «يسوع» بأن هذا العشاء الأخير يُكرِّره الأدهم لبدران بنفس المعنى تقريبًا.

وامتدادًا لهذه الإسقاطات الدينية على شخصيَّة هؤلاء الأشقياء، فقد أذهلني أنني اكتشفت أن عددًا كبيرًا من آلاف الأضرحة التي أُقيمَت في قُرانا المصريَّة لأولياء الله تضمُّ تحت قِبابها عَددًا كبيرًا من هؤلاء الأشقياء! وهكذا أصبح بعض أولاد الليل -بعد موتِهم- ملجأً للقاصِدين، ووسيلةً لقضاء الحاجات، وبابًا لِمَلَكوت السَّماء يُنذَرُ له ويُتَوَسَّل به، وتتعلَّق بقداسته القلوب. ليس هذا فقط، بل إن بعض بنات الليل قد نِلنَ أيضًا هذه المنزلةَ الغريبة، ومنهنَّ «الست ظريفة»، التي بدأت بائِعَةَ مُتعَةٍ في سوق البَغايا، وانتهت «شيخة» من مشايخ منفلوط!.

والرؤية الشعبية لهؤلاء الأشقياء تحرص على تأكيد بعض المُقدَّسات التي تُميِّز النَّفسَ المصريَّة، ولنتأمَّلْ -مَثَلًا- ذلك الاستبشاعَ الذي حرص الوجدانُ الشعبيُّ على إضفائه على خيانة بدران لصديقه أدهم، وهو ما يفعله -في حدود ما بَقِيَ من الذاكرة- بالنِّسبة لمقتل عبد الحميد عَبَل!

وتبقى الخيانة -وعلى رأسها خيانة علاقات الصَّداقَة ووَشائِج الرَّحِم- هي مصرع الأبطال الحقيقي، وهزيمتهم الوحيدة؛ إنهم لا يفتقدون للشجاعة، وليسوا بأضعف من أعدائهم، لكنَّ الخيانة هي مَصرَعُهم، وأظنُّ أن هذا كُلَّه وَليدُ المرارة التي ملأت حُلوقَ المصريين بالشَّجَى بعد أن هَزَمَت الخيانَةُ و«الوَلَس» فارسَهم النبيل «أحمد عرابي»، وربَّما قبل ذلك بقرونٍ، عندما وقَعَت مصر -بفعل الخيانة- أسيرةَ الغَزْوِ العُثمانيِّ في معركة «مرج دابق». وهنا تقفز ملاحَظَة هامَّة، فما فعله الوجدان الشعبي في تراثه ليس خيالًا مَحضًا؛ فهو لم يَفتَعِلْ تلك الصِّفات، وبِلَصْقِها بـ «أولاد الليل» قد يكون بالَغَ قَليلًا، ولكنَّ المُبالَغَةَ شيء، والكذب أصلًا شيءٌ آخر...

فليس صحيحًا إذا ما يذهب إليه البعض من أن الوجدان الشعبي قد فعل هذا إعجابًا بالشجاعة بِصفَةٍ مُطلَقَة، أو تَدَنِّيًا في نفسيَّة شَعبٍ مُستَذَلٍّ يُحبُّ الأقوياء، ويتميَّز بـ «المازوكية» في حِسِّه وروحه، وهو ما يقوله بعض من ينظرون باستعلاء إلى الشعب المصري؛ إذ لو كان كذلك لأعجِبَ بِجَبَروت حُكَّامه وطغيانهم، ولَمَا ساند بالحُبِّ مَن شَقَّ عصا الطاعَةِ عليهم، إلى دَرَجَةِ تَقديسِهم.

والدليل القويُّ على أن الوجدان الشعبي لم يَفتَعِل هذه الرُّؤيةَ، وإنَّما استند على حقائق تاريخيَّة عن هؤلاء الأشقياء، هو أنَّ العديد من الشخصيات والأحداث التي يرويها حقيقيَّة؛ فبدران -على سبيل المثال- هو شخصيَّة واقعيَّة، وقد أشارت إليه الصُّحفُ في سَرْدِها لحادِثِ مَصرَع الأدهم باسمه الحَقيقيِّ: «محمود أبو العلا»، خفير عزبة بلال، الواقعة في زمام قرية قليشان بالبحيرة، إحدى محافظات شمال الدلتا في مصر. وأبو العلا هو صديق الأدهم وحليفه الذي باعه وسَلَّمَه بثلاثين قطعة من النُّحاس!

ومن المُحتَمَل إذًا -لو أجهدنا أَنفُسَنا في مُقارَنَة السيرة الشعبية بالمسيرة الفعليَّة لهؤلاء الأشقياء- أن نُواجَه بظاهرة لِشكلٍ من الأشكال المقاوِمَة المصرية للطُّغيان والاحتلال والاستذلال، قد لا يكون هو الشكل الأمثل، ولكنه نَوعٌ من الاحتجاج المشروع على أيِّ الأحوال.

وأستطيع هنا أن أتحمَّل مسؤولية القول بأن السنوات التي تَلَت هزيمة الثَّورة العُرابيَّة قد شَهِدَت موجةً من هؤلاء «الأشقياء»، وَجَّهوا رصاصهم -في الغالِبِ- ضِدَّ الذين خانوا الثورة وباعوا؛ فقتلهم «الأشقياء»، وسرقوا دُورَهُم، وسَمُّوا مواشيهم، واقتلعوا زراعاتهم، بسلاحٍ ثَبَتَ -فيما بعد- أنَّه بَقيَّةُ ما وَزَّعَه عُرابي من أسلحة على الفلَّاحين للمُشارَكَة في صَدِّ الغزو، وأحدثوا اختلالًا شديدًا في الأمن العام، وهي موجة هَدَّدَت مَكانَة «اللورد كرومر» أوَّل مُعتَمَدي الاحتلال، الذي حاز منصِبَه وقتها على وَعدٍ بأنه سَيكْفُل لمصر الأمنَ السياسيَّ والجنائيَّ؛ لتزدهر ماليَّتُها.

ولا أريد بالطبع أن تختلَّ المقاييس بين أيدينا، فيتقدَّس مُجرمون، لكن الظاهرة ينبغي أن تكون محلَّ دراسات مُعمَّقَة تكتشف أبعادها؛ إذ لا شَكَّ أن التاريخ الرسميَّ لـ«أولاد الليل» غير دقيق تمامًا. ومن المؤكَّد أن هناك جوانب من حياتهم قد طُمِسَت عمدًا أو جَهلًا، والأرجح أن المؤرِّخ الشعبيَّ المجهول قد شَكَّ في ذِمَّة المُؤرِّخين الرسميِّين، فحرص على تسجيل سيرة أولاد الليل بأسلوبه الخاص، الذي يَكفُلُ حِفْظَه وتواتُرَه وبَقاءَه، رغم أنف التاريخ الرسمي، الذي أصبح تزويرُه تَقليدًا عَربيًّا.

وتعكس فصول «أفيون وبنادق» محاوَلةً للاهتمام بهذا الجانب من تاريخنا الاجتماعي، فقد عَثرتُ على الخطوط الأولى لهذا الكتاب وأنا أحاول أن أرصد ملامح مَوجة العُنفِ السياسي التي خَضَّبَت بالدَّم تاريخَ العَقدِ السَّابق على قيام ثورة 23 يوليو مباشرةً، فقد لاحَظتُ أن حياة أولاد الليل (أبطال موجةَ العنف الجنائي) هي الوجه المُكمِّل لهذه الظاهرة. وقد أدركتُ على الفور الارتباطَ بين وَجهَيْ هذه المَوجَة؛ ومن هنا كان اهتمامي بسرد وتحليل قصَّة زعيم أولاد الليل: محمد محمود منصور، الشَّهير بـ«الخُطّ»!

وقد حاوَلتُ في حدود الوثائق المتوفِّرة أن أُقدِّم رؤية أكثر شموليَّةً لظاهرة أولاد الليل، ومن المؤسف أن ما عثرت عليه كان قليلًا، وبرغم ذلك فقد كفاني لاكتشاف الخطوط الرئيسية التي تضيء الظاهِرَةَ وتُحلِّلها، وتنفي عنها تلك المُعالَجات الضَّيِّقة الأُفُق التي تنظر للحياة بمنظار أخلاقيٍّ مُجرَّدٍ

فقط، ولا تفهم الأخلاق بمقياسٍ اجتماعيٍّ؛ فالخير والشرُّ -في مفهومهما الصحيح- أسيران للسؤال العِلميِّ الذي يقول: «خَيرُ مَن؟ لِصالِحِ مَن؟ وشَرُّ مَن ضِدَّ مَن؟».



محمد محمود منصور، الشَّهير بـ«الخُطّ»!

وفي ضوء هذا كله فإنَّ الفَرْضَ القائِلَ بأن أولاد الليل قد بدأوا جميعًا حياتَهم بواقِعَةِ ثَأر- يُثيرُ علاماتٍ استفهام، لا يهتمُّ بها المُصلِحون الاجتماعيُّون عادَةً، لكنَّها تهمُّ الباحِثَ في ظواهر المجتمع من مَظلَّة اليقينً بترابُطِها وشمولها؛ إذ ما مُبرِّر هذا الرفض المكثَّف لأن يقوم القانون -كجُزءٍ من سلطة الدولة- بهذا القَصاص، أيَعكِسُ هذا شَكلًا من أشكال رَفْضِه وعدم الثِّقة به؟ هل يعكس وَعيًا بأن هذا القانون ليس تعبيرًا عن العَدل المُطلَق، وإنَّما هو عَدلُ المالِكين، ولِحسابِهم؟ عَدْلُ «يِعوِج الطَّربوش على ناحية ويحكم بأربع سنين.. إتنين في السجن العالي واتنين في الزَّنازين»؛ كما تقول بهيَّة؟

هذه فكرة أرجو ألَّا تكون خاطِئَةً تمامًا...

وإذا اقتنعتَ معي بصحَّةِ التحليل العلمي الممتاز الذي توصَّل إليه الطبيب النفسيُّ «فرانز فانون» الزنجي، «المارتنيكي»[1]، الذي استشهد دفاعًا عن استقلال الجزائر؛ فسوف تنظر إلى «سيكولوجية شعوب المستعمَرات» باعتبارها وليدةَ القَهرِ الاستعماريِّ نفسه؛ فالعُنفُ الذي يُمارسُه الاستعماريُّون ضدَّ هذه الشعوب يخلق «عُنفًا مُرتَدًّا»، ولكنه مكبوتٌ؛ للعَجزِ عن التعبير عنه، وهذا الإحباط النفسي المُتكرِّر لدى شعوب المُستَعمَرات يخلق أنماطًا مُرتَبكَةً من التعبير عن العنف، لا أشكُّ أن ظاهرة «أولاد الليل» (بجانب ما تَتميَّز به من خصوصيَّة) وليدةٌ شَرعيَّةٌ لها...

وبعد...

إن الأمانة تقتضيني أن أَذكُرَ بالشُّكر أن هذه المحاولة تَدينُ بوجودها إلى عَدَدٍ من المصادر، على رأسها: المُذكِّرات المنشورة للأستاذ محمد هلال، ضابط البوليس الذي اقتنص الخُطَّ، وطاردة لمُدَّة عام كامل، ثم هجر البوليس واشتغل بالصحافة- وتحقيقين صحفيَّيْن للأستاذ محمد حسنين هيكل، كانا من الأعمال التي دَفَعَت حياتَه الصحفيَّة في بدايتها إلى الأمام، فضلًا عن أخبار وتحقيقات -غير مُوقَّعة- نُشِرَت في سنواتٍ مُتفرِّقة على صفحات: «المصري»، «الأهرام»، «أخبار اليوم»، «آخر ساعة»، «المُصوَّر»، «السواري»، «الأمَّة»، و«روز اليوسف».

وسوف يسعدني كثيرًا أن أتلقَّى -كتابةً- من الذين عاصروا -عن قُربٍ- عالَمَ أولاد الليل وزعيمِهم الخُطِّ، أيَّ تفصيلات أو إيضاحات أو تصحيحات تساعدني في استكمال فَهْم هذه الظاهرة، وسوف أشير إلى المصدر إذا ما طَلَب صاحِبُه ذلك. ولعلَّ الشكل الذي اخترتهَ لمعالجة هذه «الحدُّوتة» لا يُغضِب كثيرين؛ فقد حاوَلتُ أن أُوازِنَ (بمصطلحات نُقَّاد المسرح) بين «الفُرجَة» و«الفِكر»، فاحتفظتُ للعرض بشعبيَّته القائمة على التشويق والبساطة، ولم أُهمِل ما تُفجِّره الظَّاهِرَة -بكل إثارتها الطبيعية- من دلالاتٍ فكريَّةٍ، والجانبان متكاملان بطبيعة الموضوع نفسه؛ فالفُرجَة ليست اصطناعًا مُبتَذَلًا، والفِكرُ ليس تَلفيقًا مُقَزِّزًا...

وإني لآمل -يا عزيزي القارئ- أن تجد في هذه «الحدُّوتة» مُتعةَ الفُرجَة؛ إذا كُنتَ لا تريد سواها، وألَّا نضِنَّ عليك بِمُتعَة الفكر؛ إذا كُنتَ تَقصِدُه، فإن فَعَلَت هذا أو ذاك فَلعلَّها تؤدِّي خِدمةً ضئيلةً لِفَهْم الشَّعب المصري العظيم، الذي عَلَّمني وربَّاني، وأعطاني الكثيرَ؛ فَعَشقتُه، وإذا لم تفعل، فإن الغُفرانَ لا يُضَنُّ على المَحبوبِ في مَلكوتِ كِبريائِه!

صلاح عيسى

القاهرة - أغسطس (آب) 1973.

الفصل الأول
مفاجأة في البحر الأخضر

الزَّمان: صباح يومٍ حارٍّ من أغسطس (آب) 1947.

المكان: باحَةٌ واسِعَة أمام وابور «مالطي».

الشمس تظهر في الأفق، قطراتٌ من ندى الفجر تتبخَّر ببُطءٍ تحت أشعَّتِها الدافئة، قَليلٌ من اللَّيل ما زال ناشِبًا في دِفء النهار، وما بَقِيَ من قطرات الندى يَعلَقُ بأوراق عيدان الذُّرَة الطويلة، التي كانت -آنذاكَ- في أَوجِ ارتفاعها، مُثقَلَةً بكيزان لا حَصرَ لها.

وعلى مدى البصر لا ترى العينُ شيئًا سوى مساحاتٍ واسِعَةٍ من الاخضِرارِ الزَّاهي، وسنابل الذُّرَة لا تَهتزُّ؛ ذلك أن النهار كان ضَنينًا بالنَّسيم، وبَخيلًا به.

قليلون هم الذين يملكون الشجاعة للمرور أمام وابور مالطي في هذا الوقت من الصَّباح المُبكِّر، وحتى أيامَ كانت الدُّنيا أمانًا، فإن أحدًا لم يكن يملك جسارَةَ الذَّهاب بمفرده إلى هناك؛ فالوابور يقع وسط خمسمائة فدَّان من الذُّرَة، يُحيط به من كل النَّواحي.

وفي هذا الوقت من أغسطس (آب) تتمدَّد عيدانُ الذُّرَة، ويَصعُبُ أن ترى العينُ وسطَ كثافَتِها المُظلِمَة شيئًا، ومن السهل دائمًا أن تختفي ماسورةُ البُندقيَة بين أعوادها الطويلة: تنطلقُ فجأةً؛ فتسلبُ الإنسانَ الحياةَ، أو المالَ، ورُبَّما كِلَيْهِما.

وابور مالطي أحد معالم قرية «جحدم» (واحدة من قرى مركز منفلوط)، تقبَعُ في استرخاءٍ على حافَّة الصحراء بالوادي؛ فهو يَقَعُ في زمامها، ولا يستغرق الوصولُ إليه أكثرَ من عَشر دقائق على الحمار، يَقطَعُها الرَّاكِبُ وسطَ «البحر الأخضر»، حيث يحيط الظَّلامُ كُلَّ شيء، حتَّى والشَّمسُ تَملأُ السَّماء...

و«البحر الأخضر» تعبيرٌ صَعيديٌّ، يَصِفُ تلك المساحاتِ الكثيفةَ من الذُّرة التي تخرج عن مدى البصر، تُساعِدُ كَثافَتُها قُطَّاعَ الطُّرق، وأولاد الليل على اتِّخاذها ملجأً أمينًا؛ فهي ساتِرٌ طبيعيٌّ يُخفي بين أعوادِه الخَطرَ والخَوف.

كان «الوابور» مبنى قديمًا من الطُّوب الأحمر، يقع وسط البحر الأخضر تمامًا، وهو مكوَّنٌ من دورين، بابُه الضَّخم يقود إلى صالَةٍ واسِعَة تَوزَّعَت فيها آلاته، «القَزَان»[2] الكبير الذي يمتلئ بالماءِ يَغلي لِوَفرَةِ الوَقود المشتعل تحته، فيُدير البُخارُ المُتصاعِدُ منه عَجَلةً ضَخمةً مثبتَّةً بأحد جانِبَيْه، ويدير «السِّير» المُحيطُ بها عَجلَةً أخرى تستخرج المياهَ من باطن الأرضِ، في شلَّالٍ قويٍّ، يَخرجُ إلى قَناةٍ يَتسلَّلُ منها بقوَّة الاندفاعِ إلى الزَّرع العطشان.

في الزاوية اليُمنَى من الباب سُلَّم حلزونيٌّ يَقود إلى الدور العلوي؛ مُجرَّد صالَةٍ واسعة تَناثَرَت فيها الأدوات اللازمة لإدارة الوابور: حبال، سَيْرٌ قديم، ومفاتيحُ مُختَلِفَةُ الأحجام، وبعض صفائح

وبراميل الوقود. وفي رُكنٍ آخر: مِنضدَةٌ ريفيَّة، ومَوقِدُ كيروسين، ثمَّ سرير «سِفري» صغير، وبعضِ المُتعلِّقات الشخصية لِخَفيرِه «مدبولي»، الذي كان يقيم بمبنى الوابور للحراسة، وتُشارِكُه الإقامةَ زوجتُه «حَميدَة».

وحتى أيامَ كانت الدُّنيا أَمانًا، كان وابور مالطي يُثير الخوف دائِمًا، لا يطمئنُّ المارُّ أمامه على نفسه؛ فهو يبدو من الخارج قَلعةً مُحصَّنة، بها نوافِذُ مُستديرة، على شكل عُيون تُتيح لمن خلفها أن يتحصَّن بالجدارِ السَّميك، فيرى بوضوحٍ كُلَّ ما أمامه، ويكشفُ أكبر مساحة من البحر الأخضر، كما تُتيح له أن يتحكَّم تمامًا في الباحة المواجِهة للوابور، فيقتل مائةً قبل أن يَنالَه أيُّ مُهاجِم. بَيْدَ أن الدنيا لم تَعُد أمانًا؛ ذلك أن «الخُطَّ» كان قد استقرَّ في وابور مالطي، واتَّخذه مَقرًّا ثابتًا له، وهكذا تَحوَّل الوابور إلى منطقةٍ حَرام. إنَّ مارد الصعيد محمد محمود منصور، الشهير بـ «الخُط» يُقيمُ الآن في الدور العلوي من الوابور. ينام على السرير «السِّفري» الصغير، حيث تُشارِكُه الفِراشَ -أحيانًا- حَميدة زوجة الخفير مدبولي، وفي كُلِّ الأحوال -حتى وهو في أحضان حَميدَة- فَإنَّ «الخُطَّ» لا يَغفَلُ لحظةً عن مدفعه الرَّشَّاش، ولا عن منظاره المُكبِّر الذي يستطيع أن يكتشف به ما حوله، فيتنبَّه لأي هجومٍ، ويُبادر إلى الفرار، ويذوب في البحر الأخضر الكبير.

وخلال الشُّهور الثلاثة التي قضاها «الخط» في الوابور كان الذين يسعون خلفه يُفكِّرون في ألف وسيلة، ويرسمون ألفَ خُطَّةٍ لاصطياده، لكنهم كانوا يُمزِّقونها، ويعجزون عن تنفيذها؛ فالمجنون وحده هو الذي يفكِّر في اقتناص رَجُلٍ يُقيمُ في قلعَةٍ مُحصَّنة كهذه، وبرغم أنه كان مُطارَدًا ومَطلوبًا، فإنه كان آمِنًا أكثرَ من مُطارديه، حتَّى أنه كان في بعضِ الليالي يترك الوابور، ويترك حميدة، آخِرِ عشيقاتِه، ويغيب في البحرِ الأخضر، ومعه تابِعُه وكَشَّافُه «أبو الصالحين»، آخِرِ مَن بَقيَ من عصابته، وبعد رحلة طويلة في متاهات البحر التي يعرفها جيِّدًا، يَظهَرُ «الخُطُّ» فوقَ جبل «الشيخ بخيت»، يقف لَحظةً ليقرأ الفاتحة لمقام وليِّ الله القابِع فوقَ قِمَّةِ الجبل، ثم يستكشف الطريق بمنظاره المُكبِّر؛ كان «تِلِّسكوبًا» قويًّا، اشتراه من مسروقاتِ الجَيشِ الإنجليزي بِتسعَة جنيهاتٍ، ولأنَّه كان في الأصل منظارَ ميدانٍ ممَّا يُستَخدَمُ في ميادين القتال؛ فقد كان يُتيح لِلخُطِّ -وهو فوق جبل «الشيخ بخيت»- رُؤيَةَ مَنزِلِه بقرية «دُرُنكة»: فنائه وسَطحِه وبابه، فإذا تأكَّد أن «الدارِ أمان» نزل إلى درنكة، وتَسلَّل إلى منزله، فسحب زوجته «رشيدة» إلى حجرة النوم، بينما تَقِفُ أُمُّه «خالتي فضَّة» على باب البيت، وبِيَدِها مدفع «تومي جَنْ»، تحرس الطَّريقَ. ودون كلمةٍ، تَخلَعُ رشيدة مَلابِسَها، وتَستَسلِمُ لِرجُلٍ قَلِقٍ، متوتِّر، لا يَرغَبُ فيها بِقَدرِ ما يَنزِعُ للتَّخلُّص من قَلَقِه، أو تجديدِ مُتعَتِه، أو أداء واجبه؛ رَجلٍ وَحيدٍ في قَلعَةٍ تائِهَةٍ في البحر الأخضر، تُطارِدُه الحُكومَةُ بجَيشِها وشُرطَتِها وعيونها.

كان الخُطُّ يَعلَمُ أنَّ وراءه قوَّاتِ الشُّرطة في مديرية محافَظَةٍ بأكمَلِها، هي مديرية أسيوط، بل إن فِرَقَ الجيش المصري التي كانت تُعَسكِرُ بـ «منقباد» على مقربة من أسيوط كانت دائِمًا على استعدادٍ للاشتراك في المطارَدَةِ، بِقوَّاتِها ومَدافِعها وطائراتها. بالإضافة إلى كُلِّ هذا فقد كانت هناك فِرقَة مُتخصِّصة في مُطارَدَتِه، شُكِّلَت في سبتمبر (أيلول) 1946، تحمل اسم «فرقة المطاردة»، وتضمُّ ستين من أشرس رجال الشرطة وأكثرهم قُوَّة، اختيروا بعنايَةٍ، على الرغم من عيوبهم المهنية كرجال شرطة، بل ربَّما كان اختيارهم بسبب هذه العيوب تحديدًا؛ لكي يواجهوا -بلا رحمةٍ- ابنَ اللَّيل، الذي «دَوَّخ» ثلاثَ حكوماتٍ لسنواتٍ مُتَّصِلَة! وطوالَ عام كامل شَنَّت «فرقة المطاردة» عشراتِ الهَجمات على أوكارٍ، ظَنَّت أن «الخُطَّ» بها، ورحلَ «قلم مخابراتها» الخاص من القاهرة إلى

الاسكندرية، إلى بورسعيد، وجاب ضُبَّاطها وجنودها كل شِبرٍ في مديرية أسيوط بحثا عنه، لكنها في كل مرة كانت تعود خالية الوفاض، وخلال ذلك العام تَمَكَّنَتْ الفرقة من اصطياد مائة من الأشقياء الهاربين، ورجال العصابات، قُتِلوا جميعًا في حملات الفِرقَة، التي كانت تَهدُفُ أصلًا إلى العثور على اللص أزرَقِ العَينَيْن، فضيِّ الشَّارب: محمد محمود منصور، الشهير بـ «الخط». الغريب أنها عَثَرَت على كل هؤلاء، ولكنها لم تَعثُر على الهَدفِ الذي شُكِّلَت لِتَصِلَ إليه، وقَتَلَت كُلَّ هؤلاء دون أن تصيبه برصاصة، واستحقَّت -لكثرة ما قتلت من أشقياء- اللقبَ الذي أطلَقه عليها الناس: «فرقة الموت»، لكنَّ مَوتها لم يَكُنْ قد طالَ بَعْدُ هَدَفَها!

في ذلك الصباح من رمضان، كان كُلُّ شيء مُعدًّا حسبَ خُطَّةٍ مُحكَمَة: لا بُدَّ من أن يقع «الخط» قبل العيد؛ فالمسألَةُ أصبحَت لا تُطاق!

في السادسة صباحًا سيأتي الخُطُّ لكي يتقاضى مائة وخمسين جنيهًا؛ فديةَ الطفل الذي خطفه قبل ثلاثة أيام، وأخفاه في وابور مالطي؛ سيخرج وفي ظَنِّه أنه سيَلقَى «لمعي عوض» (شقيق الطفل المخطوف) ويستلم منه الفِديَة، سيُغادر مَقرَّه الحصين في «قلعة مالطي»، إلى هذه النقطة من البحر الأخضر، ولكنه لن يلتقي بلمعي عوض، ولكن بمدافع وبنادق «فرقة الموت».

في الثانية من الصباح، والظُّلمَة تُحيط بكلِّ شيء، تَسلَّل أفراد «فرقة الموت» من الصحراء، دخلوا البحر الأخضر، أبحروا عَبرَ عيدانه في ظلامٍ دامِسٍ، قَسَّموا أنفسهم إلى ثلاث فِرَق، بين كل واحدة والأخرى خمسة عشر مترًا.

بعد قليل كانت هناك ستون فُوَّهة لِستِّين بندقية تحيط دائِرَةَ المكان الذي سيظهر فيه «الخط» -طبقًا للموعد المُحدَّد سَلَفًا- في تمام السَّادسة من الصباح.

على رأس المجموعة الأولى كان الملازم محمد السعيد هلال، قائد فرقة الموت، يَقبعُ بمدفعه الرشَّاش.

قام ليُلقي تعليماته الأخيرة لرجاله، فأعاد شرح الخطة، بصوتٍ هادئ، حرص على ألَّا يرتفع، وركَّز كثيرًا على الصمت واليَقَظة، وأدركَ رجالُه أن قائِدَهم -مِثلهم- قَلِقٌ، وبرغمِ الثِّقَةِ التي كان يتحدَّث بها، فقد كان الجميع يَذكُرون مُحاولاتٍ كثيرةً فَشلَت قبل ذلك لاصطياد الخُطِّ، مع أنها كانت مُحكَمَةَ التَّخطيط، وكان ذلك يشغل محمد هلال ذاته، الذي ختم تعليماته فجأةً، بعد أن أدركَ أنه يُكرِّر نفسه، فقال بصوتٍ فشل في إخفاء توتُّره:

- باختصار.. كل واحد منكم يبقى صاحى ومَيِّت في وقت واحد...

فَهِمَ الجميعُ تمامًا ما يَعنيه: على كُلٍّ منهم أن يَقبَعَ صامِتًا تمامًا، لا يتكلَّم، ولا يتحرَّك، ولا يَصدُرُ عنه أيُّ صَوتٍ؛ لكي لا يَلحَظَ أحدٌ أنَّ هناك كَمينًا في البحر الأخضر. وفي نفس الوقت كان على كُلٍّ منهم أن يكون «حيًّا» جدًّا؛ يرى كُلَّ شيء ويسمع أي صوت؛ لكي لا يأخذهم «الخُط» -وهو ابن الليل المُدرَّب- على غِرَّة، ويَفِرَّ منهم، كما فَرَّ قبل ذلك عَشراتِ المَرَّات، أو يقودهم لِكَمينٍ يَقتُلون فيه أبرياءَ لم يَرتَكِبوا جَريمَة، أو يصطادون هَدَفًا لا يَنْشُدونه.

وتَمُرُّ اللحظاتُ بطيئة ومملة:

كان حمدي خليفة -عُمدة[3] «جُجْدَم»- أكثرَ الرِّجال هدوءًا وثِقة بالنفس؛ فهو مُرشِدَ الشرطة، وطُعْمُها الذي خَطَّط لاستدراج «الخُطّ». ولأنه صديقُه وحَليفُه؛ فقد كان واثقًا أنَّ «الخُطَّ» قد بلع الطُّعمَ، وأنَّه سوف يأتي في الميعاد، ولم يتطرَّق إلى ذهنه -لَحظةً- احتمالُ أن يَشُكَّ فيه الخُطُّ، أو أن يَعْدِلَ عمَّا اتَّفَقَا عَلَيه، لكنَّ التَّوتُّرَ كان يسود كُلَّ مَن هُم حَولَه، حيث بدأ الرجال ينزعون أعواد الذُّرة المحيطة بهم ليتحرَّكوا ببعض الحرية، وعارض محمد هلال في ذلك، ولكن حمدي خليفة لم يَرَ داعِيًا لِكلِّ هذا الحَذَر؛ فالخُطُّ لن يَصِلَ قبل ثلاث ساعات، وهو الآن في الوابور، على بُعْدٍ لا يسمح له بأن يسمع شَيئًا ممَّا يَفعلون.

لكن لا شيءَ عند محمد هلال يبدو مُؤكَّدًا...

ماذا لو كانت الخُطَّة كُلُّها مَصيدَةً له لا للخُطِّ؟ إن حمدي خليفة رجَلٌ لا يمكن الاطمئنان إليه؛ فقبل أسبوع واحدٍ كان شَريكًا للخُطِّ، وحليفًا قويًّا له؛ فهو الذي استدعاه ليُقيمَ في زمام بلدته، وهو الذي اختار له «قلعة مالطي» الحصينة، العَصيَّة على الاقتحام. وما أكثر الكمائن التي أعدَّتها فرقة الموت للخُطِّ، وفشلت بسبب خيانة حمدي خليفة لوظيفته كأحد رجال «الضبط والرَّبط»؛ إذ كان ولاؤه للخُطِّ أكثرَ من إخلاصه للحكومة التي منحته وظيفته ومكانته.

هل يكفي أن يكون حمدي خليفة وأبناؤه ضمن أفراد الكمين لِيَثِقَ في أنه لم يستدرجه وفرقَتَه بكامل مُعدَّاتهم؛ لِيُقدِّمَهم طعامًا شَهيًّا للخُطِّ، يلتهمهم، أو يُطعِمُهم للكلاب كما تَوعَّدَهم أكثر من مرَّة؟

هل يَثِقُ بالقَسَم المُغلَّظِ الذي أقسمه حمدي خليفة على المصحف بأن يُسلِّمَه الخُط؟! إن ذلك يبدو مُضحِكًا لا شَكَّ؛ فرَجُلٌ مثل عمدة «جحدم»، لا يمكن الاطمئنان لكلامه، أو الثقة بقَسَمِه، وهو -شأنه في ذلك شأن كلِّ الفلَّاحين- يُتقِنُ كيف يُكلِّم الحكومة بأسلوبٍ ناعمٍ مَعسول، يدفع للثِّقة، في حين أنه ينوي شيئًا مختلفًا تمامًا عمَّا يقول أو يَعِدُ وهو يُقسِم على المصحف، كاذِبًا، ويُقنِعُ نَفسه بأنه أُجبِرَ على ذلك، وأنه أقسم ليدفعَ عن نفسه مَضرَّةً، فإذا لم يطمئنَّ ضميرُه لهذا التبرير صام ثلاثةَ أيَّام، وأبْعَدَ عن نَفسِه مَخاوِفَ الحساب يومَ الحِساب، إذا كان ثَمَّ من الذُّنوبِ بَواقٍ لم يُكفِّرْ عنها بالصِّيام!

وحتى لو كان حمدي خليفة -لحساباتٍ لا يعرفها هو، ليس من بينهما قَسَمُه على المصحف- قد نَوَى أن يخون الخُطَّ، فَيُسلِّمه لمُطارديه، فذلك ليس سببًا كافِيًا للاطمئنان؛ فما أكثر الكمائن التي رُسِمَت للخُطِّ وفَشلت؛ فهو مُجرِمٌ مُدرَّب، يعتمد على المفاجأة، وهو صاحب صِلاتٍ واسِعَةٍ بأعيان المديرية، وهو قائِدُ عصابة، لها إدارة مُخابراتٍ خاصَّة بها، فهل يَعِزُّ عليه أن يعرف الخُطَّة؟ لماذا لا يكون قد جَنَّد أحدَ أعضاء الفرقة للتجسُّس عليها؟ إن ذلك يبدو منطقيًّا تمامًا، وإلَّا لَمَا فَشِلَت عَشراتُ الخُطَطِ التي وُضِعَت من قبل ذلك لاقتناصه...

عند الفجر جاء العُمدَة ليُنقِذَ هلال أفندي من خواطره المُجهِدة، اتَّخذ مكانًا بجواره، كسر عودًا من الذُّرة؛ فازداد الضَّابِطُ تَوتُّرًا، وقَبلَ أن يُعنِّفَه على ذلك عاد الهدوء إلى المكان، ومَرَّت الدقائق بطيئة، والعقارب الفوسفورية للسَّاعة الوحيدة لدى الفرقة تشير إلى السادسة، والوَخَمُ قد حَطَّ على الجميع، هدَّ السَّهرُ والقَلَقُ والتَّربُّص أعصابَهم، حتى بدا كأنهم سيناموون في انتظار الخُط...

فجأة شَقَّ سكونَ البحر الأخضر صوتُ طلقات نارية!

كان واضِحًا أن الصَّوت قد جاء من نفس الطريق الذي ينتظرون أن تدبَّ فوقه أقدامُ الخَط، تَنبَّه الكُلُّ، همس أحدُهُم يُعدِّد ما سَمِعَه من طلقات:

- أحد عشر عيارًا...

لم يَقُلْ أحدٌ إن الرصاصات استقرَّتْ في هدف قريب، فقد فَهِموا جميعًا ذلك عندما لم يسمعوا لها أزيزًا. برغم حالة اليقظة التي شَمِلَت الكُلَّ؛ لم يتحرَّك في الرجال إلَّا أصابعهم التي تَسلَّلَت تلقائيًّا إلى أزندة البنادق.

لم تَكُن الرَّصاصات الإحدى عشرة ضمن الخطة، كان المُتَّفَق عليه أن يَمُرَّ الخُطُّ أمامهم في طريقه للقاء إخوة الطفل المخطوف ليحصل على الفدية، وقبل أن يصل إليهم تكون رصاصات فرقة الموت قد وصَلَت قَلبَه!

فكَّر هلال أفندي أنها قد تكون مُظاهَرَة ناريَّة أراد منها الخُطُّ أن يُرهِبَ مَن يَنتظرونه من أهل الطفل؛ لِكَيْلَا يطلبوا تخفيضَ الفِديَةِ، أو يُطيلوا أَمَدَ المُفاوَضات.

لكن، لماذا لا تكون إعلانًا من الخُطِّ بأنه يعرف أن هناك كمينًا ينتظره؟ فهل يَعقُبُها بهجومٍ، أم يَفِرُّ تاركًا سُخريَّتَه بالدَّولة، بِكلِّ هَيبَتِها وهَيْلَمانِها... كما فعل قبل ذلك كثيرًا؟

تابَعَ عَقربَ الثَّواني انتقالاتِه البطيئة، انتبهَت حواسُّ الرجال الخاملين، شُحِذَت تمامًا، تَحرَّكَت الأصابعُ دون إرادَةٍ على أزندة البنادق، على الممشى -بين حقلين من حقول الذرة- سَمِعوا صوتَ أقدام، ارتفع الصَّوتُ تَدريجيًّا؛ فحدَّدَ اتجاهَ السائرين، كتم الجميعُ أنفاسَهم، بدأت أصابِعُ الرِّجال تتحسَّس الأزندة بعصبيَّةٍ، استطاع أقربُ الرجال إلى الممشى أن يَلمَحوا أربعَ أقدامٍ مُنتَعِلَةً، تَدلُّ على أنها لشخصَيْن.

رفع هلال أفندي رأسه، وتَسلَّل بعينيه عبر عيدان الذرة، رأى وَجهَيْهِما، لم يَعْنِ ذلك شيئًا له، صحيحٌ أنه يُطارِدُ الخُطَّ منذ عام كامل، لكنه لم يَلتَقِ به قبل المطارَدة، أو أثناءها، وهو لم يَرَ له صورةً، أو يعرف له ملامح. وظلَّت عيناه مُعلَّقَتَيْن بالرَّجُلَيْن، حتى أنه لم يَنْتَبِهْ حين زَغَدَه الشَّيخ حمدي خليفة عُمدة «حُجدُم»، ولم يسمع همسته السريعة:

- هوَّا الخُطّ.. الخُط...

كرَّر العُمدَةُ الهَمسَةَ، واقترب ابنُه من الضابط مُؤكِّدًا تنبيهَ أبيه، وتململ بعض أفراد الفرقة ممَّن كانوا حول الرجلين، وقد وجدوا قائدهم جامِدًا كالتِّمثال، لا يُكذِّب ما يقولُه العُمدَة، ولا يبدأ بإطلاق الرَّصاص، فيتبعوه، والرَّجلان يواصلان السَّيْرَ، حتى كادا يقتربان من نهاية مرمى الرصاص، والعمدة يواصِلُ هَمسَه بِغَيْظٍ يُحاوِلُ كِتمانَه:

- الخُطّ يا هلال أفندي... الخُط...

شيء غريب ذلك الذي انتاب قائِدَ فرقَةِ الموت...

على حَدِّ قَولِه في مُذكِّراته، فإنه تلقَّى الهمسة بهدوء، انتابته أحاسيسُ شخصٍ قادر في ثانية واحدة أن يصرعِ هذين الشخصين على الطريق، ولكن هذه القُدرَة بَدلًا من أن تَدفَعَه إلى المبادرة بإطلاقِ النارِ أحدَثَت لهِ «لخبطة»؛ ففي تلك اللحظة تراكَمَت في ذهنِ هلال أفندي مَشاهِدُ الفَشَل الذي

حاق به في أكمِنَةٍ مُماثِلة، انتهت بقتل أبرياء؛ لذلك فكل ما كان يَشغَله هو سؤال، نَصُّه: «أهذا هو؟».
ورُبَّما كانت لحظة الشَّكِّ نفسها التي قادته إلى الموقف المُغايِر تمامًا؛ فتصرَّف بِشكلٍ غريزيٍّ، ولم يَشعُر بنفسه وهو يضغط على «تِتِكِّ» مدفَعِه الرَّشَّاش، وقد تشنَّجَت أصابعه عليه، كأنَّه يَطرُدُ تَردُّدَه في لحظةِ يأسٍ من الحقيقةِ ومن الشَّكِّ! ولمدة ربع الساعة التالية أصبح المَكانُ ميدانَ حَربٍ حَقيقيَّة؛ غابة من الطَّلَقَات السريعة المتتالية، أصبح البحر الأخضر بَحرًا من الطَّلَقات النارية، تنطلق من سِتِّين بندقيَّة مختلفة الأنواع، أصبحَت البندقية هي سيدة الموقف، وهي القائد الحقيقي لفرقة الموت، حاوَلَ المُلازم محمد هلال أن يُوقِفَ النِّيران، لكنَّه لم يَتمكَّن، لم يستمع اليه أحدٌ وَسطَ أزيز الرَّصاصِ المُتدفِّق بلا حُدودٍ ولا قُيودٍ، ورُبَّما خُيِّل إليه أنه أصدر أمرًا بإيقاف إطلاق النار وهو لم يُصدِرْه فعلًا!


مصرع الخط : البوليس يجد في جيبه مصحفاً وحجابين
هل تقطع روسيا علاقاتها باليونان
لا يلدغ المؤمن من نحاس مرتين !
الوفد السوداني : هل يسافر الى نيويورك

(الأهرام 10 أغسطس 1947)

لم يَكُن هناك عَقلٌ يفكِّر، ولكن كان هناك خوفُ لَحظَة، وقَلَقُ لَيلة: فَشَلُ عامٍ كاملٍ. كان الرجال في الواقع يطلقون النار ليتخلَّصوا ممَّا بداخلهم؛ أكثر ممَّا كانوا يُطلقونه وهم واثقون أنه يصيب جسد الخُطِّ، وكان كُلُّ منهم قد فَقَدَ السَّيطرَةَ على أصابعه؛ فهو يواصل تحريكها كأنما أصابته رِعشَةٌ عَصبيَّةٌ، ولا يرفعها عن البندقية إلَّا ليضَعَ مشطًا جديدًا من الرَّصاص!

وكما اشتعلت النيرانُ فجأةً خَمدَت فجأة: تَعِبَت البنادق، أو تَعِبَ الرِّجال، أو نَفَدت الذَّخيرة؛ أو رُبَّما كُلُّ هذا... المُهمُّ أنَّ السكون الشامل قد لَفَّ كُلَّ شيء، عاد الرجال إلى خُمولِهم، ولم يُفكِّر أَحَدٌ أن يقوم ليرى نتيجةَ المعركة، كانوا ما يزالون خائفين، وفي دفعة واحدة خرج الجَميعُ إلى الطريق...

التقطت العُيونُ التي أجهَدَها السَّهرُ والتَعبُ وارتداداتَ «دَباشِك» البنادق علي عَظمَة الكتِف- جُثَّتَيْن ساقِطَتَيْن على الأرض؛ تَحوَّلَتا إلى مزرعة رصاص، اخترق الرصاص كُلَّ مَساحةٍ فيها، وتناثَرَ على امتدادِ الجِسم، وبين كُلِّ رصاصَةٍ: رصاصَة!

قال عُمدة «جُحْدُم» فَرِحًا:

- الخُط.. الخط وأبو الصالحين.. الخط مات يا ولاد.

بَدَت علامات عدم التصديق على هلال أفندي... انتفضَ كيانُه. سأل:

- أنت متأكِّد يا شيخ حمدي؟!

لم يملك العُمدَة نفسَه، تناسى أنه يُحدِّث حضرة الضابط، هَزَّه بعصبيَّةٍ قائلًا:

- إلَّا مُتأكِّد.. هُوَّا الخُطّ.. الخُطّ انتهى يا حضرة الظَّابط...

ما كاد ينتهي من كلامه (الذي صَدَّق عليه وَلَداهُ) حتى انطلقت مئاتُ الأعيرَةِ الناريَّة من بنادق فرقَةِ الموت؛ تُدشِّنُ انتصارَها العظيمَ، وتَحوَّلَت سماءُ البحر الأخضر إلى لَونٍ بينَ الزُّرقَة والحُمرَة...

... وانقلَبَت الدُّنيا.

جاء المأمور، وجاء حكمدار الشرطة، وتدافَعَت سيَّاراتُ رجال النِّيابة تزحم الطريق إلى «جُحدُم»، وازدحم مَسرحُ العمليَّات بآلافٍ من أهالي القرية والقرى المجاورة.

واجتمع هلال أفندي في رُكنٍ بمأمور منفلوط، الذي تتبعه قرية «جحدم»، وتَناقَشا في وسائل إبلاغ الحادث إلى المسؤولين في العاصمة... إن خبر مصرع الخُطِّ ليس خَبرًا عاديًّا، وهو لا يهمُّ فقط مأمورَ المركز، أو مدير الأمن، أو حتى مدير المديرية، ووزير الداخلية محمود فهمي النقراشي، الذي كان أيضًا رئيسًا للوزراء؛ ولكن يهمُّ أيضًا جلالة الملك فاروق شخصيًّا، وهو كذلك يهمُّ الصحافة والإذاعة، ويهمُّ الأحزاب، ويهمُّ كُلَّ الناس في الصعيد.

اقترح مأمور منفلوط عبد الحق الرفاعي أن تُرسَل إشارَةٌ هاتفيَّةٌ مُطوَّلة، تتضمَّن كُلَّ التفصيلات: الخُطَّة التي نُفِّذَت، والقوات التي اشتركت، والمعركة التي جَرَت، ثمَّ نَبأ الانتصار المجيد على الشقي الذي هَزَّ مكانةَ الحُكومَة، وسَخِر من هَيْبَتِها...

اعترض محمد هلال على الفكرة، قال إن الاشارة المُطوَّلة ستُشبِعُ الجَميعَ، سيكتفي بها الصَّحفيُّون، وسيَأمَن الأَعيانُ، ويَطمَئنُّ الأَغنياءُ، ولا يهتمُّ أحدٌ بعد هذا بمعرفة الأخبار، واقترح أن تكون الإشارة الهاتفية مُوجَزة جدًّا، تُثير فُضولَ الجميع؛ فيلهثون ويَجيئون إلى هنا، إلى البحر الأخضر؛ ليعرفوا الأنباء، ويلمسوا بأنفسهم كيف تَعِبَ هو وفِرقَتُه حتَّى وقع الخُطُّ وأَمِنَ النَّاسُ شَرَّه.

وانتهَت المُناقشَةُ بإرسال إشارةٍ قصيرة نَصُّها:

- «قتلنا الخُطّ.. نحن في مكان الحادث...».

فى مسرح المعركة نفسه كانت هناك مُشادَّات كثيرة بين أعضاء «فرقة الموت» وبين الأهالي، كان كثيرون منهم قد جاؤوا ولديهم رغبة في التَّمثيل بِجُثَّة الخُطِّ. كثيرون لهم دَمٌ في عُنُقِه، وآخرون استذلَّهم وفَرَضَ عليهم الإتاوات، وقَلَع مَزروعاتِهم، أو حَرَمَهم من أبنائهم.

وفرِضَت حراسَة قويَّة على الجُثة التي غَطيَت ببطانيَّة...

ولم تُرفَع البطَّانية عن الجُثَّة إلَّا عندما جاءت «خالتي فضة»...

و«خالتي فضَّة» هي أم الخُطِّ؛ امرأةٌ جهنمية، وَحشيَّة القَسَمات، خَشِنَة الطَّبع، حادَّة الأخلاق، سليطة اللسان، وصفها صَحفيٌّ مُعاصِرٌ فقال إنها «حديديَّة النَّظَر، لا تعرف الحياء، تكاد تَلتَهِمُ مَن تَنظُرُ إليه».

وجاءت معها رشيدة -زوجة الخُط، وأم ابنه الوحيد: هاشم-، استقبلها هلال أفندي باهتمام. أخذ «خالتي فضَّة» من يدها، اخترق دائرة الحراسة حول الجُثَّة، كشف البطانية عن وجه القتيل، فعلَ ذلك في شيء من الزَّهو والثقة؛ فها هي آخر صفحة في حياة الخُط تُغلَق؛ ستتعرَّف عليه أمُّه، وتُسجَّل شهادَتُها في محضر النيابة، اعترافٌ رسميٌّ، لا مَفرَّ منه لكي يُعتَبَر الخُطُّ ميِّتًا بالفعل.

نظَرَت إليه العجوز القاسية وقالت بجمود:

- مين ده؟

- مين ده؟!!

هَوَى قَلبُ الضَّابط إلى قدميه، دار رأسه، كاد يهوي مغشيًّا عليه، لقد شرب أكبرَ مَقلَبٍ في حياته. تمسَّك بآخر أمل.

- يا خالَة فضَّة.. إنتي مش عارفة مين ده؟

- أبدًا.. أعرفه منين!!



«الخالة فضة»

آخر ساعة العدد 668 (26 رمضان 1366 - 13 أغسطس 1947)

جُنَّ الضابط تمامًا. واقترب مأمور المركز قائِلًا:

- مَفيش بينك وبينه أي معرفة؟

- ولا عمري شُفتُه...

أمسك الضَّابط مؤخرة رأسها بقبضَتَيْ يديه، دفع وجهها تجاه الجُثَّة في غِلظَةٍ وعَصبيَّة، وقال:

- شوفي كويِّس...

- يا عيب الشوم.. هوا أنا عامْيَة يا ابني؟

وضَحِكَت العجوزُ الحيزبون ضحكةً قاسِيَةً زَلزَلَت كيانَ الجميع، ومَضَت من الزحام، واقترب منها المأمور فقالت له في لهجة قاطِعَة:

- إذا كان ده اللي قتلوه.. فده مش ابني.. شيلوا يا أخويا شيل...

ثم ضربت كَفًّا بِكَفٍّ قائِلَةً:

- هُوَّا كل قتيل تجيبوني أشوفه؟! هيَّ الحكاية رَمْي جِتَت واللَّا إيه. أَمَّا مصايب.

وَجمَ الجَميعُ... كأن الخَط لم يسخر من فرقة الموت وقائِدِها وهَرَب فحسب، ولكنه استدرجهم إلى معركة ضد اثنين من الأبرياء، فقتلوهما بوحشيَّة غير مُبرَّرة، وحوَّلوا جَسدَيْهِما إلى مزرعةِ رَصاص، ولم يكتفوا بهذا، بل أسرعوا يُبرِقون للجهات العُليا للعاصمة بأنباء خَيبَتِهم، ويبشِّرونها بوقائع مَجْزَرَتِهم!

ومَضَت «خالتي فضة» بعد أن ألقت قنبلتها، تحرَّكَت بهيبَةٍ وثِقَةٍ، وهي توزِّع نظرات شَماتَةٍ واحتقارٍ على الجميع.

وتحوَّل الفَرَحُ إلى كارثة...

وفي تلك اللحظات المشحونَةِ بالقلق والتوتُّر والإحساس المَرير بالخَيبَة، بدأ الضَّابط محمد هلال يستعرض في ذهنه شريطًا طويلًا لِقصَّة الخُط، ابن الليل، الذي دَوَّخ ثلاث حكومات...

الفصل الثاني
موجة عنف

كيف بدأت قصة الخُطِّ؟

ما هي بالضَّبط اللحظة التي تحوَّل أثناءَها من إنسان سَويٍّ تمامًا، وعاديٍّ، يَأمَنُ له النَّاس، ويبادلونه تلك المشاعر العادية بين الإنسان والإنسان- إلى كائنٍ يُبادِلُه الآخرون مَشاعِرَ غَريبةً، مشاعر لا تكون إلَّا بين الإنسان والوحش؟

والمشاعر العاديَّة ليست دائِمًا «حبًا»، إنها قد تكون كراهيةً، أو حِقدًا، أو لا مبالاة؛ لكنها تَظلُّ في إطار العَلاقة بين الإنسان والإنسان، بمعنى أن طَرَفَيْها يتبادلان علاقاتٍ «بشريَّة» بين اثنين ينتَمِيان لِنَفسِ النَّوع، لكنَّ الخُطَّ خَلَقَ بينه وبين الآخرين نوعًا غريبًا من العلاقة، طرفاها: التَّجَبُّرُ كَوَحشٍ من ناحيته، والخَوفُ الغريب من ناحية الناس. وهكذا تَعامَلَ النَّاسُ معه كما لو كانوا يتعاملون مع «كائنٍ»، لا ينتمي لدنيا البشر، يخافونه أَبْلَغَ ألوانِ الخَوفِ، ويَرهَبون مُجرَّدَ ذِكرِ اسمِه، ويتعاملون معه كظاهِرَةٍ مُرعِبَة من ظواهر الطَّبيعة؛ لا يستطيعون لها صَدًّا، ولا يقدرون على مواجهتها.

في لحظةٍ من لحظات إجرامه تَحوَّل الخُطُّ إلى كائنٍ رهيب، وَطَّدَ إرهابَه في الصَّعيد، وبثَّ الفَزع في كُلِّ قلبٍ بلا استثناء، لدرجة أن أفراد إحدى نُقَطِ البوليس -في بعض القرى التي اتَّخَذَها مَقرًّا له- كانت تخافه وتخشاه، بل وتَرتَجِفُ منه رُعبًا، حتى أن الخُطَّ أباح لنفسه أن يتجوَّل في القرية أمام أفراد قُوَّتها، فيهربون هم منه، وليس العكس!

حدث في أحد «الموالد» التي أُقيمَت في دائرة تلك النقطة أن نزل الخُطُّ ورفيقه أبو الصالحين يتفرَّجان، في أثناء تجوالهما صادَفَهما ضابطُ نُقطةِ الشُّرطة وجهًا لوجه، فما أن وقع نظر الضابط على الخُطِّ حتى أُرتِجَ عليه، وارتجفت أوصاله، واصفرَّ وَجهُه، ثم سقط مَغشيًّا عليه... ولمَّا أُسعِفَ تَبيَّن أنه أصيب بِشَلَلٍ نِصفيٍّ!

وبصرف النَّظر عن الدِّلالات المُتعدِّدة لهذه الحادثة (وبعضها يتعلَّق بِفكرَةِ هَيبَةِ السُّلطَة، ومدى قُدرَتِها الحقيقية، وليست المُتَوَهَّمَة) - فهي تكشف عن طابَعِ العلاقة اللا إنسانية التي أصبحت بين الخُطِّ وبين غيره من البشر، والتي نبحث عن اللحظة التي حَدَثَت فيها.

والعثور في حياة إنسان على لحظة كالتي نتساءل عنها أمرٌ يكاد أن يكون مُستَحيلًا؛ فَعمليَّات التَّحوُّل من هذا النوع عَمليَّاتٌ طويلةٌ ومُعقَّدَة؛ لهذا أن نضبط هذه اللحظة في تاريخ مُعيَّنٍ، أو أن نُؤرِّخَها بحادث مُحدَّد، وحتى لو كان هذا الحادث موجودًا فالذي لا شَكَّ فيه أن رَدَّ فِعلِه لا يكون انفعالًا لحظيًّا، بل تراكُمَ عُمْرٍ!

فكيف تحوَّل محمد محمود منصور، صيَّاد السمك الفقير في قرية درنكة، الشابُّ الصَّعيديُّ الوَسيمُ، أزرَقُ العَينَيْن، فضِّيُّ الشَّارِب - إلى سفَّاحٍ يَحمِلُ اسمَ «الخُطِّ»، ويُرعِبُ مجرَّدُ ذِكْرِ اسمه

كثيرين؛ ابتداءً من أصغر مُواطِنٍ في درنكة -بَلَدَتِه- وانتهاءً بثلاثة من وزراء الداخلية ورؤساء الوزراء، هم: أحمد ماهر باشا، ومحمود النقراشي باشا، وإسماعيل صدقي باشا.

بل ووصل الأمر إلى أن صاحِبَ الجلالة الملك فاروق قد اهتمَّ بالخُطِّ، وتابَعَ أخبارَه بشَغَفٍ حينًا، وبقلق أحيانًا!

وإذا كان من الصَّعبِ العُثورُ على لَحظةِ التَّحوُّل الغريبة في حياة الصَّيَّادِ الفقير ضمن تفصيلاتِ هذه الحياة؛ لأنه لم يكتب مُذكِّراتٍ، ولأن حياته العاصفة لم تترك رُواةً يُرتَكنُ إليهم، فليس من الصعب إدراكُ المناخ الذي أثَّر فيه؛ ذلك أنه خلال سنوات الحرب العالمية الثانية -وما بعدها- شَهِدَت مصرُ مَوجةً من العُنف لم يسبق لها مثيلٌ في تاريخها كله، موجة لم تقتصر فحسب على الجرائم الجنائية؛ كالخطف والسرقة والقتل وانتهاك الأعراض، بل تَعدَّت ذلك إلى «العنف السياسي» البالِغ، بحيث أصبَحَت حوادِثُ نَسْفِ المباني ودُورِ السينما والمؤسسات الاقتصادية العسكرية التابِعَة لجيش الاحتلال- مسائِلَ عاديَّةً، وما أكثر المحاولاتِ التي بُذِلَت أيامَها لإزهاق أرواح السَّاسة المصريين، نجح كثيرٌ منها، وفشل الكثير، وكانت الصُّحُفُ لا تكاد تخلو يوميًّا من نبأ انفجار قنبلةٍ لم يُمكِن العُثورُ عليها قبل أن تنفجر، في كُلِّ الأماكن، التي تخطر على البال، والتي لا تَخطُرُ عليه.

كانت تفاهة الحياة في ظِلِّ احتلالٍ امتَهَنَ كرامةَ الإنسان المصري طويلًا، وقد تركَّزت في وجدان الناس؛ فزاد الإحساس بمهانَةِ الإنسان ورخَصِ ثَمَنِه، وكانت السُّلطةُ في يَدِ أقلِّيَّات سياسيَّةٍ مكروهة، وتفتقد تمامًا لأي رصيد من الحُبِّ الشَّعبيِّ... سُلطَة مُتَبلِّدة الإحساس تجاه مشاعر الناس الجماعية: الأوبئة تنتشر، الملاريا، والحُمَّى، وبعض حالات الطاعون. والنَّاس تموت من الجوع -موتًا حقيقيًّا لا مَجازيًّا-، وفي مقابل ارتفاع الاسعار واختفاء السلع، أَثْرَى المُضاربون والأفَّاقون والمُهرِّجون، وعرفتِ الشرائحُ العُليا من الطبقات المالكة جُنونًا في الإنفاق لم تعرفه طول عمرها، ونَزَت شبقًا للاستمتاع، والتبديد بسفاهَةٍ تاريخيَّة.

وبينما انزلقت بنات الأُسَر «المستورة» إلى هوة البغاء -وكان رسميًّا- فَتاجَرْنَ بأجسادِهِنَّ في أسواق الحرب ليأكلن، فمرَّت فوقَها جُيوشُ الحُلفاءِ، مُحقِّقَة النَّصرَ، في حربٍ لم يكن لمصر ناقَةٌ فيها ولا جمل. كانت فضائح أميرات البيت الملكيِّ تُزكِمُ الأنوف، وكانت أنباء استيرادِهِنَّ لفحولٍ بشريَّةٍ من كُلِّ دُولِ العالَم لإرضاء جنونهِنَّ الجِنسيِّ تَملأُ الشَّارِعَ المصريَّ.

كلُّ هذا طرح نماذِجَ عنيفةً من البَشَر، هانَت لديها حياتُها، وهانت عليها -بالتالي- حياةُ الآخرين، وطَرَحَ العَذابُ المصريُّ نفسَه خلال عُنفٍ مُكثَّفٍ ورهيب، وصل إلى درجةٍ من التَّوحُّش الفرديِّ، يستوي في ذلك «المقاتل السياسي»، و«اللصُّ»، و«ابن اللَّيل».

ولقد اضطَرَبَت ممارَسةُ تلك النَّماذج للعُنف اضطرابًا شديدًا؛ فعبَّر هذا العُنفُ عن نفسه عبر مُنعَرَجاتٍ شديدة التعقيد؛ فطاشَت أهدافُه كثيرًا، وأصابَت كثيرًا. تَوجَّهَت ضِدَّ «الذَّات»، كما تَوجَّهَت ضدَّ «العدو». ووُجِّهَت ضدَّ المُجرمين، بنفس الدَّرجَة التي وُجِّهَت ضدَّ «الضحايا»، أصبح لُصوصُ «الكامبات» (أو المعسكرات) -مثلًا- ظاهرة، انتشروا انتشارًا مُرعِبًا، يَهبِطون على معسكرات الجيش الإنجليزى، فيسرقون السِّلاحَ والأغذية والأدوات، ويقتلون ويدمِّرون، وكَثُرَت محاوَلاتُ الاعتداء على حياة جنود جيش الاحتلال.

ولم يكن الذين يفعلون هذا كلهم «مُجاهدين»، كان الوطنيُّون من أعداء الاستعمار يَنشَطون في هذا الاتجاه، لكن اللصوص العاديين كانوا يفعلونه، وكثيرًا ما كانوا يتربَّصون بجنود جيش الاحتلال فيُفقِدونهم حياتَهم، ويَسلبونَهم ما يملكون، وقد يكتفون بالسَّرقَة، دون التفكير في أي جهاد، ويتخصَّصون فحَسبُ في سَرِقَة «الكامبات»، ونَشْلِ الجنود البريطَانيِّين.



طاغية الصعيد.. ذو الشعر الأصفر والعيون الزرق!

آخر ساعة العدد 668 (26 رمضان 1366 - 13 أغسطس 1947)

وصل الأمر إلى أن عددًا من القَوَّادين قد ركَّزوا نشاطهم على استدراج الجنود الإنجليز إلى أماكِنَ خَلويَّة، يُغرونَهُم بِصَيدٍ أُنثويٍّ ثَمين، فإذا ما وصلوا إلى رُكنٍ مُظلِمٍ لم يَجِدوا سوى مِطواةٍ تُغرَزُ في صدورهم، ويَدٍ تُجرِّد الجُثَّة ممَّا تَحمِلُه من نُقودٍ، وسلاحٍ، وأشياءَ أخرى...

واختلطت المسائل؛ تعاون كثيرٌ من المجاهدين مع لصوص «الكامبات» الذين كانوا -دون غيرهم- يتميَّزون بمعرفةٍ دقيقةٍ بكلِّ مَداخِل المعسكرات البريطانية ومَخارِجها، وعانى «المُقاتِلون» كثيرًا من هؤلاء اللصوص؛ كانت لصوصيَّتُهم تَتغلَّبُ عليهم كثيرًا، فيَخونون أو يَتواطَأون، أو يحاولون جَرَّ عمليات الكِفاحِ كُلِّها إلى السَّرقة وحدها، ولا شيء أكثرَ منها، مُكتَفين من النِّضالِ ضدَّ الاستعمار بِسَلْبِه ما يَملك.

في تلك السنوات الغريبة أصبح «اللعب بالسلاح» موضةَ العَصر، وكان الخُطُّ مُجرَّدَ واحدٍ من آلافٍ لَعِبوا بالقَنابِل والمُسدَّسات، كما لو كانوا يلعبون الكرة!

ومن معسكرات الحلفاء المنتشرة في طول البلاد وعَرضِها تسرَّبَت الأسلحة والذخائر بكمِّيَّاتٍ هائِلة إلى أيدي المصريين، جاءت أحيانًا عن طريق اللصوص الذين كَثُر سَطوُهُم على المعسكرات، وأحيانًا عن طريق الجنود والضُّبَّاط الإنجليز أنفسهم، الذين كانوا يبيعون أسلِحَتَهم بأيِّ ثمن، وكثيرًا ما كانوا يتَّفقون على تهريبها بالجُملَة والقَطَّاعي مع عصابات السِّلاح التي كانت تَضمُّ خليطًا، من المُجاهدين ضدَّ الاستعمار، واللصوص العاديين، والراغبين في الاستثمار والكسب دون مجهود.

وبهزيمة الألمان في المعركة «العَلَمين» وانسحابهم أمام الجيش الثامن الإنجليزي، تركوا خلفهم تِلالًا من البنادق والمدافع الرشَّاشة والطَّلقات النارية مُكدَّسَةً في الصحراء، وكان طبيعيًّا أن يَحترفَ بعضُ الأعراب عمليَّةَ تهريب الأسلحة، وتَكوَّنَت منهم عصاباتٌ ثُلاثيَّة تعمَلُ بتنسيقٍ مُتكامِل؛ الأولَى تحمل الأسلحة إلى الحدود، والثانية تعبر بها مَجرَى النيل، ثم تُسلِّمُها إلى مجموعةٍ ثالِثَة تضمُّ غالبًا أفرادًا من «عرب المشارقة»، الذين كانوا يَتولَّون بيعَ السلاح داخل البلاد.

وزاد الطِّينَ بَلَّةً -بعد الحرب- أن شَرَعَت قوَّاتُ الاحتلال وحلفاؤها في تقصير خطوط انتشارها، وخاصَّةً بعد أن جَلَت عن القاهرة والإسكندرية والدلتا، فراحت هذه القوَّات تَتخفَّف من الأحمال الثقيلة التي تملأ مَخازِنَها ولم تكن في حاجة إليها، فبدأت تَبيعُها في المزاد العَلنيِّ، وعلى رؤوس الأشهاد، وبينها كَمِّيَّةٌ لا تُحصَى من المدافع والبنادق والمسدَّسات والطَّلقات من مختلف الأحجام والأنواع، ونتج عن هذا كُلِّه أن أصبح السِّلاحُ أرخصَ السِّلَعِ في مصر.

وفي الوقت الذي كانت أسعار الطعام ترتفع إلى درجة اختفى فيها الخبز يومًا من أسواق القاهرة؛ كانت الأسواق تعجُّ بالأسلحة، وكانت الطَّلَقاتُ الناريَّة تُباع بالكوم، بسعر خمسة قروش للكوم الواحد (تل صغير)، ووَصَلَ ثمنُ البندقية إلى مائة وثمانين قرشًا، فإذا كانت من نوع جيِّدٍ ارتفع ثَمَنُها إلى جُنَيهَيْن. أيَّامها كانت القنبلة اليَدويَّة تُباع بملِّيم واحد، وكان المسدس الكبير بعيد المدى بثلاثين قرشًا، وكانت المواد النَّاسِفَة المُتفجِّرة -كأصابع الدِّيناميت مَثَلًا- تُباع في صناديقَ، لا يُكلِّفُ الصُّندوقُ الواحِدُ مَن يشتريه أكثرَ من خمسين قرشًا، وكانت الصحراء الغربية -فوق هذا- مليئَةٌ بكلِّ هذه الأنواع، يعثر عليها المرء فوق الرمال، تنتظر مَن يجمعها ويستولي عليها.

وكان طبيعيًّا أن يجد «العنف» أدواته بعد أن خلق تَعقيدُ الحياةِ دَوافِعَه: من الفقر والجوع والإحساس بمهانَةِ الحياة وَجَدَ العُنفُ دوافِعَه، وفي رِخَصِ السِّلاح -مع غلاء الطعام- وجد أدواتِه.

والشيء الغريب والمضحك أيضًا أنه في الوجه المقابل فإن السُّلطَةَ كانت مُنهارَةً انهيارًا غريبًا، فقد تَحوَّلَت عصابات الأشقياء إلى حُكوماتٍ فِعليَّةٍ في بعض المناطق؛ تَفرض الإتاوات على الأغنياء

وتجبيها منهم، وتَصدِرُ الأحكامَ على المُمتَنِعين عن الأداء، ثم تنفذ هذه الأحكامَ في وَضَحِ النّهار، وبلَغَت قُوَّتُها الدَّرجةَ التي جَعَلَت الأعيانَ وأصحابَ النُّفوذ وأعضاءَ البرلمان يَتحالَفون مَعها ويَحمونها، وتحميهم!

وكانت أسلحة البوليس -كما وَصَفتها صَحيفةٌ مُعاصِرَةٌ لهذا التَّاريخ- لا تصلح إلَّا للزِّينة؛ كانت من طُرُزٍ عَتيقةٍ، يرجع تاريخُ أَحدَثِ أنواعها إلى أَوائِلِ القَرنِ، فالبَنادِقُ من النَّوعِ القَديم تُعبَّأ طَلقةً بطلقَة، وإذا فُرِضَ وانطلقت الرَّصاصَةُ ولم تَنحَشِر في الماسورة، فإنَّها لا تَبْعُدُ أكثرَ من أمتارٍ مَعدودَةٍ، وقد أدَّى هذا -مع عوامِلَ أخرى- إلى زيادة إحساس أولاد الليل بِتفوُّقِهم على رجال البوليس باستمرار؛ فالأشقياءُ مُزوَّدون بالـ«تومي جَن» والـ«لي أنفيلد»، وغيرها من الأنواع التي تُصيبُ على بُعدِ ألف مِتر.

انتَشَرَت حوادِثُ القَتلِ والسَّلبِ حتى وصلت إلى حدود القاهرة نفسها، ولا سِيَّما في الجزء بين «مُسطُرد» و«شبين القناطِر»، على طول طريقِ المعاهدة (كان طريقًا حربيًّا أيَّامَها)، فقد بلغ مُتوسِّط هذه الحوادث ثلاثين حادثةً شهريًّا، أي جريمة كُلَّ يوم، في ضواحي العاصمة، التي تَضُمُّ الحُكومَةَ، والبوليس، وكُلَّ هَيْلَمانِ الدَّولَة. وتَعدَّدَت العصاباتُ التي تَتشكَّل من أولاد الليل، وزاد عددها في الصَّعيد بالذَّات؛ نتيجةً لِفَقر الحياةِ وجَدبِها هناك، فَضلًا عن طَبيعَتِها التي كانت تُسهِّل عَمَلَ تلك العِصابات؛ فهو بعيدٌ عن الحكومة المركزيَّة، وهو مُحاطٌ بالجَبَل وبالصَّحراء، وهناك زراعاتُ الذُّرة أو «البحر الأخضر»، ثم «الحوض» -أو فترة الفيضان- التي تُحَوِّل الصَّعيدَ إلى جُزُرٍ مُنفَصِلَة يتمُّ الانتقال بَينَهما بالمَراكِب الشِّراعِيَّة.

وكان لكلِّ عصابةٍ رَئيسٌ يُحيطُه أَعوانُه، ويُكِنُّون له الاحترامَ، وهو الذي يتولَّى رَسمَ الخُطَط، ويتولَّى توزيعَ الغَنائِم، وكثيرًا ما كان يحتَجِزُ الأكبرَ منها، وهو ينفق من سَعةٍ، فَتَتعدَّد زَوجاتُه، ويُقيمُ الوَلائِمَ لأعوانِه، ويُوزِّع الطَّعامَ على فُقراء الأقارِبِ الَّذين ينقلون إليه ما يهمُّه من أنباء البوليس، ويَلفِتون نَظَرَه إلى ما يملكه الأعيانُ والتُّجَّارُ من نُقودٍ وأملاك. كان عالَمُ أولاد اللَّيل قد أصبح دولةً لها كُلُّ تقاليد الدُّوَل: رسوم، وتقاليد، وتَسَلسُلٌ رئاسيٌّ، واحتفالاتٌ، حتى أن «أبو هاشم» -المجرم الجرجاوي الشهير- كان يَنحَرُ خَروفًا كُلَّ يُومٍ كضحيَّةٍ، وكانت مُعظَمُ العصابات تُنْسَبُ إلى أسماء شُهرَةٍ تُطلَقُ على زُعمائِها، وهي أسماءٌ يُراعَى فيها التَّفخيمُ والتَّعظيم، ومنها: «البيه» و«الرئيس» و«المدير» و«الشيخ» و«الزعيم» و«العُمدَة».

ومعظم أولاد الليل بَدأوا بجرائم ثأرٍ، تنتهي بأن يُعتَبَرَ الآخِذُ بِثَأره «طريدَ الحكومة»، وطريدَ مَن يطلبون الثَّأرَ منه؛ فينتقل إلى الجبل، أو إلى زراعات الذُّرَة، ثمَّ يَنضمُّ إليه الأعوانُ، ويَعقِدُ التَّحالُفاتِ، ويُتحوَّل بعد هذا إلى النَشاطِ الإجراميِّ البَحْت.

والعصاباتُ دَرَجاتٌ؛ هُناكَ قُطَّاعُ الطُّرق، أو «القَشَّاطون»، وهم يَترَصَّدون في الطريق الزراعي في انتظار عودَةِ التُّجَّار من الأسواق، ومعهم ما تبقى من البضائع (ويفضِّلون تُجَّار الأقمشة على غيرهم)، فيَضَعون في الطَّريق أحجارًا ضَخمةً، أو قِطَعَ أخشابٍ كَبيرةً، أو يَشدُّون حَبلًا غليظًا، فإذا أقبل الصَّيدُ راكِبًا على حماره، أو في سيَّارَتِه استقبلوه بالسِّلاح، فهدَّدوه، وخَيَّروه بين تسليم النُّقودِ أو تَسليمِ الرُّوح.

وتترقى بعض العصابات فتتحوَّل إلى «الخطف»، والإفراج مقابل «دِيَة»، وكانت هذه الجَرائِمُ تُرتَكَبُ في موسم «الحيض»، أي موسم القيظ، عند ظهور الذُرةِ «العويجة»، التي يصل ارتفاعُها إلى ثَلاثةِ أمتار، وتَمتَدُّ مَساحَةُ زراعتها إلى آلاف الأفدنة، تَصِلُ أحيانًا بين زمام مُديريَّتَيْن أو ثلاث مديريَّات، وفيها يَختَفون، ويَأسِرون ضَحاياهم، وفي وَسطِها يَنصبون خِيامًا من الخَيش، ويُعدُّون الطَّعامَ والقهوة والشاي.

وفي الدَّرجَةِ الأخيرة تنتَقِلُ العِصابَةُ إلى الجِبال، فتختار عددًا من المغارات تُقيم فيها، وتَعْهَدُ إلى بعضِ أفرادها بمَهَمَّة المُراقَبَة عند نقاطٍ مُتباعِدَة من الطريق، وإبلاغها عند دُنُوِّ الخَطَر. ويستهتر بعضُ الزُّعَماء فيزورون القُرى، وقد يُقيمون بها وهم آمنون؛ لأن الأهالي يَتَستَّرون عليهم ويخشون الإبلاغَ عنهم، وإذا ما أراد أَحَدُ زُعماءِ العِصاباتِ -أو أفرادها- الزَّواجَ ذَهبَ إلى دارِ المَأذون، وعَقَدَ قرانَه عَلَنًا في القرية، وأمامَ نُقطَةِ بوليسِها.

والرِّواياتُ عن أَصلِ الخُطِّ وكيفيَّة احترافه للإجرام مُتعدِّدَة، لكنَّها ليسَت مُتناقِضَةً؛ فهي جميعًا تدور في إطارٍ واحِدٍ ومُتقارِب...

وُلِدَ على مشارف العشرينات، وخلال سنوات ثورة 1919 اللَّاهِبَة، كان جَدُّه فَقيهًا، ومعلِّمَ قُرآن، كان اسمه «سِرَّ الخَتْمَة»، و«الخَتْمَة» هي القرآن، أي أنه كان «الأمينَ» على القرآن، وبمضيِّ الأعوام حَذَفَ المُنادون كلمة «سِرّ»؛ فأصبح اسمُ العائلة «الخَتمَة»، وطارَت التاء، فأصبَحَت «الخَتّ»، وقُلِبَت التَّاءُ إلى طاء لِسَبَبٍ بسيطٍ يَعرِفُه الصَّعايدة، ذلك أن «الخَتّ» (بفتح الخاء) يعني لدى أهل الصَّعيد: فضلات الإنسان والحيوان.

وكان أبرز ما فيه أن عَينَيْه زرقاوان، وشَعرَه أَصفر، وهو نَوعٌ نادر من الجَمالِ الصَّعيدي، وفي طفولته كان أجملَ أخوته وأقواهم، كان رابعَ أخوته الخمسة، وهم: رمضان، والرويحي، وعبد الحكم، والخُط، وأخيرًا توفيق. وقد انتظموا جميعًا في عصابته، وماتوا في صفوفها خلال عامٍ واحد.

وكانت أسرته فَقيرَةً، فقد كان يشتَغِلُ مع أخوَتِه في صَيدِ الأسماكِ، وتربية المواشي، واستئجار الأراضي، وتعلَّم -كمُعظَم شبابِ الصَّعيد- إطلاقَ الرَّصاص، وبَرَعَ في إصابة الهدف وهو على مَشارِفِ مُراهَقَتِه، وهناك شِبهُ إجماعٍ على أن الخُطَّ قد بدأ نَشاطَه الإجراميَّ بِمعركَةٍ بينه وبين شَيخِ خُفراءَ درنكة (إحدى قرى محافظة أسيوط) -عبد الله محمدين- انقَلَبَت إلى ثأر.

وأصل الحكاية في بعض الروايات أنه عندما انتهت فترة طفولة الخُطِّ وبدأ يعمل كُلِّفَ بِرَعي أغنام العائلة، وخَرَجَ وراءَ الغنمِ يومًا، فمَنَعَه شيخُ الخُفَراء من الرَّعيِ في مكان بِعَيْنِه، ولم يَكْتَفِ بِمَنعِه، بل أضافَ إلى المَنْعِ صَفعَةً زَلزَلَت عَقلَ الغُلامِ الذي كان على مَشارِفِ الرُّجولَة.

في اليوم التالي رَدَّ الخُطُّ الصَّفعةَ برَصاصَةٍ استقرَّت في قلب ابن شَيخِ الخُفراء، وبرغم أن الشيخَ مُوظَّفٌ رَسميٌّ في الحكومة، ووظيفته حِفظُ الأَمن، فإنَّه لم يُبلِغْ البوليسَ بحادث مَقتَلِ ابنه، ولكنَّه رَدَّ الرصاصةَ للخُط، فاستقرَّت في قَلب محمود، عم الخُطِّ، وأكبَرِ أفرادِ عائِلَتِه، وفي خلال أسبوعٍ واحِدٍ كان الخُطُّ قد قَتَلَ تِسعَةً من عائِلَةِ شَيخ الخُفراء؛ كل ثلاثة في ليلة، وخرج مع أخوته إلى الجبل، ووُلِدَ ابنٌ جديدٌ من «أولاد الليل»...

بعضُ الرُّواةِ يُدخِلون على هذه الحادِثةِ تَعديلًا بسيطًا؛ إنهم يقولون إن الخَط بدأ حياته الإجرامية في أوائل الحرب العالمية الثانية، إذ كان يَرعَى المواشي في الجبل مع بعض أصدقائه، فشاهدوا عددًا من المُجنَّدات الأمريكيَّات، فاعتدوا عليهنَّ، وسرقوا ما مَعَهُنَّ، فَأبلَغَ عنهم شيخُ الخفراء، وأرسَلَهم إلى مُعتَقَل الطُّور إلى أن يُحكَمَ عليهم، ولجأ أهلُ الخُطِّ إلى نائِبٍ وفديٍّ -في عهد الوزارة الوفديَّة- فنجح في إعادته إلى بلدته درنكة، مَوضوعًا تحتَ المُراقَبَةِ العسكريَّة، وتذهب هذه الراوية إلى أن شيخ خُفَراء درنكة كان دقيقًا -إلى درجة التعنُّت- في تنفيذ الرقابة العسكرية على الخُطِّ، وأن هذا قد دَفَعَه إلى الحقد عليه؛ فقامَت بينهما مُناوَشاتٌ انتهت بهروب الخُطِّ من المُراقبة، ومحاوَلَته قَتلَ أحد الأهالي من أقارب شيخ الخفراء؛ فأَخَذَ البوليسُ يُطارِدُه، وطالَبَت أسرَةُ شيخ الخفراء بثأرها، واشتدَّت المعارك الدَّامية، فقتل الخُطُّ خلال عامَين تسعة أشخاص، من بينهم أقارب لشيخ الخُفَراء، وقُتِلَ خلالها من أقارب وأنصار الخُطِّ سَبعةُ أشخاصٍ، من بينهم شقيقاه: رمضان وعبد الحكيم.

وهناك رواية ثالثة لا تختلف في مضمونها عن الرواية الأولى، وهي تقول إنَّ الخُطَّ بدأ حياته فلَّاحًا أجيرًا في بلده درنكة، من أعمال مركز أسيوط، وأنَّه اقتَصَدَ من أجره بضعةَ قروشٍ، وتَوجَّه إلى السُّوق ليشتري رَطلًا من اللَّحمِ، فاختلفَ مع الجَزَّار «أبو هاشم» على الميزان؛ فطَرَدَه الجَزَّارُ قائِلًا:

- روح شوف لك كلب ادبحه وكُلْ لَحمُه أحسن.

ورأى الخُطُّ أن هذه إهانة لا يمكن غَسلُها إلا بدم الجَزَّار سَليطِ اللِّسان، وببساطَةٍ اختطفَ نَفسَ السِّكِّين التي كان الجزار يستخدمها، وبَقَرَ بها بَطنَهُ، وشَهَرَها في وجه الجالسين، مُحذِّرًا مَن تُسوِّل له نفسه بالتَّدخُّل، ثم انطلق إلى الجبل، ليصبح واحدًا من أولاد الليل.

والرواية الأولى هي المُعتَمَدَة، غير أن هناك تعديلًا بسيطًا على بدايتها، فالأرجح -على حَدِّ رواية رشيدة زوجة الخُطِّ- أنه بدأ حياته بدايةً عاديَّةً تمامًا، واحِدًا من ملايين الناس الذين يعيشون في حالهم، وجرى على رزقه من خَيْرِ النِّيل، كصيَّادٍ سمكٍ فقيرٍ، ربما لأن الأرض ضاقَت به؛ لأن الكبار كانوا قد أكلوا كُلَّ خَيرِها.

ويومًا وهو يصطادُ من بِركَةٍ في درنكة تَسلَّلَ أحدُ أطفال شيخ الخفراء، وأخذَ يَعبَثُ بما اصطاده من سَمَكٍ، فَنَهَرَه الخُطُّ، ومَنَعَه، فذَهَب الطِّفلُ باكِيًا لأبيه، وعَزَّ على شَيْخِ الخُفَراء الجَبَّار المُتكبِّر أن يَنْهَرَ كائِنٌ لا مَعنى له مثل محمد محمود منصور- ابنَه العزيز، وبِعصبيَّةٍ شديدةٍ هَوَت على وجهه بالصَّفعَة الَّتي حَوَّلته من صَيَّادِ سَمَكٍ إلى صائِدِ بَشَرٍ، والَّتي دَفَعَ الصَّعيدُ كُلُّه ثَمنَها لِفترَةٍ تَصِلُ إلى سَبعِ سنوات...

وفي الفترة الأولى من احترافه للإجرام، ظَلَّت جرائمه تدور في إطار واحد؛ هو الثأر من شيخ الخفراء وأسرته، ويومًا عَلِمَ (من عُيونِه وجَواسيسِه الذين بَثَّهم حَولَ أسرةِ الشَّيخ) أنَّ ثلاثةً منهم ذهبوا إلى «أبنوب» لإستئجار أعرابيٍّ لِقَتلِه، فانتظرهم في الطريق بين أسيوط ودرنكة، وبمجرَّد أنْ لَمَحَ السيَّارةَ الَّتي تُقِلُّهم استوقفها، وأنزَلَ أقاربَ شَيخ الخُفراءِ الثَّلاثَة، وأطلق عليهم الرَّصاصَ فَقَتَلَهم، ثمَّ سَمَحَ للسَّيَّارة باستئنافِ سَيْرِها.

وانقلبت حياتُه تمامًا...

وسواءً صحَّت رواية «الجَزّار» أم «رواية الصَّفعَة»، فإنّ نشاط الخَط الإجرامي كان نَوعًا من «العُنفِ المُرتَدِّ، وكانت مصرُ أيَّامها تَفيضُ بهذا العُنفِ المُرتَدِّ؛ ذلك أن الحياةَ كانت قاسِيَةً أبلَغَ القَسوَة، وتكاد تكون بلا ثَمَنٍ، وكان لا بُدَّ من مُواجَهَتِها (تلك الحياة) بهذا اللَّونِ من الاستِهانَةِ، ولعلَّها كانت رَغبَةً دَفينَةً في القَضاءِ على حياةٍ بلا قيمَة. بَعضُ العُنفِ ارتدَّ إلى الذَّات، فَدمَّرَ كثيرون أنفُسَهم في الخمرِ والمُخدِّرات والجِنس، وبعضه ارتدَّ إلى نفس العناصر والشرائح المَطحونَة، التي تُعاني من القَهرِ والفَقرِ والضَّياع، ووَجَّه آخرون عُنفَهم إلى المُحتَلِّ وعساكِره وعُملائِه، من سياسيِّين ومُهرِّجين.

ولأنَّه مُطارَدٌ ومَطلوبٌ في ثأر فهو لا يستطيع أن يعيش كَكُلِّ الناس؛ إنه لم يَعُد قادِرًا على الذَّهاب إلى النيل للصيد، ولا إلى السوق للبيع، وإذًا فلا بُدَّ من مَوردٍ للرِّزق؛ مَوردٍ يُمَكِّنه من الحياة ومن الصُّمود في معركة الثَّأر، ومن اصطناع الأعوان، وتسريح الجَواسيس.

وكان اسمه قد اقترن بالجَرأةِ والشَّجاعَةِ والإقدام، وأكَّدَت انتصاراتُه الحاسِمَةُ على عبد الله محمدين، وأسرته، أنَّه إذا قال فعل، وأن رصاصته تحمي كَلِمتَه، وتُجبِر الكُلَّ على احترامها..

وذات يومٍ أَقنَعَه شَقيقُه رمضان بأن يكون ابن ليل... صحيح؛ لماذا لا يكون ابنَ ليل؟

الفصل الثالث
أبناءٌ لِكُلِّ شَيء

صحيح... لماذا لا يكون ابنَ ليل؟

كانت مصر -أيَّامَها- مليئةً بأبناء لكلِّ شيء، كان هناك «أولاد الأغنياء»، و«أولاد الفُقراء»، و«أولاد جميعًا أُلِّفت مسرحيات ومُثِّلَت أفلام... أمَّا «أولاد الكلب» فإن أحدًا لم يَجسُرْ على أن يؤلِّف عنهم شيئًا... ولا حتى أغنية؛ لأنهم كانوا سَبَبَ المأساةِ وأصلَ الكارثة، وربما كان مُحتَّمًا مع هذه الأنواع من الأبناء أن يكون هناك أيضًا «أولاد الليل».

وأكثر من أي مكانٍ آخرَ، فإنَّ الصعيد كان أرضَ هؤلاء؛ فهو مُؤهَّلٌ لذلك أكثرَ من أيٍّ بُقعَةٍ أخرى في مصر؛ فقد كان مَليئًا برجالٍ يَملكون قُرًى بأكمَلِها، وملايين لا يملكون «بوصة» من الأرض، حتى ولا قبرًا يُدَفنون فيه إذا حُمَّ القضاءُ- وطبيعة غريبة: قَحطٌ، وفَقرٌ، وقَيظٌ، ومياهٌ تَغمُرُ الزَّرعَ والبيوت في موسم «الحوض» أو الفيضان، ووابورات للريِّ، وجُزُرٌ في مَجرَى النِّيل تبدو كالقِّلاعِ الصَّامِدَة، وأوبِئَة مُعظَمُها من الجُوع؛ الجوع الحقيقي، وليسَ المجازيَّ، حيث تَفرُغُ المَعِدَةُ تمامًا من أيِّ شيء، وتتحرَّكُ الأمعاءُ حَركَتَها اللولَبيَّةَ، ولا يَسدُّ جوعَها لُعابٌ سائِل...

من الفَقرِ والغَيظِ تَولَّدَت قَسوةُ المالِكين في الصَّعيد، تَولَّدَ بالتالي نَوعٌ خاصٌّ من العُنفِ المُرتَدِّ، كان الصَّعيديُّ (وهو ابن «الشَّقاءِ الطَّبيعيِّ») شديدَ الاعتزازِ بذاتِه، شَديدَ التَّحمُّل للجَهد، إنه جنسٌ وصَفَه الأستاذ يحيى حقِّي يومًا بأنه «يُحيلُ العَملَ من فَورِه إلى وَقدَةِ الحُمَّى، يُشبِهُ النَّملَ في دَأَبِه وتَبَعثُرِ أفرادِه وانتظام مَجموعَتِه معًا، إذا كان لا مَفرَّ من «الحَزْق» فَعيبٌ أن يَصدُرَ من حلوقِهم إلَّا مُتَستِّرًا في تَرجيعٍ جَماعيٍّ لمقطَعٍ في أغنية يُنشِدُها واحِدٌ منهم... لقد طَوَّفتُ في بِقاعِ الأرضِ فَلَم أجِدْ للصَّعيديِّ نِدًّا في تَحمُّلِه للجهد». ورُبَّما كان هذا «الاعتزازِ بالذات» ضرورةً يلجأ إليها الصَّعيديُّ لحماية نفسه من الانهيار الذي لا بُدَّ حادِثٌ له لو استسلمَ لظروفِ حَياتِه القاسية. إن الصَّعيديَّ الذي يَعتَبِرُ «التَّأوُّه» (عند الألَم) عَيبًا، و«الحَزْق» عند بَذْلِ الجَهدِ مَسبَّةً- لا يُمكِنُ أن يَقبَلَ صَفعةً على الوجه من عبد الله محمدين، حتى ولو كان شيخَ الخُفراء وابنَ ناس.

وفي مُواجَهَةِ أبناء النَّاسِ وأبناء الذَّواتِ كان أَولادُ اللَّيل...

والليل في الصعيد كائِنٌ مُتوحِّش؛ فهو -كما وصفه يحيى حقِّي أيضًا- «سَجَّانٌ، له يَدٌ سَوداءُ تُغلِقُ الأبوابَ عندَ غروبِ الشَّمس، على الإنسان والحيوان». وهناك الجبال التي تُحيطُ الوادي، مَليئَةً بالمَغارات المُتعدِّدَة؛ كهوفٌ تَجعل مَن يَتحصَّن بها في أمانٍ باستمرار...

ومن عمليَّات الأَخْذِ بالثَّأر نَشَأَ أبناءُ الليل، وتَكوَّنَت عصاباتٌ مُتعدِّدة منهم؛ تَسرق وتخطف وتقتل، وتُطالِبُ بالثَّأر، وتُطاردُ به؛ يُسمُّونهم «المطاريد» أو «أولاد الليل»؛ فقد كانوا يقيمون نَهارَهم في الجَبل، ويَهبِطون مع اللَّيل إلى القرى والمُدن، يقتلون، أو يخطفون، أو يشترون زجاجات

«العَرَقي» وكمِّيَّاتِ الأفيون، أو ينالون مُتعة سريعَة في أحياء البِغاءِ، وكانَت مُنتشِرَةَ آنذاك رسميًّا في كُلِّ مُدُن الصَّعيد الكبرى.

وأصبح أولاد الليل ظاهِرَةً؛ أصبح لهم من القُوَّة والمَنَعَةِ واحترام الكلمة ما لم يَكُن لحكوماتٍ تَفتَقِدُ للاحترام، وكَوَّنوا -على مدى الزَّمَن- تقاليدَهم وعادَاتِهم، فقد كان مُعظَمُهم يَكفُّون أيديَهم عن الفقراء والضُّعفاء، كان ضَغطُهم الأساسيُّ على المالِكين، والَّذين لديهم المال أو القوة.

والشيء الغريب في ظاهرة أولاد الليل هو هذه العلاقة الوثيقة بينهم وبين أعيان الصعيد وأثريائه، وكان كثيرون منهم يعيشون في حماية الأعيان والأثرياء، أو ينتمون إليهم، وقد يعادونهم، فالمُهمُّ أنه كانت هُناكَ علاقةٌ ما تَربطُ بين «أولاد الليل» و«أولاد الاغنياء». أحيانًا يَستَعينُ أحدُ الأثرياء بِشقيٍّ أو «ابن ليل» في الهجوم على مُنافِسٍ له؛ يقتلع زراعته، أو يَسمُّ ماشِيتَه، أو يَقتُلُه هو أو قَريبًا له، أو أحدَ أعوانِه، ومُقابِلَ هذا فإن الثريَّ يَحمي ابنَ الليل، ويأويه، ويُبلِغُه تَحرُّكات البوليس، ويُزوِّدُه بالأفيون، ورُبَّما بالنِّساء.

وفي معظم التقارير الرسميَّة الَّتي كُتِبَت عن أبناء اللَّيلِ شكى البوليسُ من أن الأعيانَ يُعَرقِلون مَجهودَه في القَبضِ على الأشقياء، بإخفاء هؤلاء الأشقياء في مَزارِعِهم وبُيوتِهم.

ونظرًا لأن الهجوم (هجوم البوليس) على بيوت «أبناء البيوتات» كان من الأمور التي لا تخلو من حَرَجٍ؛ فإنَّ الأشقياء كانوا يَجدون دائمًا فُرصَةً للفرار، ليس هذا فقط، بل إن بعضَ هؤلاء الأعيانِ كان عُضوًا في البرلمانِ، ومُتمتِّعًا -تبعًا لهذا- بالحَصانَةِ البرلمانيَّة، ولا يجوز الهجومُ على منزله دون إذنٍ سابِقٍ من مَجلس النُّوَّاب.

لقد كان «أبو هاشم» -مَثَلًا- واحِدًا من أَعْتَى أولاد الليل في الصَّعيد، كان نشاطه الإجراميُّ يَتَمركَزُ في مديريَّة جِرجا، وكان كُلُّ مُديرٍ جديد يتولَّى شؤونَها يَعتَبِرُ أنَّ أوَّل واجباته هو القضاء على «أبو هاشم»، ولكنَّ واحِدًا منهم لم يُحقِّق هذه الأمنية، كان بعضهم يظفر بهذا أو ذاك من أعوانِه، أمَّا الرَّأسُ الكبيرُ نفسها فظلَّت عزيزةً على السَّادة المُديرين. ومرَّةً دُعِيَ سعادةُ المدير الجديد لجرجا إلى مَأدُبَةٍ أقامها له أحدُ أعيان المنطقة في قريته، ودُهِشَ المديرُ لهذه الدعوة التي لا مناسبةَ لها، ولكنه أجابها؛ من بابِ الحِرصِ على الودِّ بينه وبين الأهالي مسموعي الكلمة، واسعي النفوذ في مديريَّتِه، وقُدِّم الطَّعامُ الشَّهيُّ؛ فأكَلَ المديرُ حتى شَبِع، ثم قُدِّمَت القهوة، وأصبح الجُوُّ مُهيَّئًا للتَّبَسُّط في الحديث، وباعِثًا على السَّمَر، وقال المدير لمن استضافوه:

- أنا لا أصدِّق أن «أبو هاشم» هذا شخصيَّة حقيقيَّة، ولن أصدِّق إلَّا إذا رأيتُه.

وضحك المضيِّفون بطريقةٍ دَفَعَت الباشا المُديرَ لِسؤالِهم -دَهِشًا- عمَّا يدفعهم للضِّحك، وأَلَحَّ في ذلك عندما تَكرَّر الضِّحكُ مَصحوبًا بغَمَزاتٍ خَفيَّةٍ بين أفراد الأسرة الكبيرة لداعيه، وأخيرًا قال أحدُهم:

- إن «أبو هاشم» هو الذي طلب أن يرى سعادتك؛ ولهذا أَقَمنا هذه المَأدُبَة، وهو بِعَيْنِه الرَّجُلُ الَّذي قَدَّم لكَ القَهوةَ منذ دقائق...

إلى هذا الحدِّ كان التواطؤ والتَّحالُف، ولهذا لم يكن غريبًا أن يَعتَبِرَ «أبو هاشم» نفسه من المُشتَغِلين بالسِّياسة؛ فقد دخل بَحرَها الواسع، وكان هناك اثنان من شيوخ المنطقة يتنافسان على

عضويَّة مجلس الشيوخ، هما: عبد الله فواز وأحمد أبو رحاب، وقد استعان الثاني به في جمع الأصوات، وتهديد أهل القُرَى المُؤيِّدَة لمُنافِسِه، لدرجة أنه زار يومًا إحدى القُرى الَّتي كانت مَعروفَةً بِتَحيُّزِها للشيخ فوَّاز، فَهدَّدَهم إذا لم يَعْدِلوا عن مَوقِفِهم ويُؤيِّدوا «أبو رحاب»، وقال لهم:

- لقد جِئتُ زائِرًا، وسَنَتقابَلُ بعد فَتحِ صناديقِ الانتِخاب...

على أن التَّحالُف بين أولاد الليل وأولاد البيوتات كان يدور في إطار الصراع بين أولاد البيوتات؛ ولهذا فإنَّ الصِّراع ضدَّ أولاد الليل كان صِراعًا مُعقَّدًا؛ فمن ناحيةٍ فإنَّ الجُموعَ الغَفيرة من الفقراء، الذين لا ظَهْرَ لَهُم، قد وقَفَت على الحِياد في هذا الصِّراع، ولم تُقدِّم مَعونَتَها للبوليس؛ خَوفًا من أبناء الليلِ؛ من بَطْشِهم من ناحيَة، وأملًا في عطاياهم من ناحيةٍ أخرى، وعَدَمِ استشعارٍ للعَداءِ تِجاهَهم في كُلِّ الأحوال.

وقد حدث مَرَّةً خلال شهر نوفمبر (تشرين الثاني) عام 1947 أنْ كان البوليس يُطارِدُ عِصابَةَ «الأعمى»؛ أخطر أبناء الليل في مركز أخميم، وكان مُتحصِّنًا في زراعة ذُرَة، في زمام بَلَدِه «الصوامعة»، وحاصَرَ البوليسُ أماكِنَ الجُناة فَلَم يَعثُرْ عليهم، إلَّا أنه وَجَدَ داخلَ حقول الذُّرة «طِشْت» من النُّحاس، وسَلَّتيْن بهما ملابِسُ وأدواتٌ منزليَّةٌ، وخُبزٌ، وأوراقٌ، وشَهادةُ ميلادٍ تَدُلُّ على أن هذه الأشياء لزعيم عصابة «الأعمى»، كما وجد بالمَكان آثارَ أقدام غيرَ ظاهِرَةٍ، وعُيِّنَت قوَّةٌ من الضُّبَّاط والعساكر والخفراء لحراسة هذه الآثار والمُحافَظَةِ عليها، واستُدْعِيَ الكلب البوليسي «رهيب» ليشمَّها؛ تَمهيدًا لمُطارَدَةِ العصابة، وكانت المفاجأة في اليوم التالي عند إحضار الكلب البوليسي أنَّ الآثارَ قد مُحِيَت تَمامًا... لقد أغرقَ أهالي الصوامعة زراعة الذُّرة، ومساحاتٍ واسعةً حولها من الأراضي من أمكِنَةٍ خَفيَّةٍ بعيدةٍ عن أعيُن الحُرَّاس، وهَرَبَ «الأعمى»!

كان ذلك هو عالم أولاد الليل الذي انضمَّ إليه الخُطُّ.

لقد صعد الخُطُّ إلى الجبل، وتَبِعَه أخوَتُه الأربعة، وتَبِعَهُ كثيرون: طُلَّاب ثأر، وطُلَّابُ مَنفَعَةٍ، وهاربون من أحكام، وفارُّون من شَقاءِ الحياة، وباحثون عن المُغامَرَةِ لِمُجرَّد المُغامَرة... كان منهم أحمد جابر؛ واحِدٌ مِن أخطر رجاله، وأبو الصالحين؛ «كلبه الأمين»، وكَشَّافُه الَّذي لم يكن يَشتَرِكُ في العمليَّات، وإنما يتَجسَّس على البوليس، ويُعاينُ مَسرحَ العَمليَّات، ويجبي الإتاوات فقط.

كان البَحرُ في مملَكَةِ اللَّيلِ مَليئًا بالأسماك الكبيرة، والحيتان الضَّخمَة، هائِجَ الأمواجِ نتيجةً للصِّراع الحادِّ والمُستمرِّ بين أولاد الليل على السيطرة والنفوذ والزَّعامَة...

صراعٌ يَنشأ عادَةً بين مَن يَمتَهِنون نفسَ المهنَة، حتى ولو كانت «القتل»، ويَتَركَّز ويزداد حِدَّةً بطبيعة حياة المطاريد وما بين أصدقائهم الأعيان من مُنافَساتٍ ومُشاجَراتٍ على أغراض الدُّنيا الباقِيَة، والزَّائِلَة...

وكان من أشهر الأسماء في عالم الإجرام الصَّعيديِّ (وخاصَّةً في أسيوط) اسمان: الشيخ عوَّاد صالح، وأحمد عبد الغفار.

***

فيما بعد، أصبح الشيخ عواد هو عقل الخَط المفكِر، وراسِمُ خَططِه العبقريّ، ولو لم يتحالف الخُطُّ مع عوَّاد فلرُبَّما كانت حياتُه أقصرَ عُمرًا، وأكثر عُنفًا؛ فعندما امتزَجَت حياتُهما وتوحَّد مصيرُهما، أضفى عيَّاد شيئًا أساسيًّا على نشاط الخُطِّ الإجرامي.

قبلَ عَوادَّ كان الخُطُّ عُنفًا هائِجًا، وجرأةً طائِشَةً، وانقضاضًا لا يَعرِفُ التَّراجُع.

ومعنى هذا أنه كان مُجرمًا «انفعاليًّا»، تَتحكَّم فيه عواطِفُه، وكانت مَيزَتُه الفائِقَةُ هي شجاعته وقُدرَته على المُباغَتَة، لكنَّ عوَّاد جاء فنَظَّم هذا العُنفَ، وخَطَّط له؛ فمنع الخُطَّ من المغامرات التي قد تقضي على العصابة، أو تستدرجها إلى العمليات الانتحارية.


على قمة الجبل ينظر الى ابنته

آخر ساعة العدد 668 (26 رمضان 1366 - 13 أغسطس 1947)

وعندما بدأ الخَط نشاطه كواحِدٍ من أبناء الليل كان عوَّاد اسمًا لامِعًا في عالم الإجرام، سَبَقَ الخُطَّ إليه بحوالي خمس سنوات، وفَرَضَ سُمعَتَه المُدوِّية في عالم الليل في كل مديرية أسيوط.

كان قد بدأ حياتَه فَلَّاحًا عاديًّا في إحدى القرى التابعة لمركز «أبو تيج»، بقرية اسمها «بني سميع»، وَلِدَ قبل الخُطِّ بحوالي سبع سنوات، وعاش حياةً عادِيَّةً في أوَّلِ صِباه ومَطلَعِ شبابه، إلى الدَّرجَة التي جعلته يتَّجِهُ إلى الأزهر، حيث درس فيه عِدَّةَ سنواتٍ، ولو استمرَّ لأصبح «صاحب الفضيلة»، يتبرَّك النَّاسُ بِتقبيلِ يَدِه، ويهتدون بفتاواه، ويأتَمُّون به في الصلاة، لكنه فشل في الدراسة وعاد من القاهرة إلى «بني سميع»، يحمل في رأسه قشورًا من العِلْم، يستخدمها في تبرير الإجرام... وكعادة أمثالِه، تزوَّج وعاد للعمل في الزراعة، ثم نشبَ خِلافٌ ماليٌّ بينه وبين أصهاره، وانتهى هذا الخلاف بأن رفع عوَّاد بُندقيَّتَه وقتل واحِدًا منهم، وبدأت دائِرَةُ الثَّأر المُتَّصِلَة في تَصاعُدِها اللَّولَبيِّ والحَتميِّ.

ومنذ أوَّل لحظة تَميَّز عَيَّاد بنوعٍ من القسوةِ البالِغَة، والتَّصميم العقليِّ البارد؛ وهو ما جعله مُختَلِفًا عن الخُطِّ؛ الأهوج، الانفعالي، الذي يرفع المُسدَّسَ ويضغط على الزناد، ثم يَعدِلُ عن القَتل بسبب نَظرَةٍ ذَليلَةٍ في عين ضحيَّته، والذي يغلي الدَّمُ في رأسه؛ فتتحرَّك أصابعه على الزِّناد دون تفكير، لكن عوَّاد لم يكن كذلك؛ كان عَقلًا بارِدًا في قسوته، يُخطِّطُ في بُطءٍ وأنَاةٍ، ثُمَّ يُنفِّذ بهدوء وكأنَّه يَتنزَّه أو يأكل، وقد وصلت قسوته إلى درجة لا يُمكِنُ تَصديقُها؛ ففي حُمَّى معارك الثَّأر التي نَشبَت بينه وبين أصهاره قَتَلَ خَمسةً منهم خمسِ ليالٍ متَّصِلَة؛ كان يَطرُق البابَ لَيلًا، وبمجرَّد أن يفتحه له أحدُهم يُطلِقُ عليه بندقيته، وليس مُهمًّا مَن الذي تلقَّى الرَّصاصة: طفلٌ أو امرأة أو رجلٌ أو عجوز- فعل هذا أكثرَ من مرَّة، فأطلق بندقيَّته على أطفال ونساء ورجال، المفروض أنهم جميعًا من أصهاره وذوي رَحِمِه.

وفيما بعد، وعندما غادر عوَّاد عالَمَ الإجرام، كان في عُنُقِه أربعون جنايَةَ قَتلٍ، أُدين في بَعضِها غيابيًّا، وصَدَرَت ضِدَّه أحكامٌ بالأشغال الشاقَّة، مَجموعُها نِصفُ قَرنٍ، فقط لا غير!

وتَبِعَه أيضًا ابن أخٍ لَهُ اسمُه محمد تمَّام، وكان في العشرين من عُمرِه؛ نَبْتَةٌ غَضَّةٌ في عالَمِ الإجرام، جريءٌ، مُندَفِعٌ، قاسي القلب، حاز إعجابَ عَمِّه، واعتَبَرته العِصابَةُ فَتاها المُدلَّلَ، وَوَليَّ عَهدِ زَعيمها، الموهوب.

وانتشرت «عصابة عواد»، وفرضت إرهابها على الصعيد كله. كانت عصابةً شُموليَّةً مُتعدِّدَةَ النَّشاط، تَرتَكِبُ كُلَّ أنواعِ الجرائم: تَقطَعُ الطَّريق، وتَقتلُ وتَسرقُ المَواشي، وتُستَأجَرُ للقَتل. وضَعَت العصابَةُ تسعيرةً خاصَّةً للإطاحة بالرؤوس. كانت على استعدادٍ دائِمًا لكي تَأخُذَ بثأر مَن تُعوِزُه ظُروفُه، أو تُخلِّصُ أحدَ الأثرياءِ من مُنافِسٍ له، أو عَدوٍّ يَخشى بَأسَه، أو مُتمرِّدٍ يَسعى لتأديبه؛ كانت التسعيرة مُتهاوِدَةَ، فاستِئصالُ رَأسِ الإنسان عمليَّة تقوم بها العصابة بما لا يزيد عن خَمسين جنيهًا، لكنَّها لم تَكُن تَقِلُّ عن عشرين على أية حال، وما يُحدِّدُ الثَّمَنَ قِيمَةُ الضَّحيَّة، وقيمةُ المُستَأجِر.

واستهتر عوَّاد -شأن كُلِّ زملائه- برجال الأمن بالإدارة، وبالناس جميعًا، كان يَفرضُ إتاواتِه على الناس، فإذا عجزوا عن دَفعِها نَقدًا حَجَزَ على جزء مَحاصيلهم الزراعية، بما يُعادِلُ قيمةَ الإتاوة، فيتركون له المَحصولَ في الأرض دون أن يجرُؤَ واحِدٌ منهم على أن يُنْقِصَ منه شيئًا، حتى يحضر عوَّاد بنفسه، أو يرسل بعضَ أعوانه فيأخذوا المحصول ويبيعوه عَلَنًا، ويُسلِّموه ثمنه.

وكانت جرأته من النوع الوَقِح، ووصل به الأمر إلى أنه كان يهبط إلى بندر أسيوط، ويغشى دارَ السِّينما الوحيدة، أو يتردَّد على الملاهي والأفراح في المدينة، دون أن يَجرُؤَ أحَدٌ على الوشايَةِ به أو الإشارة إليه، ليس هذا فقط، بل إنه كان قد استهان تمامًا بالبوليس، فدخل مرَّةً دار السينما، وجلس في «بنوار» وحوله بعض أعوانه، وفي البنوار المجاور له كان سعادة حكمدار المدينة يجلس هو وأسرتُه، وتَجاهَلَ الحِكمدارُ تمامًا أن الجالِسَ في البنوار القريب منه واحِدٌ من أشهر «المطاريد»، مَطلوبٌ القَبض عليه، وصادِرٌ ضِدَّه أحكامٌ جُملتُها نِصفُ قَرنٍ فقط من الزَّمان، طبقًا لقانونٍ أصدرته السُّلطَة التشريعية، وقضَت بنصوصه السُّلطَةُ القضائيَّةُ، وطالبَت بتنفيذه السُّلطةَ التنفيذيَّة.

وهكذا كان جلوس عوَّاد، طالب الأزهر الفاسد، وابن الليل المُطارَد، في البنوار المجاور لسعادة الحكمدار في أسيوط، وأمام كلِّ الناس- بُرهانًا واضِحًا على أن الدَّولةَ شاخَت، أو بمعنى آخر: قد ماتَت، ولكنَّها لم تُدفَنْ بَعدُ!

وفي فترة من الفترات بدأ الزمنُ يُدير ظَهرَه لعوَّاد، فعلى الرَّغم من قُوَّته وقَسوَتِه وطابَعَهِ الدَّمويِّ، فقد كان مَعيبًا كرَجُل لَيلٍ؛ لأنه كان بخيلًا. وتَفجَّرَت المَشاكِلُ في العصابة، واعترضَ كثيرون لأنَّه كان يستأثِرُ دون الآخرين بأكثر الغَنائِمِ، وهَجَرَ كثيرون العِصابةَ، وسقط آخرون في يَدِ البوليس، وكان مَفروضًا -حسبَ شَريعَةِ أولادِ اللَّيلِ- أن تَرعَى العِصابَةُ أهلَ مَن سقطوا في يَدِ البوليس، وتُوكِّل لهم مُحامين، وتحتفظ بوَلائِهم بمُختَلَفِ السُّبُل، ولكن عوَّاد -لِبُخْلِه وقسوَتِه- لم يَفعَلْ، وانفضَّ كثيرون عن العِصابَة، وانضمُّوا للخُطِّ، وذَهَبَ آخرون إلى أحمد عبد الغفار.

***

كَمُعظَمِ المُجرمين وأبناء الليل، نشأ أحمد عبد الغفار: قُرصان النِّيل.

وكمُعظَمِهم، فإنه عندما غادر عالَمَ الإجرام قَتيلًا بِيَدِ البوليس كان مجموع ما حُكِمَ عليه غيابيًّا خمسًا وثلاثين سنة، أشغالًا شاقَّة، غير عشرات الجرائم التي كان التحقيق في كلٍّ منها ينتهي بأنَّ الفاعِلَ مجهول.

وكان قُرصانُ النِّيل كَكُلِّ أولاد الليل؛ يرتكب الجرائمَ في وَضَحَ النهار أحيانًا، أو مُختَفِيًا بحُلكَةِ ظَلامِ اللَّيلِ، وفي كُلِّ الأحوال فإنه لم يكن «فاعِلًا مجهولًا»، لكنَّ الناس كانوا دائمًا عاجِزين عن توجيه الاتهام، لا يمتلكون الشجاعة أو الرغبة في إبلاغ البوليس، ولا يثقون في أنه قادِرٌ على حمايتهم، وكان أحمد عبد الغفار قد حدَّد عقوبةً بسيطةً على كُلِّ من يشهد على أحد رجاله الذين يقعون في يد البوليس، أو يبلغ عنهم، والعقوبة هي: رأسُ المُبَلِّغ، ومالُه: وكُلُّ ما يَملِكُ!

كان في الخامسة والثلاثين فقط، بدأ نشاطَه قبل ذلك بسنواتٍ طويلة، وسرعان ما اكتشف أنه موهوب في القتل؛ فتخَصَّص فيه، ووضع تسعيرة للرؤوس، ولجأ إليه كُلُّ عاجِزٍ عن الثأر لنفسه، وكُلُّ مُتآمِرٍ على حياة الآخرين، وانهال المالُ عَليه، وكَثُرَ القتلى، ورَوَت الدِّماءُ البَحرَ الأخضرَ.

وبسبب خطأ منه نشَأَت بينه وبين زعيم أعيان ديروط: أحمد قرشي باشا- مُناوَشاتٌ، سُرعان ما تحوَّلَت إلى عَداءٍ حادٍّ، وأثبَتَت مَعركَتُه مع قرشي باشا أن الأعيانَ قادرون -لو أرادوا- على أن يُلزِموا أولاد الليل جانِبَ الدِّفاع، أو على الاقل يُكبِّدونهم خسائِرَ بالِغَةً. لقد دخل رجالُ قرشي باشا المَعركَةَ ضدَّ أحمد عبد الغفار، وتَكاثَرَت المَعارِكُ بين الطَّرَفين، وأعلَنَ الباشا عن مُكافَأةٍ قَدرُها ثلاثة آلاف

جنيه لِمَن يُرشِد البوليس إلى القبض عليه، ومع ذلك لم يتقدّم أحد. وتَصاعَدَ الخِلافَ بينه وبين الباشا، إلى دَرجَةٍ جَعلَت زعيمَ أعيان ديروط يُصَمِّمُ مَنزِلَه بحيث يُصبِحُ قلعةً حربيَّة كامِلَة؛ وهو ما يُمكِّنه من الصُّمود أمام أحمد عبد الغفار، وإجباره في النهاية على الهجرة من ديروط إلى المنيا؛ ليستريح من القرشي باشا، ويستريح هو منه.

وفي المنيا انتشر أحمد عبد الغفَّار، وتَجبَّر، فَفَرَض إرهابَه على قُراها وأعيانِها، إلى أن استوطن قرية «المطاهرة»؛ بناءً على دعوةٍ وَجَّهَها إليه أحد أعيانِها لحِراسَةِ أملاكِه، وتقويَتِه ضدَّ أعدائه.

وأَفرَدَ الرَّجلُ لابن اللَّيلِ المُهاجِر بيتًا في نِطاق أملاكه، ولكن أحمد عبد الغفار طَلَبَ منه أن يبني له بيتين آخرين؛ فبناهما، واستدعى زَوجَتَه، فأقامَت في واحِدٍ منهما، واستقرَّت عصابَتُه في البيت الآخر. وازدادت أواصِرُ المَودَّة بين ثريِّ المَطاهرة «ابن البيوتات» وبين «ابن الليل» أحمد عبد الغَفَّار، وبَلَغَ من إجلال ابن البيوتات العريقة له أنْ زوَّجه إحدى قريباته، واستدعى المأذونَ، فَعَقَدَ عليها باسمٍ مُستعارٍ، هو «أحمد إبراهيم مَنَّاع»، ودُشِّنَ التَّحالُفُ بين أبناء البيوتات وأبناء الطريق، بالمُصاهَرَةِ ذاتِ الطَّابَعِ المَلكيِّ، وبين العروش المتنافسة، أو القوى المتكافئة!

واستمرَّت العصابةُ تُمارِسُ مَهمَّتَها، يَتناوَبُ رِجالُها على حِراسة أملاك «البِك»، ويأكلون ويشربون تحت أنظار كُلِّ مُؤسَّسات الدَّولة.

وعلى امتداد تلك الفترة حرص أحمد عبد الغفار على تأمين نفسه؛ كان يَبيتُ كُلَّ لَيلَةٍ في بيتٍ من البيوت الثلاثة، ويَسهَرُ أفرادُ عِصابَتِه على حراسَتِه حتى يَستَيقِظ، ثم أنشأ في كُلِّ بيتٍ سراديبَ بِمنافِذَ خَفيَّةٍ لِيَهربَ بسهولَةٍ عندما تنشأ ضَرورَةٌ تدعو لذلك. إن تَجاربَه عَلَّمَته أنَّ التحالُفات مهما بَلَغَت من مدى بين أولاد الليل وأولاد البيوتات يمكن أن تُقطَعَ في أيَّة لحظة. وفي حماية «أبناء البيوتات» ارتكب «أولادُ الليل» جرائمَ صُغرَى ضدَّ أهالي المطاهرة؛ انتهكوا الأعراضَ، وسرقوا، وقتلوا، واستجابوا بسهولَةٍ لما تُمليه عليهم نَزَعاتُ العُنف.

وأخيرًا سَئِمَ أحمد عبد الغفار حياةَ الدَّعَة، واشتاق إلى حياةِ المُغامَرات، وقادَه التَّفكيرُ إلى ابتكارٍ جديدٍ في عالم أولاد الليل؛ قَرَّر أن يَترُكَ البَرَّ ليَنْشَطَ في النِّيل.

بسرعةٍ أَعَدَّ سفينةَ شراعيَّةً، وزوَّدَها بالأسلحة، وأقام عليها في وسط النيل هو وعصابته، يستوقفون السُّفُنَ الشِّراعيَّةَ المُحمَّلَةَ بالحبوب والبضائع، ويأمرون مَن فيها بالتسليم، فلا يكادون يَعرفون أن الَّذي يُكلِّمُهم هو أحمد عبد الغفار حتَّى يُسلِّموا... وفي الحال تُسحَبُ السَّفينةُ المُحمَّلَة إلى الشاطئ، ويُنقَل ما فيها إلى البَرِّ، ويُباعُ بأرخَص الأثمان، ثم تُساقُ السَّفينةُ الفارِغَةُ إلى وَسَط النِّيل، وفيها بقايا ممَّا كانت تَحمِلُه، وهناك تُشعَلُ فيها النَّار.

وسرعان ما أثبتت الأيام إن «ليل البحر» أكثر عطاءً وأوفَرَ غَلَّةً من لَيل الجَبَل والبَرِّ.

وإذا كان الصياد الفقير محمد محمود منصور لم يَستَطِع أن يحصُلَ من النِّيل -الذي يُسمِّيه الصَّعايدة: البحر- إلَّا على عِدَّة سَمكاتٍ ناحِلَة من البُلطي، ولُطِمَ على وجهه لأنه حاوَلَ حمايَتَها؛ فإن أحمد الغفار قد تَمكَّن من الحصول على عشرين ألفًا من الجُنَيهات سَنويًّا من نفس البحر، فَضلًا عن خَمسة آلاف أخرى، كان يَجمَعُها من الإتاوات على أعيان المنطقة. صفقات مهولة كانت تَسقط في يَدِه

بمجرَّد أن يُشهِرَ سلاحَه في ظلام الليل، آلاف من أرادِبِ الفول والقمح، والعدس، وآلاف من أكياس السِّماد، وبالات القُطن.

وانتزَعَ أحمد عبد الغفار لَقبَ «فُرصانِ النِّيل» بين أولاد اللَّيلِ عن جَدارَة...

***

كان هذا هو الجو الذي انضمَّ خلالَه الخُطُّ إلى عالَم اللَّيل، ولم يَكُن كُلُّ هؤلاء غُرباءَ عنه؛ فهم أبناء منطقة واحدة، ثم إن مُعظَمَهم قد التَقَوا قَبلَ ذلك في مُعتَقَل الطُّور؛ ففي بدايات الحرب العالمية الثانية قَرَّرَت الحُكومةُ القائِمَةُ وقتَها -وكان يرأسها علي ماهر باشا- أن تجمعَ كُلَّ الأشقياء والخَطِرين على الأمن العام، وتُرسِلَهم إلى الطُّور، واقتطَعَت الحُكومةُ جزءًا من الحَجْرِ الصِّحيِّ، الذي أُعَدَّ ليُعزَلَ فيه الحُجَّاجُ العائِدون من الأراضي المُقدَّسة، وخَصَّصَته لإقامة أربعةَ الآفٍ من الأشقياء، جَمَعَهم من جميع أنحاء البلاد، بناءً على تقارير البوليس والعُمَد والمَشايِخ، وذهب كثيرون ظُلمًا في هذه الهوجَة؛ تَحكَّم في عملية إرسالِهم إلى الطُّور ما بَينَهم وبينَ العُمَدِ والمَشايِخ من ضَغائِنَ وأحقادٍ، قادَتهم ظُلمًا إلى مُعتَقَلٍ رَهيب، وخَرَجَ بَعضُهم بوساطاتٍ أو ضَماناتٍ، أو موضوعين تحت المراقبة التي يمكن أن تُنفَّذَ بِتَعَنُّتٍ مُتعمَّدٍ؛ فالموضوع تحتَ مُراقَبة البوليس لا بُدَّ أن يبيت كُلَّ ليلةٍ في مَقرِّ القِسم (أو النُّقطة في الريف)، ولا بُدَّ أن يُخطِرَ النُّقطَةَ قبل سَفَره أي سَفَرٍ له، وإلَّا جازَ الحُكمُ عليه بالسِّجن لهروبه من المُراقَبَة، فإذا سُمِحَ له بالمَبيت في منزله؛ كان عليه أن يَلزَمَه من غروب الشَّمس إلى شروقها، ويَمرَّ الشُّرطيُّ عليه في أوقاتٍ مختَلِفَة للتأكُّد من وجوده في المنزل. على أن وضع هؤلاء كان أرحمَ من وَضع الَّذين لم تُخرجْهم الشَّفاعاتُ والضَّماناتُ من بين أسوار المُعتَقَل؛ حيث ظَلُّوا يُعانون النَّفيَ المُرعِبَ في صَحراءَ قاحِلَةٍ، وتَعَدَّدَت مُحاولاتُ هُروبهم، وتَعرَّضوا خلال هذه المحاولات للمَوت المحقَّق برصاص الحُرَّاس، ومَن نَجَا من الرَّصاص تاه في الصحراء، واختطفته رِمالُها الواسِعَة.

وقد حدث في عام 1946 أن هرب مائتان من هؤلاء المُعتَقَلين، خرجوا من المعتقل إلى الصحراء الواسعة؛ فمات أكثر من ثلاثة أرباعهم، وشوهِدَت هياكِلُهم العظميَّة مُلقاةً في الصَّحراء، وعندما عثرت قُوَّات البوليس التي خَرَجَت تُطارِدُهم بالباقين فَرحوا بها، وجَرُوا إليها يُسلِّمون أنفُسَهم لأفرادها، يَسألونهم شَربَةَ ماءٍ، ولا يطلبون أكثرَ من عَودَتِهم إلى المُعتَقَل، بأيِّ ثَمن؛ ذلك أن الحياة حلوة... ولو في الطُّور!

وبرغم ذلك فإن محاولات الهروب من الطُّور لم تتوقَّف منذ فتحه، وقد هرب منه الخُطُّ في عام 1943، وهرب منه عَوَّاد، وهرب آخرون... ولم تَكُن «نجوم» عالم «أولاد الليل» غَريبَةً إذًا على الخُطِّ؛ لذلك بدأ نشاطَه وهو يعرف جوانب القوة والضعف فيهم، وكانت المنافسات والصِّراعات بين أولاد الليل جزءًا «طبيعيًّا» من صراعهم الدَّمويِّ ضِدَّ الطبيعة، وضِدَّ الجبل، وضدَّ الأعيان: أصدقائِهم وأعدائهم، في نفس اللحظة، ونفس السبب.

وبعد فترةٍ من النشاط بدأ الخُطُّ يُدرِكُ أنه في حاجةٍ إلى تدعيم، كان كثيرون من عصابته قد وقعوا في أيدي البوليس، وكان عَدَدٌ من أخوته -وهم يده اليُمنَى- قد سقطوا قَتْلَى...

وفي نفس الوقت كان عوَّاد يُعاني هو الآخر من نفس الظاهرة، ولكن لأسبابٍ مُختَلِفة، بعد أن انفضَّ عنه أعوانُه لِسُلوكِه المَعيب كِرَجُلِ لَيل، وتقرَّر أن تندَمِجَ العصابتان، وجَرَت المفاوضات، وساهم في تنفيذها أن عوَّاد كان قد أُعجِبَ بنفيسة جابر، شقيقة أحمد جابر، أحد كبار أعوان الخُطِّ، واندَمَجَت العصابتان ودُشِّنَت الوحدَةُ بزواج عوَّاد من نفيسة، وأطلق أولادُ اللَّيل مئاتِ الأعيرَةِ الناريَّة في ظلام الجبل؛ احتفالًا بهذه الوحدة العظيمة.

ولعلَّ ذلك كله كان طبيعيًّا؛ ففي وَطنٍ يَعيشُ فيه أولاد الفقراء بلا أَمَلٍ، ولا مُستقبلٍ، ولا حتى كرامة، بينما يلهو «أولاد الذوات»، ويَتَجبَّرُ «أبناء البيوتات»، ويضطرُّ «أبناء المدارس» إلى اللعب بالقنابِلِ دفاعًا عن وطنهم المُحتَلِّ، والمُستَذَلِّ، وتُؤلَّف المسرحيَّات والأفلام والأغاني عن كل هؤلاء، بينما لا يَجسُرُ أحدٌ على قَوْلِ كَلمةٍ في حَقِّ «أولاد الكلاب»، الذين يسومون الشَّعبَ العَذابَ؛ في مُجتمعٍ مثل هذا كان لا بُدَّ أن يكونَ هناك «أولاد الليل»!

الفصل الرابع
رَصاصاتٌ في الجَبَّانَة

اندَمَجت العصابتان... وأثار اندماجُهما قَلَقَ كثيرين؛ أثار قَلَقَ رجال البوليس، الذين شعروا بأنَّهم سيواجهون أخطبوطًا شرِّيرًا له أَلفُ ذراع، كانوا يعلمون أن الخُطَّ -بعُنفِه، واندفاعه- يمكن أن يقود نفسه وعصابته إلى مُغامَرةٍ انتحاريَّةٍ تقضي عليه وتريحهم منه.

وجاء انضمام عوَّاد للعصابة ليؤكِّد أن عمر الخُطِّ سيطول؛ ذلك أن عوَّاد كان مجرمًا عاقلًا، قاسي القلب -من وجهة النظر البوليسية- يملك قُدرةً مُذهِلةً على التفكير والتخطيط، تُمكِّن العصابةَ من ارتكاب أضعاف ما تَرتَكِبُه دون أن تتعرَّض إلَّا لأقل الأخطار.

لقد كان هذا الاندماج -من وجهة نظر المسؤولين عن الأمن- تَوَحُّدٌ بين القدرة على المباغتة والجرأة العنيفة، وهو ما كان يتمثَّل في الخُطِّ، وبين التصميم البارد والتخطيط الذَّكي، وهو ما يُميِّز عواد عن غيره من أبناء الليل. وأثار هذا الاندماجُ قلقَ الأعيان وخوفهم؛ ذلك أن التناقُضَ بين أبناء الليل كان لهم دائِمًا فُرصةً للمُساوَمَة وتهديد هذا بذاك، والاستعانة بواحِدٍ منهم ضدَّ الآخر، ومشروعات الاندماج والتَّوحيد بين أبناء الليل لا تخدم هذا الهدف. أثار أيضًا قَلَقَ رجال الليل الآخرين، مِمَّن كانوا ينافسون الخُطَّ أو عواد، أو ينافسونهما معًا، وعلى رأسهم: أحمد عبد الغفار، قُرصان النيل، الذي رأى في هذا الاندماجِ مُحاوَلَةً لِتقوية عَدُوَّيْه وتكوينًا لِجبهةٍ لن تَسلَمَ من العداء ضِدَّه...

لكنَّ الاندماجَ تَمَّ، وما كان قد كان؛ أصبح الخُطُّ وعواد اسمين يُثيران الفَزَعَ والخَوفَ في قلوب أغنياء أسيوط وأعيانها، وأولاد الليل الآخرين، والبوليس. ودُشِّن التَّحالُف الجديدُ بزواج الشيخ عوَّاد من نفيسة جابر، وكان عوَّاد يتردَّد على قريتها «موشا» لزيارة شَيخِها، وكان واحدًا من عيونه وأعوانه، فأعجَبَته، وعندما بدأت مُفاوَضات الاندماج طَلَبها من شقيقها أحمد، اليد اليُمنَى للخُطِّ، كانت في حوالي السادسة عشرة، جمالُها أقل من المتوسِّط، لكن الهدف السياسي كان هو المهم؛ لقد أصبح لأولاد الليل تَقاليدُ أَشْبَهُ بتقاليد الأُسَر المالِكَة الكبيرة، التي كانت تَتَصاهَرُ لِتُدشِّن تَحالُفاتِها، وتَتَوقَّفَ ما بينها من حروب ومنافسات، وتَتَقوَّى كُلٌّ منها بنفوذ الأُخرَيات.

وعندما فوتِحَت نفيسة بالمسأَلَة اعترَضَت، ورفَضَت، ثم انخرطت في بكاءٍ حادٍّ؛ لِعِلمها أنها -بهذا الزواج- سيرتبط مَصيرُها برجلٍ مَحكوم عليه بالإعدام، طالَ الزَّمَنُ أم قَصُر، رجلٍ يعيش كالخفافيش، يختفي نهارًا في متاهات الجبل، وتتنَمَّر عيونه ليلًا، وفي كل لحظة يَنتَظِرُه قَضاؤه، مُمثَّلًا في رصاص البوليس، أو المُنافسين، أو حتى الأعوان.

وأرغمها جابر على الزواج، بل وقيل إنه سلَّمها إلى عوَّاد الذي دَخَلَ عليها، وبدون أن تَتِمَّ إجراءاتُ الزَّواج الشَّرعيَّة، وظلَّت تُقيم معه في الجبل إلى أن نقلها إلى «موشا» في سيَّارةٍ يَحرُسها أفراد العصابة. وكان عوَّاد قد احتلَّ منزل فلتاؤوس عوض، أحد المُلَّاك المُتوسِّطين في «موشا»، احتلَّه قَسْرًا، ودون أن يَجرُؤَ صاحِبُه على المُعارِضة، واتَّخذه وكرًا لِغَرامِه بنفيسة؛ يهبط إليها من

الجبل في بعض الليالي، فيبيت، أو يُمضي ساعة وبعضَ ساعةٍ، ثم ينطلق إلى حياته الغريبة، وكان المَنزلُ وَكرًا مثاليًّا؛ لأنه يقع في نهاية دَربٍ ضَيِّق، ولِدَوره الأعلى شُرفَةٌ يَكشِفُ مَن يقف فيها القادمين من أوَّل الدَّرب، فيَحصُدهم بِرصاصَه إذا أراد؛ ولهذا اختار عوَّاد هذه الشُّرفَة لينامَ فيها وإلى جواره بندقيَّتُه.

فى هذا المنزل كان عوَّاد -إذا هبط- يُقيم آمِنًا تمامًا، واثِقًا من أن أحدًا لا يستطيع أن يناله، ليس لأنه يتحصَّن في شُرفَتِه المِثاليَّة فَحَسب، ولكن أيضًا لأن شيخ خفراء «موشا» كان حليفًا له ومُعاوِنًا، وعَينًا له على البوليس!

وكانت تلك ظاهرةً أخرى من ظواهر مَوجة العُنف الَّتي شَهِدَها الصَّعيد، إذ كان لمعظم أولاد الليل حُماةٌ وحُلَفاءُ في جهاز الدولة نفسه، في قلب قُوَّات البوليس: عُمَد، ومُشايِخ، وشيوخ خُفَراء، ومُخبرون، وعساكر؛ كان النِّظامُ يأكُلُ نَفسَه، وكان قد تَفَسَّخ تمامًا.

وقد سجَّل تقريرٌ رَسميٌّ في هذه الفترة أنه «ممَّا يستدعي الاهتمامَ أن أخبار تَنَقُّلات البوليس وقُوَّاته كانت تَصِلُ إلى الأشقياء في مَكانهم وأوكارهم قَبل مُداهَمَتِهم؛ فيأخذوا الحيطةَ لأنفُسِهم حتَّى لا يُؤخَذوا على غِرَّة، وهو أمرٌ خَطيرٌ، تَجِبُ مُعالَجَتُه فورًا، بما يَكفُلُ عَدمَ تَسرُّبِ مثل هذه الأخبار إلى الأشقياء».

لكنَّ الأمر لم يُعالَج فورًا، وأثبت أبناء الليل أنهم مَرضٌ مُتوطِّن أصاب قَلبَ النِّظام، وزاد أَعوانَهم في أجهِزَة الأَمن؛ ولِذَلك ضَغَطَت عصابةُ الخُطِّ وعوَّاد بِكلِّ ثِقَلِها على أعصاب أعيان الصعيد، وارتعبَ أعيانُ أسيوط وأثرياؤها، إلى درجة أنَّهم امتنعوا عن السَّفَر بين البلاد والقُرى ليلًا، وأَحجَمَ سائِقو السَّيَّارات عن نَقل الرُّكَّاب ليلًا إلى المناطِق البَعيدَة...

واتَّبَعَت العصابةُ طريقةً ثابِتة في الحصول على «رزقها»، كانت تُرسِلُ مندوبًا عنها إلى صاحب الأرض، أو صاحب وابور الريِّ لمطالَبَتِه بأجر حراسَةِ مُمتَلكاتِه، فإنْ قَبِلَ استمرَّت في حِمايَتِها له، وإذا رفض فإن زراعته تُقلَع، ومواشيه تُسرَق، وأجزاءُ وابوره تُستَلَبُ، ويَتعرَّض هو وأهله للقتل والاعتداء.

وكانت العصابة -بِحُكم تَخطيط عوَّاد المُتشدِّد- حَريصَةً على احترام كَلِمَتِها وتنفيذ تَهديداتِها. كانت فكرتها الثابتة أنه لا بُدَّ مَن المحافظة على «هيبة» أولاد الليل؛ لكي لا يُفكِّرَ أحدٌ في مُقاوَمَتِهم أو الاستهانة بما يقولون. كان التنفيذ يتمُّ بسرعَةٍ وحَسم. حَدَثَ مرَّةً أنْ رفَضَ أحدُ المُلَّاكِ ما فُرِضَ على أرضه من إتاوةٍ؛ فاقتحم الخُطُّ دارَه وقتَ العَشاء، وأطلقَ رصاصاتِه على الأسرَة بأكمَلِها، وكانت تتناول طعامَها، فَقَتَل الرَّجُلَ، وزَوجَتَه، وأولادَه الخَمسة، وانصرف في هدوء.

وسرعان ما اقتنع الجميعُ أنَّ الخُطَّ إذا ما قال فعل، وأصبَحَت شُهرَةُ العصابة -كما يقول الأستاذ محمد حسنين هيكل، الصحفي الوحيد الذي حقَّق مقتلَ الخُطِّ- تَسبِقُ بَنادِقَها، وأصبح الخُطُّ حاكِمًا بأمره، وبلغ الحالُ إلى حدٍّ أنَّ أصحاب الأرض وكبار المُلَّاك لم يجدوا مَفرًّا من أن يَعهَدوا إليه بحراسَةِ حقولِهم وحماية محاصيلهم، فبدأ يُعيِّن الحُرَّاس من عصابته، ويَجني الضَّرائِب -كما تفعل الحكومة-. الفَرقُ الوَحيدُ بينه وبينها أنه كان يستطيع أن يَحرُسَ وأن يَحمي فعلًا، أمَّا الحكومةُ فقد كانت في حاجَةٍ إلى مَن يحميها منه.

وأصبح هناك نظامًا ثابتًا للحماية وللإتاوة، فرَضَت العصابة أسعارًا لمجهودها كما تفعل أيُّ حكومَةٍ مُنظَّمة؛ حراسة الفَدَّان بنصف جنيه في السنة، وفي السَّنة الأولى كان في حراستها سِتَّة آلاف فدَّان، ثم تَضاعَفَت حتى بلغ إيرادها من «الحراسة المشروعة» -أي العَلَنيَّة، والتي كان البوليس يَعلَمُ بها- خمسةَ آلاف جُنيهٍ في عامٍ واحد، هذا غير الدَّخل الآخر غير المشروع من السَّطو والسَّلْب والنَّهب. واتَّخذَت العصابةُ مَغاراتِ الجبال وكهوفها المُجاوِرَة لدرنكة مَعقِلًا تحتمي فيه من البوليس وطالِبي الثأر، وحاوَلَ البوليسُ عَشراتِ المرَّات أن يَحصُرَ العصابةَ في الجبل ويمنعها من النُّزول إلى القرى، ويمنع عنها الغِذاءَ والمُؤَنَ التي كانت تُحمَل إليها، ولكنه لم يُفلِح؛ لأن الطُّرُقَ التي توصل إلى الجبل كانت مُتعدِّدَة، وبلا حَصْر، وكان أهالي الصعيد عمومًا -ورجال الليل على وجه الخصوص- يعرفون كُلَّ خباياها، وهو ما كان يفتقد إليه رجالُ البوليس، وبدأت العصابة تتصرَّف بوَقاحَةِ القادرين، والذين لا يهمُّهم أحد.

دخل الخُطُّ يومًا مَنزلَ روبرت خيَّاط بك، أحد أعيان أسيوط، ومن أُسرة «خيَّاط» الشهيرة، وأرسل خادِمًا إلى صاحب المنزل يقول له إن الخُطَّ يطلب سيجارة، إذا كان مع «البك» سجائر؛ لأن عُلبَةَ الخُطِّ قد نَفَدَت، وكانت -كما هو واضِحٌ- رسالَةً رمزيَّة، وفَهِمَ «البِك» الرَّمزَ، فعاد الخادِمُ بعد قليل إلى الخُطِّ ومعه ورقه بعشرة جنيهات، وتَأمَّل الخُطُّ الورقة قليلًا، ثُمَّ مَزَّقها نِصفَيْن، وأعادها للخادم، ورَدًّا على تَصرُّف الخُطِّ نزل «البِك» بنفسه، فاسترضى الخُطَّ، ومنحه ما يريد ثمنًا للسجائر!

وعندما زادَ الأَمرُ عن حدِّ الاحتمال أَجرَت وزارة الداخلية تَغييراتٍ في مناصب رجال البوليس في أسيوط، وأسنَدَت منصبَ مأمور مدينة أسيوط -عاصمة المحافظة- إلى اللواء إسماعيل أبو السعود، وكان أحدَ رجال الشرطة الذين يفهمون مِهنَتَهم بوضوح. وعلى الفور، بدأ اللواء أبو السعود يَشنُّ حَمَلاتٍ مُكثَّفَة لإلزام أولاد الليل جانِبَ الدِّفاع، فتصدَّى للنَّشاط العَلَنيِّ لَهم، وخاصَّةً عمليات الحراسة، وجَمْع الإتاوات التي كانت تَتمُّ تحت ظروف الإرهاب، وعَيَّن عَددًا من رجالِ البوليس لحراسة الحقول التي تعرَّض أصحابُها لِفَرضِ الإتاوات، وأكثَرَ من عدد دوريَّات رجال الشُّرطَة في الشَّوارع. وقاد بنفسه حَملاتٍ يَوميَّةً؛ بِهَدَف إعادة الاحترام لهَيبَةِ الحكومة في المدينة.

في هذا الوقت تفجَّرَت مُشكِلَةُ حسن كدواني، أحد المُلَّاك في زِمام أسيوط، وكان الخُطُّ قد فرض عليه إتاوةً، عارَضَ فيها حسن كدواني؛ إذْ وَجَدَها لا تَتَناسَبُ مع غَلَّةِ الأرض، وظلَّ يُؤجِّل دَفعَ أجزاءٍ منها عامًا بعد عام، حتَّى تَراكَمَت عليه؛ فأنذرته العصابةُ إنذارًا أخيرًا في موسم القطن، وعندما لم يدفَع كدواني ما عليه أصدر عوَاد قرارًا بالاستيلاء على الأرض، حتى تجبي العِصابَةُ ما عليها على الأرض من محصولِ القُطن، وتبيعه سدادًا لِما تَأخَّرَ على حسن كدواني من إتاوات، وهكذا نَزَلَ عددٌ من أولاد الليل إلى حقل حسن كدواني فاحتلُّوه، وأنشأوا كوخًا من البوص أقاموا فيه بأسلِحَتِهم.

وقتَها كان اللِّواء أبو السعود يُصعِّد حَملَتَه ضدَّ أولاد الليل في أسيوط...

عَقَدَ أبو السعود عِدَّةَ اجتماعاتٍ للأعيان، حاول خلالها أن يؤكِّد أن جهاز البوليس قادِرٌ على مُواجَهَة الأشقياء، وأنه لا يَقِفُ أمامه سوى خوفِ الأعيان منهم، وإذعانهم لشروطهم، وطالبهم المأمور بأن يُدلُوا إليه بأي معلوماتٍ تساعده على القبض على عوَّاد والخُطِّ، لكنَّ الأعيان أنكروا -بهدوء- أن هناك ما يخافونه، وأكَّدوا أنه لا الخُطُّ، ولا عوَّاد، ولا أحدٌ من أعوانهما فَرَض عليهم أيَّ شروط أو إتاوات، أو حتَّى هَدَّدَهم بذلك.

وعندما عَلِمَ المأمور بحكاية حسن كدواني استدعاه إليه، وسأله عمَّا إذا كان الخَط قد استولى على أرضه، فأنكر حسن هذا بشدَّة، وأكَّد أن هذا لم يحدث، وضاق المأمورُ بالأمر كُلِّه، فصرف حسن كدواني، ثم أصدر أمرَه لبعض جنود البوليس بحراسة زراعة القطن التي يملكها كدواني، وقرَّر أن يَعتَصِم البوليس بها، وأن يمنع الخُطَّ من الحصول على قُطنِها، فإمَّا أن يترك المَحصولَ فتَهْتَزَّ هَيبَتُه، أو يخاطر بمعركةٍ مع البوليس فتكن فُرصَةً لاقتناصه.

وانسحب رِجالُ العصابة من فوق حقل كدواني، وجُنَّ الخُطُّ من تَصرُّف المأمور، وزاد الطِّينَ بَلَّةً أنَّ القُطن ظَلَّ في الأرض إلى أن بدأ موسم الفيضان؛ فخَشِي المأمور على المحصول من الغرق؛ فأمر بجَنْيه، وباعه، وأرسل إلى حسن كدواني ليُسلِّمَه الثمن، فقال الرَّجُلُ -ببساطة- إن الأرض مُؤجَّرة للخُطِّ، وأنه لا يستحقُّ شيئًا من هذا المال، ووضع المأمور المبلغ في خزينة المديونيَّة إلى أن يطمَئِنَّ كدواني ليحضر لاستلامه.

وفي نفس الفترة عَيَّن المأمورُ دوريَّاتٍ مُسلَّحة للطَّواف على وابورات المياه والأراضي المفروض عليها ضرائب من العصابة؛ فلم يتمكَّن مندوبوها من تحصيل الضرائب، وغَمَرَت مياهُ الفَيضانِ المَحصولَ، وحَنق عوَّاد والخُطُّ على المأمور، الذي أصاب هَيبَةَ العصابة في الصَّميم، وتَدارَسَ الاثنان المَوقِفَ، وكان من رأي عوَّاد أن الضَّربَةَ لا بُدَّ وأن تُوجَّه لأحد الذين لم يُسدِّدوا الإتاوة، صحيحٌ أنَّ هذا تَمَّ على الرغم منهم، لكنَّ المُهِمَّ هو تأكيدُ المبدأ نَفسِه؛ مبدأ أن العصابة لا يَهمُّها إلَّا أن تُحصِّلَ إتاواتها، والاعتداء على هؤلاء سيُشعِرُ البوليس بأنه يَضرُّ مَن يتصدَّى لحمايتهم؛ فيَكُفُّ المأمورُ عن أسلوبه في حصار «رزق العصابة».

ورأى الخُطُّ أن يُوجِّه ضربَتَه للمأمور نفسه؛ كان قد اسْتُفِزَّ تمامًا منه، وأصرَّ على أن يَحصُدَ رأسه مُقابِلَ قُطنِه الذي جَمَعَه، وكان عوَّاد يخشى خُطوةً كتلك؛ فالعصابة قد فَرَضَت نفسها، وأكَّدَت إرهابَها، وهي لم تَعُدْ في حاجَةٍ إلى المزيد من القتل، إلَّا للضَّرورَة القُصوَى، لقد ارتَكَبَت من جرائم القتل ما فَرَضَ كَلِمَتَها، وأكَّد هَيمَنَتَها، وجَعَلها مَرهوبَةَ الجانِبِ؛ فأطاع الكلُّ أوامِرَها، وهذا هو ما تفعله أيُّ حكومَةٍ تُريد تَثبيتَ نَفسِها- والمَزيدُ من جرائِم القَتل سيُحوِّل مطاردة البوليس لها إلى عَمليَّةِ ثَأرٍ، فما بالُكَ إذا كان القَتيل واحِدًا من رِجالِه مرهوبيَ الجانب؛ ضابط عظيم، ومأمور بندر أسيوط، عاصمة المحافظة.

وأصرَّ الخُطُّ على موقفه، ومَنعًا لمزيدٍ من الشِّقاق هبط عوَّاد من الجَبلِ إلى «موشا» لِيَدفِنَ هَمَّه في أحضانِ نفيسة...

***

الأَحَد 15 سبتمبر 1946

قرية الزاوية بأسيوط.

كان مأمور أسيوط، اللواء إسماعيل أبو السعود، قد حدَّد مصيرَه بنفسه حين هاجم رِجالُه اثنين من أفراد العصابة، هُما: توفيق حسين، ومحروس سيد أحمد، فقبض عليهما في حَملةٍ من حَمَلاته، وكان الأوَّلُ هارِبًا من حُكمٍ غيابيٍّ بخمس سنوات، أمَّا الثانى فكان هارِبًا من حُكمٍ بخمسة عشر عامًا.

وبدأ الخَط يرسم خَطتَه، وأطلق العيونَ وراءَ المأمور المُشاغِب، وخَدَمَه الحَظ من حيث لا يحتسب، ففي صباح يوم الأحد 15 سبتمبر 1946 ورَدَت إشارةٌ إلى مركز أسيوط، تقول بأن المدعو محمد محمد الزناتي، من بلدة الزاوية قد اعتدى بالضَّرب على طفلٍ صغير من عائلته، فنهره جَدُّه على فِعلَتِه، فما كان منه إلا أن ثار عليه، وفي سَورَة الغضب سَحَب بندقيَّته وأطلقها على جَدِّه، ولكنها أخطأت العجوز وأصابت امرأةً من أسرَته كانت على مَقرُبةٍ من المكان؛ فماتت في الحال.

وتقرَّر أن ينتقل مأمورُ المركز، ووكيل النيابة، وعددٌ من الجنود إلى الزاوية لتحقيق الحادث، ونظرًا لأن سيارة البوليس «البوكس» لم تَكْفِ؛ فقد استأجر المأمورُ سيَّارَة أجرة، ومضت السيارتان إلى الزاوية، واستمرَّ التحقيق طوال اليوم، وانتهى عند الغروب بالقبض على الزناتي، وعادت بعثة المركز في سيَّارَتَيْها؛ كانت «البوكس فورد» في المُقدِّمة، في مقعَدِها الخلفي مصطفى بشير، وكيل نيابة أسيوط وقتَها، وإلى يمينه إمام أفندي الشَّحات، كاتب النيابة، ثم المأمور، وبجوار السائق جلس أومباشي المباحث بالمركز.

وخلفها كانت السيارة الأجرة، بجوار سائِقها جلس ضابِطُ نقطة بوليس درنكة، الملازم ثاني علي عبد السميع، ثم اثنان من الأومباشيَّة، بينهما محمد محمد الزناتى، مجرم الزاوية الذي عاد البوليس به مقبوضًا عليه، وعلى رفرف السيارة جلس صَبيُّها السيد محمد.

وما أن ابتعد الرَّكبُ من بلدة الزاوية حتى تعطَّل «البوكس فورد»، واستغرق إصلاحُه حوالي ثُلُث ساعة، واستأنفَت القافِلَةُ سَيرَها، وكان الليلُ قد أرخى سُدولَه، وصار الظَّلامُ دامِسًا.

كان خبر وجود المأمور ووكيل النيابة في الزاوية قد وصل إلى الخُطِّ منذ أن تَحرَّكوا من أسيوط، فرَسَمَ خُطَّتَه بإحكام، كان يعلم أن المأمور لا بُدَّ أن يَمُرَّ في طريق عودته بجبَّانة بلده «موشا»، وتَحصَّن في الجَبَّانة، مُختَفيًا وراء سورٍ يُطِلُّ على الطريق ويُخفيه عن العيون، وما أن لاحت القافِلَةُ حتى فوجِىء رُكَّابُها بِوابِلٍ من الرصاص، وأُصيبَ جَميعُ مَن كانوا بالسيَّارَتَيْن بلا استثناء، ما عدا ضابط نقطة درنكة، الذي احتمى بقاع السيَّارة بسرعة، وأُصيبَ المأمور بأربعة أعيرة نارية في جدار البطن، ولكنه كان سريعَ الخاطِر؛ فانتزع البندقيَّة من الأومباشي الذي كان يجلس أمامه، وفتح باب السيَّارة، وأخذ يُطلِقُ الرَّصاصَ باستمرار على المَصدَر الذي انطلقت منه الرصاصات التي أصابته، وتَوَهَّمَ الخُطُّ أن القوَّةَ التي تواجههم كبيرةُ العَدَد، قَويَّةُ السِّلاح؛ ففرَّ مع رجاله هاربين من الجَبَّانة إلى الجبل الذي خلفها، ولولا رصاصات المأمور اليتيمَة لَقُتِلَت القُوَّةُ عن آخرها...

وعندما هدأ كُلُّ شيء أُحصِيَت الخَسائِرُ؛ سَقَطَ ثلاثَةٌ من القافِلَة قَتلَى: كاتِبُ النِّيابَة إمام أفندي الشَّحَّات، وصبيُّ السَّائق، والمُتَّهم المسكين محمد محمد زناتي، الذي أصدرَ الخُطُّ حُكمًا بإعدامه قبل أن يُحاكَمَ ويُدان.

وفيما عدا هذا، فإن المأمور أُصيبَ بأربع رصاصاتٍ، وأُصيبَ وَكيلُ النِّيابة برصاصةٍ في ذراعه، وأخرى في جنبه، وأصيب أومباشي المباحث برَصاصَةٍ في مُؤخِّرَة رأسه، أمَّا سائِقُ سيَّارة المركز فقد جاءته الرصاصة في جنبه الأيمن، وكان من نصيب أومباشي الهَجَّانة، وأومباشي السَّواري أربعُ رَصاصاتٍ لِكُلٍّ مِنهما، تَوزَّعَت بين الفَخذِ والسَّاق والوجه...

وتَحامَل المأمورُ ووكيل النيابة على نَفسَيْهما، وسارا والدِّماءُ تَنزِفُ من جروحهما نحو كيلومترَيْن حتى وَصَلَا إلى بَلدة «دير ريفا»، ولمَّا لم يَكُن بها تليفون فقدَ عَهِدَا إلى أحد الخُفراءِ بالذَّهاب إلى بر درنكة، وهي تَبعُدُ نحو كيلومترَيْن آخَرَيْن، حيث أبلَغَ الحادِثَ من تليفونها إلى المديرية...

وانقلَبَت الدُّنيا...

الفصل الخامس

الجَيشُ يُحارِبُ الخُطَّ

انقَلَبَت الدنيا...

اهتمَّ مدير أسيوط عزيز أباظة باشا بالحادث في الحال، وقَدِمَ على رأس قُوَّةٍ كبيرة -هو والحكمدار وكبار رجال الإدارة- إلى دير ريفا، ومعهم عَرباتُ إسعافٍ، وأطبَّاء، ونُقِلَ القتلى والمصابون على الفور إلى المستشفى، فتبيَّن أن ثلاثة منهم في حالةٍ خَطِرَة، وأن الباقي حالتهم متوسِّطة.

ووَصَلَت الإشارة التليفونية من درنكة إلى الإسكندرية في نفس الليلة، وكان الوقتُ صيفًا، وكُلُّ المسؤولين في مصر يُصيِّفون على شاطئ البحر المتوسط في عاصمة المملكة الثانية.

وأُخطِرَ النائب العام محمود منصور بك بالحادث بعد ساعاتٍ من وقوعه؛ فانزعج بِشدَّة، وخاصَّةً أن أحد الذين أصيبوا فيه كان وكيلَ نيابة بأسيوط، فاتَّصل على الفور بمدير الأمن العام، والأ□وكاتو العمومي، ومدير إدارة التفتيش- وأخطرهم بما حدث، وصَرَّح للصَّحفيِّين بأنه تأثَّر جدًّا لهذا الحادث المُزعِج، وأنه اعتزم السَّفَر بنفسه للإشراف على التحقيق.

وبعد لحظةٍ كان رئيس الوزراء ووزير الداخلية إسماعيلِ صدقي باشا يطلب النائِبَ العام للاجتماع، وفي مقرِّ رئاسة الوزارة بـ«بولكلي» عُقِدَ اجتماعٌ رَأَسَه صدقي باشا، وحَضَرَه: بدوي خليفة باشا وكيل وزير الداخلية، ومحمود غزالي بك مدير الأمن العام، فَضلًا عن النائب العام محمود منصور. وطَرَحَ المُجتَمِعون المسألةَ للنِّقاش؛ كان مغزى الحادث واضحًا، فَكُلُّ ما ارتكبه الخُطُّ من جرائم قبل ذلك في ناحيةٍ، وهذه الحادثة وحدها في ناحية أخرى؛ فإن هَجمَةَ العصابَة قد وُجِّهَت هذه المرَّةَ إلى الحكومة نفسها؛ إنها خروجٌ صريح على سُلطانِها، وتَمرُّدٌ عَلنيٌّ على قوانينها، ثم إنها دعوةٌ للنِّزالِ، وتَحَدٍّ، وليس أمام الحكومةِ سوى أن تختار بين أن تَتقاعَسَ وتتجاهَلَ، فَتُقِرَّ بذلك بِحقِّ الخُطِّ في كُلِّ ما يفعله، وتُسلِّم له على طول الخَطِّ- وبين قبول التَّحدِّي، ومُواجَهَة الخُطِّ، وليَكُنْ ما يكون...

أمَّا بالنسبة لصدقي باشا فقد أخذت الحادِثَةُ بالذات دلالاتٍ أعمق؛ فالرجل كان مشهورًا بأنه «ديكتاتورٌ قويُّ الشَّكيمة»، وقد بنى هَيبَتَه وسُمعَتَه كُلَّها خلال حُكمِه لمصر في أعوام 1930-1933 على أساس هذه القُوَّة، التي مَكَّنَته من أن يقهر كُلَّ المُعارضين لحُكمِه، من طَلَبَةٍ وعُمَّال وأحزاب وصحف، وكان قد أعلن أكثرَ من مَرَّةٍ أيَّامَها أنه سيصون الأمنَ العام أيًّا كانت التضحيات، ولم يَكُن يُبالي في هذا بالرَّصاص؛ يُطلِقُه البوليسُ على المظاهرات، فيسقط قتلى ويموت شبابٌ، فَضلًا عن السُّجون والمُعتَقلات، وإغلاق الصُّحف، وتوقيع الحجوزات على مُمتَلَكات خُصومِه وبَيعها جَبريًّا، وكان صدقي يحاول بكل هذا أن يُثبِتَ للإنجليز أنه رجل الثلاثينات القويُّ، وأنه كفيلٌ بأن يُوقِّعَ معهم مُعاهَدَةً، ويَضمَنَ تنفيذَها، وصحيحٌ أنه لم ينجح في هذا، لكنه كان قد اقتنع بالفعل بأنه رجل قويٌّ، ولم يكن لِيَقْبَلَ أنْ يَتَحدَّى أحدٌ حُكومَتَه الثَّانية بهذا الشَّكل المُرعِب، خاصَّةً وأنه كان يُمهِّد لمفاوضاتٍ

جديدة مع الإنجليز، والجرائم السياسيَّة تَقلِقه وتزعِجُه، وجاء نشاط الخَط وكل أولاد الليل ليزيد الطين بلَّةً؛ لأنه كان داعيًا للشَّكِّ في قُدرَةِ رجل الأربعينات على الاستمرار قويًّا كما كان.

وانتهى الاجتماع، وفي الفجر هَبَطَت في مطار منقباد (مطارٌ حربيٌّ قريبٌ من أسيوط) طائِرةٌ تُقِلُّ وفدًا من الكبار: وكيل وزارة الداخلية، والنائب العام، ومدير التفتيش، ورؤساء المباحث.

وانتقل الضيوف إلى مكتب مدير أسيوط الشاعر عزيز أباظة باشا، وعقدوا اجتماعًا طويلًا في مكتب المدير، حضره معه عَدَدٌ من كبار المسؤولين في أسيوط.

وكانت شبكة الخطوط التليفونية للبوليس قد ازدحمت بإشارةٍ تَتضمَّن أنباء الحادث، نقلته إلى كل نقط البوليس في أنحاء الصعيد؛ للعلم والإحاطة، ووَصَلَت الإشارَةُ إلى قرية «بني قرة»، إحدى القرى القريبة من أسيوط، واطَّلَع عليها المُلازِم أوَّل محمد السعيد هلال، ضابط النُّقطة، باعتبارها إشارَةً روتينيَّةً؛ مجرَّد خَبرٍ للعِلْم لا أكثَرَ ولا أقَلَّ، ولم يُفكِّر لِلَحظَةٍ أن هذه الإشارة ستَحرِمُه النَّومَ والرَّاحَةَ لمدَّةِ عام كامِلٍ بعدَ هذا التاريخ، وستَنقِلُه من نُقطَتِه الهادِئَة نسبيًّا إلى أدغال أسيوط الرهيبة، وعالَمِ أولاد الليلِ الغريب، وأنه أصبح طَرفًا في ظاهِرَةٍ مُعقَّدَة، تَنسِجُها عواملُ فَناءٍ في نظامٍ كان قد أوشكَ على الأفول.

ترك هلال أفندي الإشارةَ وأخذ ينظِّف مدفعه الرَّشَّاش، كان قد اشتراه من أحد الضُّبَّاط الإنجليز بعدَّة جُنَيهاتٍ، وأخفاه لديه. كان السلاح الرسميُّ يبدو مُضحِكًا ولا فائِدَةَ منه، وإذا كان من العسير على الحكومة أن تزوِّدَ ضُبَّاطَها بسلاحٍ يَحميهم في غابة الوحوش وأولاد الليل، فَعَلَى مَن يستطيع منهم أن يُدبِّر لِنَفسِه سلاحًا أفضلَ فالواجِبُ يَفرِضُ أن يُبلِغَ الإنسان عن هذا السلاح، وأن يستخرج ترخيصًا به، ولكن مَن يفعل الواجب في هذه البلد؟ وما الضَّرَر في أن يحوز إنسانٌ مَدفعًا، إنه يَستَخدِمُه في أداء واجِبِه، وهذا كُلُّ شيء.

في تلك اللحظة كان المجتَمِعون في مكتب مدير أسيوط، ما زالوا مُستمرِّين في بحث الموقف. كانت المسألة مُخجِلَةً بالفِعل، لدرجه أن الصحفيين عندما سألوا صدقي باشا عن الحادث اضطرَّ أن يَلتَمِسَ عُذرًا لفشل البوليس في القبض على الجُناة الذين اعتدوا على رجاله، بِصَرف النَّظر عن أنهم تَعرَّضوا لرصاصهم، وهُزِموا في معركةٍ أمامهم، وجاء تصريح صدقي باشا لمندوب «المصري» خَجولًا، قال: «لقد كان لِطُغيان النِّيل في أسيوط دَخلٌ كبيرٌ في الحادث؛ إذ اضطرَّ المُعتَدَى عليهم إلى السَّير بالسيَّارة عن طريق الجَبَل، فوقَعَ الحادِثُ من الأشقياء المُسلَّحين بأسلِحَةٍ من مُخلَّفات الحرب، وهي أقوى من أسلحة البوليس... كما أن الفَيَضانَ ساعَدَ الجُناةَ على الهرب».

وقرأ هلال أفندي تصريحَ رئيس الوزراء، وابتسم وهو يَتَحسَّسُ مدفَعَه الرشَّاش؛ «ها هو رئيس الوزراء يَعتَرِفُ بأنَّ أسلحة العصابات أكثرَ فاعليَّةً من أسلحة البوليس، لكنه لا يعلم أنَّ لَديَّ مدفعًا رشَّاشًا».

وفي تلك اللحظة دَقَّ جرس التليفون بشدَّة. رفع هلال السماعة ورَدَّ:

لم يكن صوتُ المُتكلِّم غريبًا عنه، إنه حسن كحيل، مدير مكتب عزيز باشا أباظة:

- سعادة الباشا عايزَك دلوقتي حالًا يا هلال أفندي...

نظر هلال أفندي إلى ساعته، وقال:

- الساعة دلوقتي ثلاثة صباحًا.. والمواصلات من بني قرة لأسيوط مقطوعة.

- البوكس فورد جايلك دلوقت.. استعِدّ..

- حاضر فيه إيه؟

- حتعرف أمَّا تيجي.. وعلى فكرة ما تنساش المدفع.. هاتُه معاك...

وضع حسن كحيل السماعة قبل أن يردَّ هلال أفندي؛ إن حكاية المدفع الرشَّاش معروفة، وكاد يُنكِرُ على الفور أن لديه شيئًا من هذا، وفكَّر لحظةً في المسألة، ثم قَرَّر أن يأخذَ المدفع معه، وليَكُن ما يَكون.

ووصل «البوكس فورد» إلى مبنى مديرية أسيوط، وصعد هلال أفندي مُسرِعًا سلالِمَ المديريَّة إلى مكتب المدير، واستقبله حسن كحيل، واستأذن منه لحظاتٍ دَخَلَ خلالها إلى المدير، ثم عاد ودعاه للدخول.

فوجِئ هلال أفندي عندما وَجَدَ نفسه في مُواجَهَة أكبر رؤوسٍ وزارة الداخليَّة، وفي كلماتٍ قلائِلَ أخطَره عزيز باشا بأنَّ المُؤتَمَرَ قد اتَّفق على تكليفه بمُطارَدَة الخُطِّ وعِصابَتِه.

للوَهلَة الأولى ذُهِل هلال أفندي، كان الخُطُّ اسمًا رهيبًا في دوائر البوليس، والمشكلة ليست فقط في أنَّ مَنْ يَتصدَّى لمُطارَدَتِه يُعرِّض نفسه للمَوتِ بنسبة تسعين في المائة، ولكن أيضًا في أن الخُطَّ له هَيبَةٌ ورَهبَة ليست لقُوَّات البوليس، وأهم شيء أنه سوف يَهزَأ من مُطارِديه، فإذا لم يقتلهم بالرصاص قَتَلَهم بالمَقالِب والسُّخرية.

وأفاق هلال أفندي من خواطره على يد «الباشاوات» وهم يشدُّون على يده، مُؤازِرين ومُؤيِّدين ومُشجِّعين. وأضاف «الباشا المدير» أنه مُستعدٌّ لتلبية كُلِّ طَلباته من رجالٍ وأسلحةٍ وعَتادٍ، وأنه «تحت أمرِه».

وخرج هلال أفندي مُتعثِّرًا في خطواته، وهَرَش رأسه مُفكِّرًا كيف يبدأ؟! وقادَته خُطواتُه إلى مستشفى المركز، حيث زار المصابين، ولعلَّها كانت محاوَلَةً منه لوضع نفسه في قلب المُشكِلَة. كان يريد أن يحصل على مُثيرٍ قَوِيٍّ ومُستَفزٍّ ليدفع معركته مع الخُطِّ إلى الأمام، وصافح اللواء أبو السعود مأمور المركز، والأومباشيَّة المُصابين، ووَكيل النيابة.

ومن المستشفى انتقل إلى مبنى إحدى شركات التأمين، وعلى حَدِّ ما يقول هو نَفسُه في مُذكِّراته، أن هذه الفكرة كانت على رأس الأفكار التي تَولَّدَت عن تكليفه بمطاردة الخُطِّ: «كنتُ مُوقِنًا تمامًا -وقبل أن تبدأ المعركة- أنني سألقَى حَتفي فيها؛ فرأيتُ تأمينَ مستقبل زوجتي وطِفلِنا، ولم يكن هذا الخاطِرُ يعني أنني سَلَّمتُ بالهزيمة مُقدَّمًا، على العكس؛ كنتُ مُؤمِنًا بأنني إذا خسرت حياتي فإن ذلك سيكون ليَخسَر الخُطُّ المَعركةَ».

قبل الظهر كان هلال أفندي قد انتهى من إجراءات التأمين على حياته، ولم يكن تَوقُّعه الخَطَرَ تهويلًا في المسألة؛ ذلك أن حوادث اعتداء أولاد الليل على البوليس كانت شائِعَةً في ذلك الوقت،

وكانت إحدى خصائص مديرية أسيوط، وقد أشار إليها عزيز أباظة باشا مدير أسيوط في مُذكَرَة رسميَّةٍ رَفَعَها في شهر مايو 1945، وقبل وقوع حادث الزاوية بأكثر من عام، فقال في هذه المُذكِّرة:

«من المظاهر التي توجَد بأسيوط ولا توجد -لِحُسنِ الحَظِّ بالأقاليم الأخرى- تَعَرُّضُ بعض المُجرمين لرجال الحفظ بالاعتداء عليهم.. ولقد وقَعَت بالمديريَّة حوادِثُ كثيرةٌ اعتدى فيها المُجرمون على رجال البوليس أثناء قيامهم بواجِبِهم من إجراء تفتيشٍ، أو بَحثٍ عن مُجرمٍ، وهذه الحوادثُ لها خُطورَتُها على الأمن العام، وتتطلَّب علاجًا ناجعًا، عاجِلًا، لتدعيم هَيبَةِ الحكومة أمام الأهلين، وبخاصَّةٍ في نظر أمثال هؤلاء الأشقياء العابثين بالأمن».

وبدأ هلال أفندي بعد ذلك يختار مُعاونيه. اتَّفق مع مدير أسيوط على تكوين أوَّلِ فرقةٍ من نوعها، سُمِّيَت «فرقة المُطارَدة» وتقرَّر أن يتفرَّغ أعضاء هذه الفرقة جميعهم لمَهمَّة واحدة هي مُطارَدةُ الخُطِّ، وانتقى هلال أفندي أفرادَها الستِّين واحدًا واحدًا، ووَضَعَ شرطًا واحدًا لعُضويَّتها، هو أن يكون العُضوُ من رجال البوليس المَشهورين بالعُنف والشَّراسة، وتَجاوُز القانون؛ ذلك أن رجال البوليس العاديِّين لا يَصلُحون لِمُطارَدَةِ الخُطِّ؛ فمع مُجرمٍ شديد الذَّكاء بالِغِ القَسوَةِ والعُنفِ لا بُدَّ من رجالٍ من طرازٍ خاص؛ فلا يَفِلُّ الحديدَ إلَّا الحديد.

وانتهت مَهمَّات التَّخطيط والإعداد لاقتناص الخُطِّ.

كانت الدَّولَةُ قد قرَّرت أن تُؤكِّدَ كُلَّ هَيْبَتِها، وتَمَثَّل ذلك في عَطفِها على ضحايا الحادث، فعند تشييع جنازة إمام أفندي الشَّحَّات، كاتِبِ النيابة القَتيل، اشترك في جنازته -ببلدته الزقازيق- رجالُ القضاء والإدارة، وأرسل وزيرُ العدل نائبًا عنه لحضور الجنازة، كما أرسل صدقي باشا -بصفته وزيرًا للداخلية- مندوبًا عنه لِنَفسِ الغَرَض، واهتمَّ النَّائِبُ العام بأمر القتيل؛ فرفع مُذكِّرَةً إلى وزارة العَدل يَطلُبُ فيها تقديمَ مَعاشٍ شَهريٍّ لوالِدَتِه؛ لأن القَتيلَ كان وَحيدَها، ويقوم بالإنفاق عليها، وتَبرَّع اتِّحادُ المُوظَّفين بِمُرتَّبِ ثلاثةِ أشهر للأُمِّ المَكلومَة.

وأفرَدَت الصُّحُفُ صَفحاتِها للحادِث، وزار مَندوبوها المُصابين، كما زارهم مُمثِّلون للحُكومة.

وما كاد صباح يوم الاثنين 17 سبتمبر 1946 يُشرِقُ حتى بدأت الحكومةُ مُظاهَرَتَها الغريبة لإثبات القُوَّة؛ استدعى مُديرُ أسيوط عزيز باشا أباظة قائِدَ المنطقَةِ العسكريَّة في منقباد، وطَلَبَ مَعونَتَه، ووضع قائِدُ المنطقةِ تحت إمْرَتِه ألفَ جُنديٍّ من الجيش، وعددًا من السَّيَّارات العسكريَّة وقُوَّات السَّواري، فَضلًا عن وحدات لاسلكي، ودبَّاباتٍ صَغيرةٍ، وتَقرَّر أن تُطْبِق القُوَّاتُ على موشا: وكر عوَّاد من جميع الجهات...

وانتشرت القُوَّات في الجبال وبوابير المياه وزراعات الذرة، واستمرَّت الحَملَةُ لمدَّةِ يَومَيْن، وفي يوم الثلاثاء 18 سبتمبر نَشَرَت كُلُّ الصُّحُف الصباحيَّةُ ما يلي:

«جاءنا من وزارة الداخلية أنها بناءً على طلب حضرة صاحب السعادة مدير أسيوط تدفع مكافأة قدرها ألف جنيه مصريٍّ لكلِّ مَن يُمكِّن البوليس -على أيَّة صورةٍ من الصُّوَر- من ضَبْطِ كُلٍّ من الشَّقِيَّيْن: محمد محمود منصور -الشهير بالخُطِّ-، وعوَّاد علي صالح، ويكفل البوليسُ المُحافَظَةَ على سِرِّ مَن يقوم بالتَّبليغ».

وكان واضِحًا من لهجة البلاغ أن الوزارة ليست لديها مَعلومات كافية عن الخَط وعوَّاد، وأنها لذلك تُعلِنُ عن إعطاء المكافأة لمن يُقدِّم أيَّ معلومات. ومن ناحية أخرى، فالإعلان يُطَمئِنُ المُبلِّغين على حياتهم، ويُؤكِّد أنه سيُحافِظُ على السِّرِّ، كأنَّه يَردُّ على ما كان مُتواتِرًا من إشاعات من أن الخُطَّ يعلم كُلَّ صغيرةٍ وكبيرة في دوائر البوليس.

لكنَّ مُظاهَرة البوليس الضَّخمة جاءت بنتيجةٍ من حيث لا يتوقَّع أحد؛ فقد أثَّرَت في قلب شيخ خُفراء موشا، حليفِ عوَّاد، وعَينِه على تَحرُّكات البوليس. كان عوَّاد قد اعتكف «اعتكافًا سياسيًّا» عَقِبَ إصرار الخُطِّ على تنفيذ عملية الزاوية، وعندما تَمَّت العملية وأحدَثَت هذه الأصداءَ الواسِعَة أدرك الخُطُّ خَطَأَه، وشَعَرَ بأن الواجِبَ يَفرضُ عليه استرضاءَ عوَّاد، ومُناقَشَة الأمور معه، خاصَّةً وقد أصبَحَت العصابَةُ في خَطَر، بعد أن استُفِزَّت الحكومةُ لِهَيبَتِها وكَرامَتِها، استفزازًا يفوقُ كُلَّ تصوُّرٍ، لدرجة أنَّها حَرَّكَت قوَّاتٍ كبيرةً من الجيش لمُحارَبة فردٍ واحد، هو الخُطُّ.

وهبط الخُطُّ من الجبل، وتوجَّه إلى موشا، حيث يعتكف عوَّاد بين أحضان نَفيسة، واجتمع به اجتماعًا طويلًا، ثم خرج عائِدًا إلى الجبل، وترك محمد تمَّام، على أن يلحق الجميعُ بالجَبَل في صباح اليوم التالي.

ووصَلَت أنباءٌ للبوليس بأن عوَّاد والخُطَّ كِلَيهما في موشا، وَصَلَت الإخباريَّة من شيخ الخفراء حليفِ الخُطِّ وعوَّاد، وكانت خِيانةً واضِحَةً، لكنْ لها ما يُبرِّرها؛ كانت المُحالَفَة بين الشيخ وعوَّاد تَنُصُّ على ألَّا تَرتَكِبَ العصابةُ جرائِمَ في دائرة مَشيَخَتِه، مُقابِلَ إبلاغ العصابة بكلِّ تَحرُّكات البوليس المُوجَّهة ضدَّها، وتَضمَّنَت شروطُ التَّحالُف أيضًا بعضَ العطايا الأخرى.

لكن شيخ الخفراء كان قد بدأ يُدركُ بعد عمليَّة الزاوية أن العصابة تَتَنكَّبُ السُّبُل، وأنَّها تحفر قَبرَها بنفسها، وفي نفس الوقت فإن الجائزة التي رُصِدَت للقبض على الرَّجُلَيْن تُغري بِفَضِّ التَّحالُف.

وبمجرَّد وصول الإخباريَّة إلى المديرية قامت قوَّاتٌ كَثيفةٌ من رجال الأمن، وفرقة المُطارَدة بكامل أفرادها، كُلُّ هذا بالإضافة إلى قُوَّات الجيش الضَّخمة، وفي الساعه الثامنة صباحًا كانت القُوَّاتُ قد دَخَلَت في زمام موشا، وعلى الفور قام شيخ الخُفَراء جارِيًا، وتَوجَّه إلى منزل فلتاؤوس عوض، قَلعَةِ عوَّاد، وعُشِّ غَرامِه بنفيسة، وَجَدَ البابَ مَفتوحًا، نادى:

يا شيخ عوَّاد.. يا شيخ عوَّاد..

أطلَّ عوَّاد من نافذة قلعته، عرف أن طالِبَه هو حَليفُه وصديقه شَيخُ الخُفَراء:

- أهلًا وسهلًا...

عايزَك في كلمة.

نزل الشيخ عوَّاد من الدور الثاني، دخل شيخ الخفراء إلى باحة الدار، ظَهَرَ عَوَّاد على رأس السُّلَّم وهو يقول: «مرحبا...»، لم يُتِمَّ كَلامَه، عاجَلَه شيخُ الخفراء بأعيرَةٍ ناريَّةٍ؛ فأرْدَته قتيلًا في نفس اللحظة التي كانت قوَّات المُطارَدة تتقدَّم في مَدخَلِ الدَّرب إلى دار عوَّاد...

وهكذا فوَّتَ شَيخُ الخُفراء الفرصةَ على البوليس لإحراز أوَّلِ نَصرٍ حقيقيٍّ في معركته ضدَّ الخُطِّ.

وقنَعَ البوليسُ باستلامِ جثة عوَّاد، وفتَش المنزل الذي كان يختبيء فيه، فعثر على محمَّد تمَّام، ابنِ أخيه، ووَلِيِّ عَهدِه، وقَبَضَ على نفيسة، التي نظَرَت إلى جُثَّة عوَّاد وأطلَقَت زغرودةً عريضةً تُؤكِّد بها فرحتَها لِخَلاصِها من فَضيلة شيخ المَنْسَر: عوَّاد عوَّاد صالح.

وعثر البوليس على بعض الأسلحة، وطَلقاتٍ مُتعدِّدَة، وطُيِّر الخَبرُ إلى مُدير المديريَّة، وكان مدير الأمن العام ما زال مُقيمًا بأسيوط، وانتقل إلى مكانِ الحادث ومعه الأ□وكاتو العمومي ورئيس النيابة ووكيل النيابة الأول عبدِ الرحمن صالح، الذي تولَّى فيما بعد منصبَ المُدَّعي العام أمام محكمة الثورة في عام 1954، واستقلَّ الجميعُ مَركبًا شراعيًّا قادهم إلى موشا؛ لأن ريَّ الحِياض كان يُحيط بالقرية أيَّامَها.

وطُيِّرَ الخَبرُ إلى الإسكندرية بَرقيًّا، وعَلِمَ به صدقي باشا شخصيًّا، وأَحدَثَ خَبرُ مصرع عوَّاد أصداءً واسعةً، فاهتمَّت به الصحف، وحرص البوليس على أن يُروِّج أنَّه هو الذي اصطاد عوَّاد، كما حرص على التأكيد على أنَّ رئيس العصابة الحقيقي هو عوَّاد، وأن الخُطَّ هو مجرَّد مُساعِدٍ له، وكانت الفكرة في هذا كُلِّه هو طمأنةُ النَّاس، ونَشرُ جَوٍّ من الثِّقَة في قُدرَةِ البوليس...

ونَشَرَت الصُّحُفُ معلوماتٍ تُؤكِّد هذا، وكانت روايتها للحادث مُتفاوِتَةً، وكُلُّها مُخالِفَة للحقيقة، قالت «المصري» مثلًا:

«وفي يوم 18 الحالي اتَّصل شيخُ خُفراء بلدة موشا بسعادة عزيز أباظة باشا مدير أسيوط، وأبلغه بوجودِ الشَّقيِّ عوَّاد في أحد منازل القرية؛ فأسرع سعادته إلى هناك على رأس قُوَّةٍ حاصَرَت البلدةَ، ومَنزِلَ الشَّقيِّ بالذَّات، حصارًا شديدًا، وكانت الساعة الثامنة عندما فُوجِئَ عوَّاد بهذا الخَطر الذي حاق به من كُلِّ ناحِيةٍ، فَهَبَّ من نَومِه في الشُّرفَة، وأخذ يُطلِقُ الرَّصاصَ من بندقيَّته، ولكن لم يُطلِق سوى تِسعِ رَصاصاتٍ طائِشَة، لم تُصِبْ أَحدًا، حتى عاجَلَه الجاويش محمود سراج، وشيخُ خُفراء موشا بخمسِ رصاصاتٍ استقرَّت جميعُها في صدره؛ فَخَرَّ صريعًا في الحال».

وفيما بعدُ كتبَ المُفتِّش القضائي تقريرًا عن حادث مصرع عوَّاد، حاوَلَ فيه أن يُؤكِّد أنَّ عوَّاد كان واحِدًا من الذين قادوا هجومَ العصابةِ على مأمور أسيوط ووكيل نيابَتِها، وأكَّد التقريرُ أن القوة طالَبَت عوَّاد بتسليم نفسه، وأنه رفض، وأَصَرَّ على إطلاق الرصاص عليها؛ الأمرَ الذي أدَّى به إلى مُبادَلَتِه إطلاق الرصاص برصاصةٍ من العُمدَة، وأخرى من الجاويش محمود سراج...

وكانِ لا بُدَّ أن يكون تقرير النيابة بهذه الصورة لكي يتغلَّب على عشرات المشاكل القانونية التي يُثيرُها مَوتُ عوَّاد بهذا الشكل...

وهكذا أثبتَ الشَّيخ عوَّاد أنه كان مُشكِلَةً قانونيَّةً في حياته، وفي مَماتِه...

الفصل السادس

تِجارَةٌ رابِحَةٌ اسمُها الخُطُّ

في الوقت الذي كانت فيه قُوَّاتُ الأمن تنشُرُ الأمنَ، وتنتشر في كلِّ مكانٍ بحثًا عن الخُطِّ، كانت بعضُ المشاكل قد بدأت تُطِلُّ برأسها.

كانت هناك المشكلة القانونية التي أثارها مَقتَلُ عوَّاد، ثم مشكلة اختفاء الخُطِّ نفسه، والإشاعات التي تواتَرَت بأنه قد هاجر عن الصَّعيد كله إلى القاهرة أو الإسكندرية، وفي رواية ثالثة: مرسى مطروح...

وكانت هناك مشكلة ثالثة تعرَّض لها هلال أفندي شخصيًّا، فقد وَصَلَته في صباح اليوم التالي لمقتل عوَّاد رسالة، وكانت الرسالة من الخُطِّ!

والمشكلة القانونية التي أثارها مقتَلُ عوَّاد تتعلَّق بالكيفية التي قُتِلَ بها، ومُبرِّرات هذا القتل، فعلى الرغم من أن «صاحب الفضيلة» الشيخ عوَّاد كان مُجرمًا يُشار إليه بالبَنان، وهاربًا من أحكام بالأشغال الشاقَّة تصل إلى أكثر من نصف قرن، وهي مُدَّةٌ تقارب نحو عُمره مَرَّتَيْن، فعندما قُتِلَ كان في الخامسة والثلاثين فقط، وبرغم أنه مات وفي عنقه أحكامٌ وعقوباتٌ عن أربعين جناية قَتلٍ أخرى، غير عشرات الجرائمِ الصغيرة؛ كالتَّهديد، والابتزاز، والخطف، والسَّرِقات بالإكراه... إلخ- برغم كُلِّ هذا فإنَّ قَتلَه كان عَمَلًا غيرَ قانونيٍّ بالمرَّة.

والمسألة ببساطة أن القانون يُحرِّم الاعتداء على أحدٍ أو قتله إلا في حالاتٍ حَدَّدَها، فليَكُنْ عَوَّاد مَن يكون، بَيْدَ أن السُّلطَة الوحيدة التي تملك حقَّ سَلبِه حَياتَه هي السُّلطَة القضائية؛ أي حُكمٌ من أحكام المحاكِم، يُصدرها قاضٍ أو اثنان من المستشارين المفروض أنهم مُحايِدون تمامًا، ولا يتحيَّزون لأحدٍ بسبب جنسيته أو لونه أو دينه، أو ما اندسَّ برأسِه من أفكاره. ويقوم وكيل النيابة بتقديم مُبرِّرات الاتهام، ويأخذ المتهم (أو محاميه) فُرصَةَ الدِّفاع عن نفسه، كامِلَةً، ويُقدِّم شهودَه ومستنداته، ثم يَصدُرُ الحُكمُ، ويصبح من حَقِّ المتهم أن يستأنفه إذا شعر أنه ظالِمٌ له، ومن حقه بعد كُلِّ لك أن ينقض حُكمَ الاستئناف أمام محكمة النقض؛ كلُّ هذا قبل أن يُصبِحَ حُكمُ الإعدام نهائيًّا، وتُتَّخذ الإجراءات للتنفيذ، ويمكن في حالة ظهور أدلَّة جديدة لها صِفَةُ الجدِّيَّة قبل التنفيذ أن تُعادَ المُحاكَمةُ من جديد.

وصحيحٌ أن وظيفة رجال البوليس هي القبض على المجرمين ومُطارَدَتهم، ولكن مَهمَّتَهم تَنحَصِر في شيء واحد: هو اعتقال هؤلاء المجرمين أحياء، ووضعهم في السجن، وجَمِعُ الأدلَّة ضِدَّهم، وتقديمها للنيابة التي تُقدِّمهم -مع الأدلة- للقضاء؛ ليُحاكَموا، ويُعاقَبوا فقط بما ثَبُتَ عليهم بالدليل: العقوبة التي تُصدِرُها المَحكَمَة.

والمفروض أن رجال البوليس لا يستخدمون أسلحَتَهم في «مَقاتِل»، أي لا يطلقون النار على أجزاء من الجسم تُسبِّب القتلَ الفَوريَّ، ولا يطلقون النَّارَ عليه -أساسًا- إلَّا إذا اضطرُّوا لذلك، وأن على الضابط الذي يُطارِد مُجرِمًا فارًّا أن يُطلِقَ عليه النار في قَدَمِه لكي يعوقه عن الحركة، ويُعتَبَرُ

رجُل البوليس الذي يطلق النار على إنسان في مقتل (كالرأس والبطن) مخالِفًا -ما لم يَكن ذلك بسبب دفاعِه الشَّرعيِّ عن حياة رجال الضَّبط-، وهو مُتَّهَم.

لكن المعركة النارية التي كان على البوليس أن يَشُنَّها ضد رجال العصابات كانت تَدفَع بعض أفراده إلى تصرُّفات غير قانونية، إذا كانوا يحكمون على المسألة بِحُكم احتكاكِهم بالواقِع الرَّهيب نفسه؛ فما أكثر ما يصعب إثبات شيء على مُجرِمٍ محترف، وخاصَّةً إذا لم تكن له سوابق، كما أن الشهود قد يُجبَرون عن الشهادة في حقه، وقد يَعسُر على البوليس جَمعُ أدلَّةٍ ضِدَّ المُتَّهم، ثم أن المطلوب دائِمًا أن تتطهَّر البلادُ بأيِّ وسيلةٍ من هذا الوباء.

كان هذا هو منطق هؤلاء. ويذكر الأستاذ يحيى حقِّي -الذي عمل فترةً بالصَّعيد، في محافظة أسيوط- أنه قد تتبَّع وهو هناك «باهتمامٍ أخبارًا كثيرةً عن بعض رجال البوليس والإدارة تُروَى كالأساطير، ولا يزال لاسمهم دويٌّ في الصعيد؛ إذ وجدتُ شُهرَتَهم قد قامت على أنهم لم يَأبَهوا بالقانون، وماشوا منطق الفلاح، ودَبَّروا هم أَنفُسُهم مَقتلَ نَفَرٍ من عُتاةِ المُجرمين، هكذا يُقال عنهم، والله أعلم بالحق، ولكني وجدتُ الفلَّاحين يذكرون هذه الأسماءَ، ويُحيطونها باحترامٍ وإعجاب شديد».

وعلى كُلِّ الأحوال، فإن المخالفة التي وقَعَت في مقتل عوَّاد لم تَصِل إلى حَدِّ التدبير، وقد سُجِّلَت الحادثةُ في النيابة على أساس أنها «قَتلٌ في معركة مع البوليس»، وأن عوَّاد قام بإطلاق تسع رصاصاتٍ فيها؛ ولهذا ذُكِر أن الجاويش محمود سراج قد شارك في قتله مع شيخ خُفراء موشا، الذي قبض المكافأة على بلاغه وعلى مشاركته في اغتيال الوحش؛ إذ ليس من حق شيخ الخفراء أن يقتله مُنفَرِدًا طالما لم يُقاوِمْه.

وانطلَقَت قوَّات الأمن تبحث عن الخُطِّ، وشَمِلَت عمليَّاتُ البحث الوابورات والمُنشآت الموجودة في النيل، وكان قد نمى إلى علم رجال الإدارة أنه اختبأ في إحداها؛ ولذلك فُرِضَت رقابةٌ شديدةٌ على هذه الوابورات.

وقد انتهى هذا كله إلى لا شيء، فلم تستطع قوات المطاردة أن تُحقِّقَ النصر السريع الذي يَرُدُّ اللطمة التي وَجَّهَها أولاد الليل إلى هيبة الحكومة، وبقي الإحساسُ الشديدُ بالذَّنب الذي ملأ نفوسَ بعض رجال الأمن الذين كانوا يحتفظون ببقيَّةِ نَقاءٍ، وببعض طُهْر... فلا أحد يستطيع أن يُنكِرَ أن مَقتلَ عوَّاد كان اغتيالًا، وأن شيخ خفراء موشا هو مُجرِمٌ بمقاييس القانون؛ فهو شَريكٌ لعوَّاد في إجرامه، وقَتَلَه في لحظة غَدْر، ومع ذلك فقد كافَأَته الحكومةُ، هو الذي كان يجب أن يُقدَّمَ للمحاكَمَة بتُهمَة التَّستُّر على مجرمين، وبتهمة قتل شريكه...

***

ولم تَكُن قوَّاتُ الأمن قد أفاقت بَعدُ من كلِّ هذا عندما وجَّه الخُطُّ ضربتَه الثَّانيَة إليها، فبعد ستٍّ وثلاثين ساعةً فقط من تكليف المُلازِم محمد هلال بمطارَدَة الخُطِّ وَصَلَته رسالةٌ منه، كان نَصُّها يقول:

«الضابط هلال

قَرَّبِت أيَّامك.. استشهد على نفسك وعلى ولدك وعيلتك...

الخَط».

ولم تُؤكِّد الرِّسالَة أن الخُطَّ يَملِكُ فَحَسبُ قُدرَةً على التَّحدِّي والاستهانة، ولكنها أكَّدَت أيضًا أن له حلفاء أقوياء في دوائر الأمن، فحتى هذه اللحظة لم يكن أحدٌ قد عرف شيئًا عن تكليف محمد هلال بمطارَدَتِه سوى دوائر مديرية أسيوط، ومع ذلك فإن كُلَّ المعلومات المتوفِّرة عن الضابط قد وَصَلَت للخُطِّ: اسمه ورُتبَتُه وزَوجَتُه وابنُه.

وكان التهديد بالإضرار بأسرة الضَّابِط يَعكِسُ تَصوُّرَ الخُطِّ للمعركة بينه وبين البوليس، فحتى هذه اللحظة كان الخُطُّ معروفًا بأنه «لا يَستَضعِف»، وأنه ليس جبانًا في إجرامه؛ فَرصاصُه لا يَتَّجِه لصدور الضُّعفاء، ولا للنِّساء، أو الذين لا قُوَّةَ لَهُم.

وإذْ بدأ البوليس بالغَدرِ فإن الخُطَّ قرَّر أن يُعامِلَه بنفس أسلوبه، وأن يُحاربَه حربًا «غير قانونية»، أو «غير شريفة»... لقد كان للخُطِّ نظرات قانونية نافِذة، فاعتبَر -مَثَلًا- أن تَصرُّفَ مأمور أسيوط مُخالِفٌ للقانون وتُجاوُزٌ في استخدام السُّلطَة؛ فقد أقرَّ حسن كدواني أنه أجَّر أرضَه له، فما الداعي إذًا لاحتجاز المحصول؟ ولماذا يُخالِفُ البوليسُ القانونَ، فيقتُل عوَّاد، ويَدَّعي أنه دخل معركةً ضِدَّه، وهو ما لم يحدث؟ ولماذا يُخالِفُ البوليسُ القانونَ؟

وإذا كان هذا تفكيره؛ فربَّما كان من المُحتَمَل أن يَرُدَّ على «غدر» البوليس بِغَدرٍ مثله، لا مكان فيه للأساليب الجبانَة، وهو قد لجأ إلى هذه الأساليب فقط عندما اتُّبِعَت ضِدَّه، وكان هذا أقصى تطوُّرٍ اعترى إجرامَ الخُطِّ، وحَوَّل مجرى حياته، وأثَّر بالتالي في أسلوب مواجَهَتِه.

كان قائد فرقة المُطارَدة قد اتَّخذ له مَقرًّا ثابتًا في لوكاندة الشامي بأسيوط، وعَيَّن عَددًا من أفراد الفرقة لحراسة مَقرِّه، وإلى هذا المَقرِّ كانت كُلُّ الرسائل التي تَرِدُ بشأن الخُطِّ تُحوَّل إلى الملازم محمد هلال، الذي بدأ مَهمَّته بفتح كَومَةٍ ضخمة من الرسائل، كُلُّها عن الخُطِّ. أوَّلُ هذه الخطابات كان بتوقيع «عُضوٍ تائِبٍ من عصابة الخُطِّ»، وقد جاء فيه أن الخُطَّ قابِعٌ في أحد البيوت يتلقَّى العزاءَ في وكيل عصابته عوَّاد، وحدَّد الخطاب اسمَ قريَةٍ تَبعُدُ ثلاث ساعات عن أسيوط.

وانتقلَت الفرقةُ بأكملها إلى حيث حَدَّد البلاغُ، فلم تجد أحدًا. وتكرَّرَت البلاغات: «الخُطُّ ركب مركبًا (حدَّد البلاغ اسمَها)، ونزل الحوض للهرب»، وعلى الفور قامت الفرقة في عدَّة مراكب، وعُزِّزَت ببعض القوَّات التي كانت ما تزال مُعَسكِرَةً بموشا بعد مقتل عوَّاد؛ لتقص أثر المركب التي حدَّدها البلاغ المجهول، وفتَّشت القوَّة مباني الوابورات الموجودة في وسط الحوض المغمور بالمياه، وطلبت المديرية قوَّةً أخرى من الجيش للمساعدة إذا ما حدث تبادُلٌ للأعيرة النارية.

وانتشرَت القوَّاتُ من درنكة إلى الزواية على طول شاطىء الحوض، واستمرَّت المُطارَدةُ حتى السَّادِسَة مساءً، ولم يَظهَر للخُطِّ أثَرٌ.

وبينما القوَّات في انتشارها ضَبَطَت المركبَ الَّتي قيل إنَّ الخُطَّ قد هرب عليها، بجوارِ درنكة، موطن الخُطِّ الأصلي، وتبيَّن أنها مُستأجَرَة لأحد تُجَّار بندر أسيوط، وأنها تحمل عدسًا، لا الخُطَّ!

وتكاثَرَت البلاغات: «الخُطُّ غادر أسيوط... إنه في القاهرة»، وحدَّد أحدُ الخطابات مكانَ وجوده في مَنزِلٍ مُعيَّنٍ بشارع محمد علي، تَقطُنُه إحدى الرَّاقصات.

واكتشف البوليسُ أن كثيرين قد انتهزوا موضوعَ الخَط للإيقاع بأعدائهم ومُنافسيهم، وفرصَة لتدبير المَقالِب المَرِحَة.

وجمع هلال أفندي كَومَةَ الرَّسائل وأشعل فيها النَّارَ مَرَّةً واحدة...

ولاحظ قائِدُ فرقة المَطارَدة أيضًا أن أنباء البوليس تَصِلُ إلى الخُطِّ أوَّلًا بأوَّلٍ، وأن تَحرُّكات قُوَّاته ضدَّ العصابَةِ كُلَّها مَكشوفَةٌ؛ وهو ما مَكَّنَه من الهرب بأسرع ممَّا يتوقَّع احد؛ فأصدر تعليماتٍ مُشدَّدَةً لرجاله بعدم الثَّرثَرَة، والحيطة في كُلِّ تَحرُّكاتِهم.

ولجأ البوليس إلى عمليَّاتٍ إرهابيَّة محسوبة، فقبض على صالحين عبد الراضي، أحد أفراد الصف الثاني بعصابة الخُط، وكان معروفًا بأنه حلقة الاتصال بين الأهالي والعصابة في جمع الإتاوات، وإرسال المُؤَن والذخيرة والأخبار السريعة لتحذير العصابة من رجال الإدارة.

وألقى البوليسُ القبضَ على «خالتي فضة» والدة الخُط؛ لِشَكِّه في أن بعض أعوانه كانوا على اتِّصالٍ بها، وأنها هي الأخرى كانت تقوم بتبليغه ما يَصِلُ إليها من أنباء تحرُّكات القوات ضدَّه...

ولكن كُلُّ هذا لم يُفضِ إلى شيء...

لقد حقَّق عبد الرحمن صالح (وكيل النيابة) معهما، وبالطَّبع أنكرا كُلَّ شيء، وأَفرَجَت عنهما النيابةُ ببساطَةٍ.

وأدرك هلال أفندي أنه سيقع في بَراثِن التِّجارة في الخُطِّ.

كانت الصُّحفُ تنشر أنَّ هناك أَلفَ جنيهٍ أخرى مُكافَأةً لِمَن يُدلي بمعلوماتٍ تُؤدِّي للقبض على الخُطِّ، وفوجئ النَّاسُ يومًا بإعلانٍ في الصفحة الأولى من جريدة «المصري»، ومعه صورةُ شخصٍ مُغبَّر الوجه، يقول الإعلان:

«مُجرمٌ هارِب من العدالة.. مُكافأة 500 جنيه لمن يُرشِد عنه.

أنور عثمان، المُتَّهم بالشُّروع في قتل الفتاة التي وُجِدَت مَطعونَةً بِخنجَرٍ بِشقَّةِ الرَّسَّام سمير مجدي، وهو مُجرمٌ خطير، ولكُلِّ مَن يُرشِد عنه أو يُدلي ببياناتٍ صحيحةٍ تؤدِّي للقبض عليه مكافأةٌ قَدرُها 500 جنيه مصري».

وفي نهاية الإعلان، وبِخَطٍّ صغير:

«ملحوظة: هذا الإعلان هو الذي نشره البوليس في فيلم «راوية»، الذي يُعرَضُ ابتداءً من اليوم بسينما لوكس الجديدة بعماد الدين بمصر... أمَّا الفتاة فهي النَّجمَةُ المحبوبة كوكا، بطلة «عنتر وعبلة»».

وضحك هلال أفندي وهو يقرأ الإعلان ساخِرًا، وما كاد ينتهي من ضحكه حتى دخل عليه أحد الحُرَّاس الذين كانوا مُعيَّنين لحماية مَقرِّه في لوكاندة الشامي، وأخطره أن هناك جَزَّارًا يطلب مُقابَلَتَه، ويقول إنه يعرفه منذ كان رئيسًا لنقطة بني قرة، وذكر اسمه، فتذكَّره هلال أفندي، وشغف بمقابلته عندما نَقَلَ الحارسُ عنه قَولَه إنه جاء في أمرٍ يهمُّ هلال أفندي شخصيًّا.

واستقبله قائدُ فرقة المُطارَدة، وسأله عمَّا لديه؛ قال إنه يعرف مخبأ الخَط، وأنه مُستعدّ للإرشاد عنه، وأردف بأنه لا يطمع في الألف جنيه التي خصَّصَتها الحكومة لمن يُرشد عنه، ولكنه «طامِعٌ في صداقة الرِّجال»، لا أكثرَ ولا أقلَّ.

«هل الرَّجُل مجنونٌ، أم مُحتالٌ، أم قِدِّيس؟ صحيح أنه مَستورٌ، وحالَتُه الماليَّةُ لا بأسَ بها؛ فهو جَزَّار، وتاجر مواشٍ، ويملك عددًا لا بأس به من الأفدنة- ولكن هل كُلُّ هذا مُبرِّرٌ لكي يتنازل الإنسانُ عن ألف جنيهٍ مرَّةً واحدة؟ ربَّما لنجرِّبْ!»، هذا ما دار بذهن هلال أفندي حينها.

كان لفرقة المطاردة سُلطاتٌ واسِعةٌ، ومُخصَّصاتٌ ماليَّةٌ كبيرة، رُصِدَت كُلُّها من المصروفات السرِّيَّة لحساب اقتناص الخُطِّ، وكانت هذه المُخصَّصات فيما بعد مَثارَ القيل والقال، والسُّخرية، عندما طالت مَهمَّةُ المُطارَدة، وكَثُرَت مصروفاتها بلا نَتيجَةٍ، وأيَّامَها قيل في دوائر البوليس إن المسألة «تحوَّلَت إلى لُعبةٍ للتنعُّم والاستمتاع على حساب اقتناص الخُطِّ، الذي لا يُقتَنَص، ولا يَقَع، ويبدو أن أحدًا لا يَهمُّه ذلك؛ طالما بالوعة المصاريف مفتوحة».

وبمقتضى هذه السلطات صَفَّق هلال أفندي طالِبًا من فَرَّاش اللوكاندة أن يُجهِّزَ عشاءً فاخرًا من الدَّجاج واللحوم، وزُجاجة «كونياك» جيِّدَة.

وشرب الجَزَّارُ نصفَ الزُّجاجَة وحده، وهلال أفندي يتظاهَر بالشُّرب، ويأكل قِطَعًا «رمزيَّة» من الدَّجاج، وانحلَّت عُقدَةُ لسان الجَزَّار مع الكأس الخامسة؛ فبدأ يتكلَّم، قال إن الخُطَّ في إحدى قرى بني سويف، وأنه يُعَسكِرُ في وابور مياهٍ يَقعُ على الطَّريق الزراعيِّ، في منطقةٍ مُحصَّنَة، لا يَقوَى أحدٌ على اقتحامها، وبدأ الجَزَّارُ يروي قصصًا عن الخُطِّ تؤكِّد أنه خبيرٌ بأحواله، وأن معلوماته تصدر عن رجل على صلة وثيقة بمارد الإجرام، وأردف أن الخُطَّ في مَخبَئِه الجديد لا يختفي فقط من البوليس، ولكنه أيضًا يعتكف حُزنًا على وفاة عوَّاد، وكيله، وساعِدِه الأيمن، وهو برغم حُزنِه وكآبَتِه يُخطِّطُ لعمليَّةٍ كبرى ضدَّ فرقة المطارَدة، وأنَّه أقسم برأس عوَّاد ألا يبدأ إلَّا برأس هلال أفندي ذاته.

وتحسَّس هلال أفندي عُنُقَه، وصَبَّ كأسًا أخرى للجزار؛ وقال له: وانت عرفت ده كُلُّه ازَّاي؟

قال الجزار إنه صديق الخُطِّ، ومَسموحٌ له بزيارته والتَّردُّد عليه.

وسأله الضابط عمَّا إذا كان لديه فكرة مُحدَّدة عن الوسيلة التي يُمكِنُ أن يَقَعَ بها الخُطُّ، باعتباره أقرب إلى الصُّورَة، ومُحيطًا بِتَفصيلاتِها، وسأله عن الخدمة التي يستطيع أن يُقدِّمها في هذا الإطار... ردَّ الجَزَّارُ على ذلك بأنه سيزور الخُطَّ في مخبئه، وسيُخطِرُ الضَّابِطَ تليفونيًّا، أو تلِّغرافِيًّا؛ ليتَّخِذَ إجراءاتِه، ويرسم خُطَّتَه للإيقاع به.

وفكَّر هلال أفندي لحظاتٍ، ثمَّ قَرَّر أن يخطو خطوةً أخرى... قام إلى تليفونه، وطلب المديرية، وسأل عن «الباشا المدير»، فقيل له إنه في منزله. كانت الساعَةُ قد جاوَزَت مُنتَصَفَ الليل، وبرغم ذلك فبعد لحظاتٍ كان الجَزَّارُ في منزل «سعادة الباشا المدير» مَرَّة واحِدة...

كانت فكرة الضَّابط أن يَضعَ الجزَّارَ أمام هَيبَةِ المدير، ويُشعِرَه بالثِّقَة، وبأنَّه يُقدِّم خدمةً كُبرى لشخصيَّاتٍ كبيرة، وبالفعل، استقبل الباشا الجزَّارَ على بابِ مَنزلِه في هذا الوقت المتأخِّر، ورَحَّب به، وقَدَّم له السجائر بنفسه؛ وهو ما انعكس ارتباكًا وخَجلًا وامتِنانًا على وجه جزار بني قرة.

وبعد مُجامَلات البِداية بَدأ الجَزّارُ يروي قِصَّتَه مَرَّةَ أخرى للمدير، وركز الجَزّارُ في روايته المعادة على أحوال الخُطِّ، وعاد يُؤكِّدُ أنَّه مَحلُّ ثِقَتِه التامَّة؛ فهو يُجالِسُه طويلًا، وَيخرُجُ معه أحيانًا من مبنى الوابور إلى زراعات الذُّرَة أمامه، وأنه قادِرٌ على ترتيب كلِّ شيء. وفي نهاية كلامه كان المُديرُ وهلال أفندي قد وَثِقَا تمامًا بأنَّ الخُطَّ قد أصبح في أيديهما، وأن المسألة عدَّة ساعاتٍ لا تزيد، ولا تَتمدَّدُ إلى يوم!

وبعد أن انتهى الجَزّارُ من سَرْدِ معلوماته، وأجاب على تساؤلاتِ مضيفه، قال الباشا:

- وطَلَباتَك؟

وفي كلماتٍ مُتعثِّرةٍ اقترح الجزّارُ أن يُزوَّدَ بخطابٍ رسميٍّ يُمكِّنه من الحُصولِ على مساعدات من رجال البوليس في بني سويف لتسهيل مَهمَّته... ووافَقَ المدير.

وفي اليوم التالي كان الجزّار يَقِفُ في شُرفَة القطار المسافر إلى بني سويف وهو يحمل في جيبه خطابًا من مديرية أسيوط إلى مديرية بني سويف، ولِكافَّةِ الجهات الإدارية أن «تُقدِّم لِحامِلِه حضرة فلان أفندي من أعيان ناحية كذا كُلَّ التسهيلاتِ التي يَطلُبُها؛ لأنَّه في مَهمَّةٍ تَتعلَّق بالقَبضِ على المُجرمِ الفارِّ محمد محمود منصور»، وصَرَفَت له مديريَّةُ أسيوط استماراتِ سَفَرٍ مجَّانيَّة بالدَّرجة الثانيةَ، وفرَضَ المدير أن يُقدِّم له مِنحة تحت الحساب من المصاريف، ولكنَّه رَفَضَ بِشدَّة.

وتحرَّك القطار بالجَزّار، وحبس هلال أفندي نَفَسَه في لوكاندة الشامي، في انتظار المكالمة الموعودة التي سَتُنهي كُلَّ شيء، ومَضى الوَقتُ بطيئًا ثَقيلًا، وعندما دَقَّ التليفون أخيرًا ارتمى الضَّابطُ عليه يَستَخْبِرُه أسراره المطلوبة، وكانت بني سويف.

قال الجزّار إنه زار «صاحبه» في بيته، وفَهِمَ منه أنه سيُغيِّر مكانَه إلى آخر، وسينقل من «السَّكَن»، وقال إنه من غير المُفيدِ زيارَتُه الآن؛ لأنه سيرحل بين لحظة وأخرى... وأنهى مُكالَمَتَه بأنه سيعود مساءً ومعه الخبَرُ المُؤكَّد، بالعنوان الجديد.

وحولَ زُجاجةٍ أخرى من الكونياك تحدَّث الجَزّار -في نفس الليلة- عن نتيجة زيارته للخُطِّ، وكيف فَهِمَ منه أنه سيغادِرُ الوابور، وأنه مَعروضٌ عليه عِدَّة أماكِنَ أخرى في زِمامِ مديرية بني سويف، لَم يَنتَهِ من اختيارِ أحدها بَعدُ، وأفاض في شرح أحوال الخُطِّ، الذي أطلَق لِحيَتَه حزنًا على وكيله المُغتال.

وانتهى الاجتماع بالاتِّفاق على الانتظار ثلاثة أيَّام أخرى، يسافر خلالها الجزار إلى بني سويف، ويَطمَئِنُّ على المَقرِّ الجديد للخُطِّ، قبل أن يبدأ الهجوم عليه.

وخلال الأسبوع التالي كان «سفير البوليس» ينتقل بين المديرية ذهابًا وايابًا، باستماراتِ سَفَرٍ رسميَّةٍ، ومعه أوراقُ اعتمادِه كمندوبٍ فوقَ العادَة.

وفي الليلة السابعة، وبعد الكأس الثالثة، أعاد السَّفيرُ التَّأكيدَ بأن الخُطَّ سيَقَعُ، وأنَّه سيسافر في الصباح إلى بني سويف لإعداد الترتيبات النهائية للخَلاصِ منه، وسَفَحَ نصفَ زجاجة الكونياك كالعادة، ثم انصرف تارِكًا تَمنيَّاتِه للبوليس، وتحيَّاتِه للباشا المدير.

وفي الصباح استقل الجَزّارُ القطارَ في رحلته الأخيرة، وقبل أن يغادر القطارُ الرَّصيفَ خَرَجَ هلال أفندي مُسرِعًا من حُجَرة ناظر المَحطَّة وهو يرتدي ملابس بَلديَّة، وبرُفْقَتِه أحدُ أعوانه بنفس الملابس، وقفز في آخر عربات «الإكسبريس» وهي على حافَّة الرَّصيف.

وتوقَّف القطار في محطة ديروط، ثم تحرَّك في اتجاه مَنفلوط، وبين المحطَّتَيْن فوجئ الجَزّارُ بهلال أفندي أمام مقعده الفاخر بالدَّرجة الثانية.

وقبل أن يفيق من دهشته كان الضابط قد مَدَّ يَدَه إلى «قُفَّةٍ» وَضَعَها الجَزَارُ تحت مقعَدِه، وكشف غطاءَها، فإذا به وَجهًا لِوَجهٍ أمامَ الخُطِّ!

لم يَكُن الخُطُّ الذي أمامه بَشَرًا، ولكن اسمًا مَكتوبًا على قُماشٍ...

أما ما كان يَحويه القُماشُ فهو: حشيش!

كان بالقُفَّة أَربعُ عبوات من الحشيش، ماركة «الخُطّ»...

وأنكر «السفير فوق العادة» -بالطبع- أنَّ الحشيش ملكُه، وغَضب لِكرامَتِه، وثار للشَّكِّ فيه، بينما أخذ هلال أفندي يضحكُ بِشدَّةٍ، ومَرارة!

***

وكان لا بُدَّ من الاستمرار في المُطارَدَةِ بأيِّ شكل...

وكان لفرقة المُطارَدَة قائدٌ ثانٍ، هو الملازم حامد عبد الله، الذي كان يَتناوَبُ مع المُلازِم محمد السَّعيد هلال في قيادة الفرقة. وفي الفترة التي كان محمد هلال يُتابِعُ الخَيطَ الذي يَتمثَّل في الجَزّار كانت فِرقَة المُطارَدَة -بقيادة زميلِه- مُستمرَّةً في هَجماتِها.

تجمَّعَت المَعلوماتُ في مكتب مدير أسيوط، تُؤكِّد أن الخُطَّ يُقيم الآن في الجبل، وأنه يَهبِطُ منه إلى درنكة ليقابِلَ زوجتَه رشيدة، وليطمَئِنَّ على وَلَدِه هاشم، وعلى أُمِّه «خالتي فضَّة»، وتَقرَّر أنْ تُهاجِمَ قُوَّاتُ المُطارَدَةِ، وأن يَقومَ الجَيشُ هو الآخر بغارَةٍ حربيَّة عليه. وهكذا قامت طائِرةٌ حَربيَّةٌ من مطار منقباد فألقت القنابل فوق الجَبَل؛ لإجبار ساكِنيه من رجال العصابات على النزول إلى المدينة، حيث يمكن مُواجَهَتُهم، وتَحرَّكَت مَدافِعُ «الهاون» لِتُطلِقَ قَذائِفَها على المَغاراتِ البارِزَة من سَفحِ الجَبَل.

ولم تَنجَح هذه الوسيلةُ في شيء. كان لا بُدَّ من الهجوم على الجبل بقوّاتٍ بَشريَّة لتطهير مغاراته وكهوفه؛ فأولاد الليل لا يُقيمون في سَطحِه، ولكنَّهم يتحصَّنون بالمغارات التي تُعتَبَرُ مَخابئَ مثاليَّةً للاحتماء بها من قذائف مدافع «الهاون» وقنابل الطائرات المُغيرة، ولا فائدة مع وجودها من الغاراتِ الجَوِّيَّة على مَملَكَةِ أولاد الليل.

وكان من المستحيل، ومن غير العمليّ أن تَصعَدَ قُوَّاتٌ ضَخمةٌ إلى قِمَّة الجبل؛ لِمَا تَحتاجُه من مُؤنٍ وأحمالٍ تُعَرقِلُ حَرَكَتَها السَّريعة، ورُؤِيَ -بناءً على اقتراحٍ من محمد هلال نفسه- أن تقوم «بعثة محدودة» من أفراد فرقة المُطارَدَة بالهجوم على الجبل. وبدأ البحثُ عن دَليلٍ يقود البعثةَ في رحلة الاستكشاف التي قَرَّرَت الفرقةُ أن تقوم بها، وبَعدَ مَجهودٍ عَثَرَت على شابٍّ من أولاد الجَبَل، كان الخُطُّ قد قتل أخاه؛ فتطوَّع لقيادَةِ البَعثةِ التي تَشكَّلَت من ستَّةٍ فقط من أعضاء فرقة المُطارِدة.

وفي بداية المساء بدأت البعثة رحلتَها وهي تحمل أثقل أسلِحَتِها، وكمِّيَّاتٍ وفيرةَ من الذخيرة، وصفائِحَ للمياه، وكَمِّيَّاتٍ من الشاي والسُّكَّر والمُعلَبات، ووابور جاز لصُنع الشاي.

وعلى امتداد ثلاثة أيَّام كامِلَةٍ اقتَحَمَت البَعثَةُ مئات المَغارات والكهوف، وبمجرَّد أن تقترب من أي مغارَةٍ تُمطِرُها بوابِلٍ من الرصاص قبل أن تَدخُلَها، فإذا دخَلَت وجدت آثار الخُطِّ: أعقاب لفائِفَ، وزُجاجاتٍ ببَعضِها بقايا من «الزَّبيب» -مشروبه المُفضَّل- وأوراقَ سلوفان بها آثارُ أفيون.

وأوشكَ طعام البعثة على النفاد، وتَقرَّر أن تُوزَّع المياهُ بحسابٍ؛ لأن الكمية الباقية لم تكن كافية لرحلة العودة -بفرض أنها ستتمُّ بدون عقبات- أمَّا آخر الوَجَبات فقد التهمتها البعثة بالفعل قبل أن تبدأ في رحلة الهبوط من الجبل.

وبدأت رحلةُ العَودَة، وألقى الرِّجالُ نَظرةً أخيرةً على قِمَّة الجبل؛ إنها تَبدو مَدينَةً فَسيحةً، وليس مُستَبعَدًا أن يَبني فيها أولادُ الليل بيوتًا في المستقبل، ويَسكنوها، ويعلنوا استقلالَها عن البلاد! إن مُشكِلَتَها الحقيقيَّةَ أنَّها غيرُ صالِحَةٍ للزِّراعة، وليس فيها مَوردٌ للمياه، بجانب جَوِّها «القارِّيّ»؛ فهي شديدةُ البرودَةِ في الليل، وقائِظَة في النهار.

كان آخِرُ الرِّجال الهابطين عسكري اسمه «الهَجَّان»، وفي لَحظَةٍ ما، وهو يَحفَظُ تَوازُنَه فوق إحدى الصخور لَمَحَ شيئًا يتحرَّك: رأس إنسان، هناك وراء صخرة، تَظهَرُ وتَختفي، بَدا مَعروفًا له، صَرَخَ:

- الخُطّ... الخُطّ.

ردَّدَ الجَبَلُ صَدى صَوتِه، ومع عَودَةِ الصَّدى ملأ صَوتُ الطَّلقاتِ سُكونَ الصَّمتِ على سَطحِ الجبل، وسارَعَت البَعثَةُ تَحتمي بالصُّخور، لتَرُدَّ بالمِثل، ومَضَت فَترةٌ ونَهرُ الرَّصاصِ يَملأُ الصَّمتَ كَشلَّالٍ مُتدفِّقٍ، وقَدَّرَت قوَّاتُ البوليس أن عَدَدَ أولاد الليل لا يَقِلُّ عن أربعةٍ، ولا يزيد عن ستَّة؛ هذا ما أكَّدَته المُتابَعَةُ السَّريعَةُ لأصواتِ البَنادقِ المُهاجِمَة، ولاتِّجاهات إطلاقِها.

وفجأةُ صَمَتَت بنادِقُ أولادِ الليل، إنَّهم يَنسَحِبون، وهُم غالِبًا يَبحثون عن مَوقِعٍ جديدٍ، يُمَكِّنهم من الهجوم على البعثة هجومًا مُؤثِّرًا. تحرَّكَت البَعثَةُ هي الأخرى لتكون في موقعٍ مُلائِم، وَجَدَت هذا الموقِعَ بعد نصفِ كيلو من مَوقِعها الأوَّل، وبمجرَّد استقرارِها فيه انهال الرَّصاصُ عليها من جديد.

وتكرَّرَت اللعبةُ مرَّةً ثانية: يتوقَّف رَصاصُ أولادِ الليل، وتَنتقِلُ البَعثةُ وراء المَكان الجديد الذي يأتي منه رصاصهم، وتأكَّد أنهم ينسحبون تطبيقًا لتكتيك معين، ولكن: ما هدفهم؟!

لم يَتَّضِح هذا الهَدفُ إلَّا بعد أن قطَعَت القُوَّةُ خمسة كيلومترات، وَجَدَت نفسَها بَعْدَها في نَفسِ المكان الذي بَرَزَ منه رأسُ الخُطِّ أوَّلَ مَرَّة:

مَدخَل مَغارةٍ من آلاف المغارات التي تملأ سطحَ الجَبَل، وفَطيرَة كَبيرة شَهيَّة، و«چركن» مليء بالمياه، وامتدَّت أكثرُ من يَدٍ إلى الفطيرة الشهيَّة، ورفع أحدهم صفيحة المياه إلى فَمِه، ولكن كُلُّ الأيدي توقَّفَت أمام صَرخَةٍ مُدوِّية من محمد هلال:

- انتباه يا عسكري...

ومع صرختِه كانت يَدُه اليُمنَى تَدفعُ الصَّفيحة بشدّة، ألقتها بعيدًا عن فم العسكري، بينما تولت قَدَمُه اليُسرى قَذْفَ الرِّمال على الفطيرةِ التي كانت في مكانِها على الأرضِ، كان الخاطِرُ الذي بَرَقَ في ذهنه بسرعة: «لماذا حَرَص الأشقياءُ على استدراج مُطارِديهم في خَطٍّ دائريٍّ خمسةَ كيلومترات كامِلَة ليعودوا بهم إلى هذه النقطة؟ أليس مُحتَمَلًا أن تكون صفيحةُ المياه والفطيرة كَمينًا من السُّمِّ الفاخِر؟! صحيحٌ أن السُّمَّ جريمةُ الجُبناء، وأنَّ أولاد الليل يستنكفون عن استخدامه؛ لأنه لا يَتضمَّن أيَّ شجاعة في المُواجَهَة، وهو لا يَليقُ إلَّا بالنساء اللواتي يَفتَقِدْنَ القُوَّةَ والشَّجاعة؛ ولكن علينا أن نَتوقَّع الغَدرَ من الخُطِّ، ما دُمنا قد بدأنا به، إنه يُحارِب بأسلوبِنا وليس بأسلوبه؟».

وعندما أفاقَ من خواطِره لَمَحَ خيطًا من الدِّماء على باب المغارة، وبتفتيشها عَثَرَت البَعثَةُ على شَخصٍ مَقتولٍ، حَمَلَه أحدُ العساكر على ظَهرِه، واكتفَت البَعثَةُ به غَنيمةً، وهَبَطَت من الجبل.

وأكَّدَت أكثرُ من مُحاوَلَةٍ فاشِلَةٍ بعد ذلك أنَّه من العَبَثِ الهُجومُ على الخُطِّ في مَملَكَتِه التي يَحفظُ كُلَّ خَوافيها، برجالٍ لا يعرِفُ أحدُهم كيف يخطو خُطوةً فوق قمَّة الجبل دون دليلٍ...

أَلَم يَعُدْ هناك أَمَلٌ إذًا في أن يسقُطَ الخُطُّ؟!

الفصل السابع
صاحِبُ الجَلالَةِ المَلِك فاروق... وصاحِبُ الجَلالَةِ مَلِكُ «الخُبِّيزة»!

وجاء العيد..

سافر عزيز باشا أباظة إلى القاهرة ليمضي العيد مع أسرته، ثم تَوجَّه في أوَّل أيَّام العيد لِيُعيِّدَ على «مولانا»، وكانت التَّقاليدُ أيَّامَها تَقضي بأنَّ «جَلالَته» يستقبل الوُزراءَ والكُبراءَ، وكبارَ الموظَّفين؛ ليقولوا لجلالته: «كُلّ سنة وانت طيِّب»...

وكان عزيز باشا حائِزًا على الرِّضى السَّامي؛ فهو شاعِرٌ كبيرٌ، نَظَمَ من شِعرِه عيونَ القصائِد في مَدحِ مولاه، ووَصَفَه بِكُلِّ الصِّفاتِ التي كان يفتقد إليها تمامَ الافتقادِ، وعندما جاءَ دَورُه في التَّسليم على مولانا -مُهنِّئًا بالعيد- تَوقَّع أن يُعبِّر جلالَتُه عن رضاه بأي صورة من الصُّوَر، ولكن مولانا قال لعزيز باشا شيئًا لم يتوقَّعه (بعد عيونِ الشِّعرِ الَّتي تَغزَّل في عيون جلالته!)، كان الباشا مُنحَنِيًا كزاويَةٍ قائِمَةٍ وهو يُصافِحُ مولاه، ففوجِئ بالمَلِكِ يقول:

- قُل لي يا عزيز باشا... هوَّ اسمه الخَطّ واللَّا الحَظّ؟

وأردف مولانا كَلِمَتَه بضحكةٍ عالِيَةٍ، زَلزَلَت كيانَ الباشا، الذي تَمتمَ بكلماتٍ سريعةٍ يُؤكِّد بها لمولانا أنه سيفعل المُستحيلَ، وأن النَّومَ حرامٌ، والشِّعرَ حَرامٌ؛ ما لَم يَقَع «ابن الحرام» الذي عَرَّضَه لهذا المَوقِف العَصيب.

لقد أثبَتَ مولانا بجُملَتِه الحَكيمَةِ أنَّه يعرف كيف يستخدم اللُّغةَ بنفس المهارة التي يستخدمها بها شاعِرُه الملوكي الكبير، فَنَقَلَ نُقطةً واحدةً من كَلِمة «الخط» من فوق الحاء إلى فوق الطاء، فأصبح «الخط»: «الحظ»؛ الذي جعل الخُطَّ يُمني البوليسَ بالهزائم المُتوالِيَة.

أيَّامها كان جلالَتُه من المُغامرين الكبار. في كلمته التي قالها للباشا المدير شيءٌ من «التَّشفِّي»، وقَليلٌ من العِقاب، والظَّاهِرُ أنَّ جلالَتَه كان مُعجَبًا بالخُطِّ، وبأولاد الليل عمومًا، ويَعتَبِرُ نَفسَه صِنوًا لَهُم! ففي نفس العام تقريبًا كان قد تعرَّض لفضيحةٍ مُدوِّية بسببِ بعض أولاد الليل؛ فقد امتلأت مُجتَمعاتُ القاهرة فجأةً بأحاديثَ لا حصرَ لها ولا عَدَدَ عن مولانا، وتَبيَّن أن هذه الشائعات كُلَّها قد انتشرَت عن لسانِ ابنة البارون «إمبان» -باني ضاحية «مصر الجديدة»-، ولأنَّ ما كانت ترويه كان يتضمَّنُ مَساسًا بالذَّات المَلَكيَّة، وتشهيرًا بها؛ فسرعان ما صدر أَمرٌ مَلَكيٌّ بِطَردِها من مصر، ولكنَّ البنتَ لم تَصمت، بمجرَّد خُروجِها أدْلَت بحديثٍ لصَحيفةٍ فرنسيَّةٍ، قالت فيه إنها طُرِدَت من مصر لأنها رَوَت قِصَّةً حقيقيَّةً عن الملك فاروق، إذ خرج جلالَتُه يومًا بسيَّارته يَتنزَّه في طَريق إنشاص، فاعترضَه بعضُ الأشقياء، وهاجموا السَّيَّارة، واعتدوا على الملك، وسَلَبوه مالَه، وبمجرَّد انصرافهم عاد المَلِكُ إلى استراحته حيث التقط بُندقيَّته وعاد يُطارِدُ أولادَ اللَّيل، ويبدو أن مولانا من فَرطِ

صَلاحِه وتقواه (وقد امتدحهما الباشا المدير في بعض شعره) كان يتفقد الرَّعيَّة مع «صديقةٍ» فرنسيَّة في ظلام الليل؛ فظنَّه الأشقياءُ مُواطِنًا عاديًّا يُمارِسُ الغَرامَ في الظَّلام؛ فابتزُّوا نُقودَه، ولكنَّه أبى إلَّا أن يأخُذَ بثأرِه؛ فخَرَج يُطارِدُهم.

وفي اجتماعٍ ضَخمٍ حَضَرَه جميع مأموري مراكز مديريَّة أسيوط -وعُقِدَ في مكتب مُديرها- أعاد عليهم عزيز باشا ما سَمِعَه من جلالة المَلِك، وقال:

- لقد فَهِمتُ قَصدَ جَلالَتِه، وفَهِمتُ اللَّومَ المُختفي في ثنايا الكلمات، وأنا أنقل إليكم هذا لأنَّه يَجِبُ أن نَبذُلَ كُلَ الجهود المُمكِنة -وغير المُمكِنَة- للخَلاص من الخُطِّ.

وسكت عزيز باشا...

وبدأوا هُم يتكلَّمون، وظَلَّ الاجتماع ساعاتٍ يُفتِّش عن الطريقة التي تقود إلى القبض على الخُطِّ، وبدأ البحث عن آخَرَ يَقودُ إلى المُجرم الهارب، وقفز إلى الأذهان المَثَلُ الفرنسيُّ الشهير: «فَتِّشْ عن المَرأة».

كانت في حياة الخُطِّ نساءٌ كثيراتٌ، كانت رشيدة هي أوَّل هاتِه النِّسوة، تَزوَّجها وهي في التاسعة من عمرها، ولم تَرَهُ خلالَ زَواجِهما أكثرَ من عشر مرَّات؛ فبعد الزَّواج بقليلٍ نُفِيَ إلى جبل الطُّور، وفَرَّ من المنفى، وعاد إلى أحراش الصعيد مُطارَدًا من الحكومةِ، ببوليسها، وجيشها، ومُخابَراتها.

كانت رشيدة نموذجًا للجَمالِ الصَّعيدي: سمراء، دَقيقَة الملامح، وديعة، وطيِّبة. ولعلَّها خُلِقَت أصلًا لكي تكونَ زوجةً لصيَّادِ سَمكٍ فقير، يجري على رزقه، ويعود مُنهَكًا، فيَجِدُها قد دَبَّرَت من حَشائِش الأرض ما يُؤكَل.

لكنَّ السنوات كانت قد تَرَكَت آثارَها على ملامحِ رشيدة؛ لم تَعُدْ هي نفسها الفتاة المَرِحَة، المُشرِقة، التي زُفَّت يومًا إلى محمد وهي تكاد تكون طِفلةً؛ ازدادَت مَلامِحُها جَهامَة بِفِعلِ الأيَّامِ وما جاءَت به.

وفي الصَّعيدِ تَفقد البناتُ نَضارَتَهُنَّ بأسرع ما تَفقِدُها الزُّهورُ، وقد لاحظ الأستاذ يحيى حقِّي أن «أغلب الفلَّاحات ما تكاد الواحِدَةُ منهنَّ تتزوَّج وتخلِّف ولدًا أو اثنين حتى تتساوى في المَظهَرِ مع أُمِّها: قَدَّدَتهما لَسعَةُ الشَّمس، ووَقْدَةُ الفُرن، وامتَهَنَهُما وعَطَّرَهُما بِشَذًى واحِدٍ عَجينُ «الجِلَّة»، وتَقريصُها، ودَمَغَهُما بِمَيْسَمٍ واحِدٍ بَذلُ جهدٍ مُماثِلٍ في عَملٍ شاقٍّ، مُتَّصِلٍ، رَتيبٍ... إنها أكثرُ أَهْلِنا قَفزًا من الصِّبا إلى الشَّيخوخة».

وكانت رشيدة بالإضافة إلى هذا تعيش وحيدةً منذ حَوَّلَت لطمةُ عبد الله بن محمدين الخُطَّ إلى صيَّادِ بَشَرٍ؛ فَهَجَرَ الشَّبَكَ والسَّنانير والقارَب، وتلفَّعَ بالبنادق، وتَوَشَّحَ باللَّيل، وأقام في الجبل.

كان الخُطُّ قد هَجَرَها مُجبَرًا، ثم شيئًا فشيئًا كان هو نفسه يتغيَّر كإنسان، لم يكن مُمكِنًا -في ظِلِّ حياته الجديدة- أن يظلَّ كما هو. حَفَرَ الزَّمَنُ في نفسه وقلبه أخاديدَ جديدةً، باعَدَت بينهما، وأقامت جبالًا من الثَّلج بين قَلبَيْهِما وجَسدَيْهِما. لم تكن تراه إلَّا مرَّةً كلَّ شَهرٍ، وأحيانًا كلَّ شَهرَيْن أو ثلاثة، كان

يهبط من فوق قمَّة الجَبلِ قادِمًا من قِمَّة «الشيخ بخيت»، فيسحَبُها من يَدِها، ويدخل بها إلى حجرة نومِها الفقيرة.

وفي الشهور الأخيرة، وبعد مَقتَلِ عوَّاد واشتداد المُطارَدَة، كان الخُطُّ يعيش حياةً قَلِقَةً بِكلِّ معنى القَلَق، وقد انسحب هذا القَلَقُ على كُلِّ لحظات عُمرِه، حتى تلك اللحظات القليلة التي كان يُمَضِّيها مع رفيقته.

كانت «الخالة فضَّة» تحرس عشَّ الغُرابِ بمدفعها الرشَّاش، وبرغم هذا فإن الخُطَّ كان خائفًا.



«رشيدة»

آخر ساعة العدد 668 (26 رمضان 1366 - 13 أغسطس 1947)

وفي آخر مرَّةٍ هَبَطَ الخُطُّ إلى رشيدة، سَحَبَها من يَدِها كالكلب المسعور، ودخل إلى القلعة التي كانا ينامان فيها، ولم يفتح فَمَه بكلمةٍ واحدة، جرَّدَها من ملابسها، أمَّا هو فلم يتخفَّف إلَّا من الأجزاء الضرورية من ملابسه، تلك التي لا تعوقه عن الفرار كاسِيًا.

في لحظة ما من لحظات نَشوَتِها لَفَت رشيدةُ ذِراعَها حول ظَهره؛ لعلَّها أرادَت أن تَضُمَّه إليها أكثر، لكنها فوجِئَت بعينه ينتَفِضُ مُرتَعِبًا، ويفكُّ ذراعَيْها عنه، وينطلق إلى الجبل.

شكَّ فيها الخُطُّ، تَصوَّر أنها تُكبِّلُه بذراعَيْها لِتُمكِّنَ منه أعداءَه أو طالِبيه من رجال البوليس أو طُلَّاب الثَّأر؛ فَفرَّ هارِبًا إلى الجبل...

كانت «خالتي فضّة» حزمة من الأعصاب المتوترة، الكارِهَة، ومنذ اللحظة التي بدَأت فيها مَعركةُ الثَّأرِ بين الخُطِّ وبين أسرة شيخ الخَفر، كانت «خالتي فضة» هي نارها المتوقِّدة، وحَطَبُها المُشتَعِل، كُلَّما خَمَدَت وخَفَتَ أوارُها، أشعَلَتْها، بطاقَةٍ من الحِقدِ الَّذي لا ينفَدُ.

كانت نمطًا غريبًا من النساء القويَّات، وربَّما تَرَسَّب فيها ذلك الحِقدُ المُتَولِّدُ من مُكابَدَةِ الحياة تحت ظروفٍ عنيفةٍ وقاسِيَة، انفجر حقدًا مُركَّزًا ومُستَمرًّا ودائمًا، وكانت رشيدة تَعتَبِرُها مسؤولةً عمَّا انتهى إليه حال الخُط؛ فلولاها لَمَا وَلَغَ في الدَّمِ حتى استحمَّ به، ولَظَلَّ مُقيمًا بجوارها.

ويبدو أن العنف ينعكس على بعضِ النفوس انكسارًا، وكانت تلك هي طبيعة رشيدة، التي كانت تُفضِّل -في كل الأحوال- أن يَنفُضَ الخُطُّ يَدَهِ من كُلِّ شيء، ويعود إلى عمله الأصلي، ويعيش في حالِه، ويتحمَّل ما اختارته لهما الأقدارُ من حَظٍّ وقِسمَة؛ فهي لم تَكُن تكسب شيئًا ما من حياة الليل التي يحياها الخُطُّ. إنها تُقيمُ شُهورًا طويلةً وحيدةً، مع طفلها الرَّضيع، ومع حماتها القاسية، وبلا حتى نقودٍ تُنفِق منها. وعلى الرغم من دخله الكبير من الإتاوات وأجر الحراسة والعَطايا، فإن رشيدة لم تَنَل شيئًا، كان المالُ يذوب من أصابعه، ويتبدَّدُ إلى حيث لا تدري. كان يَصرِفُ بِسَفَهٍ على اصطناع الأعوان، وتسريح الجواسيس، والحفاظ على وَلاء الرجال. وما يأتي من الرِّيح؛ يطير مع الريح.

وعلى «العشق» تَبدَّد الكثيرُ من عائد «العنف». كان يهوى النساء، ويشرب الزَّبيب، ويتعاطى الأفيون. ألوانٌ من الشَّبَق المُكثَّف للحياة، كأنه كان يعلم أنها أقصَرُ من أن يأخذها بالحِكمَة، أو بالتَّزَمُّت.

يَحلو الزَّبيبُ في الجبل، وسطَ حَرارتِه اللَّافِحَة، يُرطِّبُ مَذاقُه قَيظَ الصَّخرِ ووَحشَةَ اللَّيل، أمَّا فَصُّ الأفيون فَبِهِ تُشحَذُ حواسُّه لتتَنَمَّرَ للأعداء والمُطارِدين. تَتَّسِعُ حَدَقَةُ العَينِ بَعدَه، كأنَّها كاميرا تدور في محجَرَيْها بحثًا عن دَسيسَةٍ، أو التقاطًا لمُؤامَرَةٍ باحِثَةً عن خائِنَةِ الأَعيُنِ وما تُخفي الصُّدور، وتدور أكوابُ الشاي السَّاخن، واحِدة وراءَ الأخرى، باعِثَةً نَشوةً في الأعصاب المشدودة.

في سهرات الغرام يحلو الويسكي، أمَّا السجائر فهو يُفضِّل أن يلفَّها لنفسه؛ شأنه في ذلك شأنَ مُعظَمِ أهل الصَّعيد، الَّذين يُفضِّلون «اللَّفَّ» على سجائر الماكينة، التي تُصنَعُ في الفابريكات...

وكان في بعض الأحيان ينزلُ من الجبل مُنشَرِحًا، ويقضي وقتًا سعيدًا مع أسرَتِه، يُداعِبُ هاشِم، ويُغازِلُ رَشيدَة، ثمَّ يأخذ أمَّه «خالتي فضَّة» إلى سَطحِ المنزل، ويعطيها مِنظارَه المُكبِّر لتنظر منه إلى قِمَّة «الشيخ بخيت»، فترى ضريحَ الشَّيخ الذي تُحبُّه، وتُنذُرُ له، وتتبرَّكُ به، وبمجرَّد أن تراه مُقرَّبًا في منظارِ المَيدانِ تَصرخُ قائِلَةً إن ضريحَ الشيخ قد انتقل من قِمَّة الجبل إلى سطح المنزل، بينما تضحك رشيدة، ويرفع هاشِمُ الرَّضيعُ رأسه من فوق ثدي أُمِّه ويتأمَّل المشهد كُلَّه بنظرَةٍ داهِشَة!

لكن تلك الأيَّامُ قد ذَهَبَت...

إنه لم يَعُدْ يأتي كثيرًا، وإذا جاء مضى بسرعة. إن بيته يبدو فقيرًا، وزَوجَتَه لم تُغيِّرْ ملابِسَها منذُ سنوات، وهو لا يُعطي نقودًا لأمِّه، ولا يدري أحدٌ كيف يَصرِفُ إيراداتِه المَهولَة، وفي أيِّ شيء! هل يصرفُها على النِّساء؟! لِمَ لا؛ كان معروفًا بغزواته النسائيةِ المُوفَّقة؛ فهو وسيمٌ، أشقر الشَّعر، أزرَقُ العَينَيْن... وهو شابٌّ، واسمه مَرهوبُ الجانِب، وكُلُّ النَّاس تضرب به المَثَلَ في الشَّجاعَةِ

والقوَّة. كانت مُطارَدَة النِّساء هي هوايته الكبرى، وكم من مرَّةٍ قاد عصابَتَه إلى معركةٍ هائِلةٍ في سبيل امرأة!

كان أولاد الليل عمومًا من الوجوه المعروفة في مختلف «أحياء المومِسات» في مدن الصعيد، يُنفِقُ مُعظَمُهم جُزءًا كبيرًا من دخولهم على نساءِ منطقة البغاء.

في كلِّ مدينَةٍ من مدن الصَّعيد الكبرى كانت هناك «نقطة للمومِسات»، أو حيٌّ لهم، يَضُمُّ عِدَّةَ منازلَ، في كُلِّ منزلٍ «معَلِّمة» أو «عايِقة» (هكذا سمَّاها الأَمرُ العالي، الصَّادِرُ بتنظيم البغاء)، و«العايقة» هي مديرته وصاحِبَتُه، يَشتَغِلُ معها -ولحسابها- عَدَدٌ من البَغايا، بِرُخَصٍ رسميَّةٍ يمنحها لَهُنَّ البوليس.

وكانت نقطة المومسات في أسيوط معروفه باسم «الجنيزة»، اشتُهِرَت دون غيرها من أحياء البغاء في مراكز الصعيد بمغامراتِ التبذير في الهوى والمال والمخدِّرات، وذاع صيتُها كَوَكرٍ للمُجرمين والفتوَّات، ومَثارٍ دائِمٍ للمُشاجَرات والجَرائم.

في كلِّ أسبوع؛ كان أهالي أسيوط يُتابِعون موكِبَ المومسات الذي يخرج يومًا في الأسبوع من نقطتِهِنَّ إلى حيث يُوقَّع عليهنَّ الكشفُ الطِّبيُّ الذي يُؤكِّد خُلُوَهنَّ من الأمراض السِّرِّيَّة، ويَصِف الأستاذ يحيى حقِّي مَوكِبَهُنَّ الحزينَ والمُهينَ، فيقول: «... صامتاتٌ، لولا طرف فستان لبنيٍّ أو «بَمْبَه» من تحت ثيابِهِنَّ السُّودِ لَمَا فَطِنَ لَهُنَّ أحدٌ. رأيت الناس يتركونَهُنَّ لِحالِهِنَّ؛ لا تعليقات لهم؛ لا بِسُخرِيَةٍ ولا برثاء. هذا الموكب الذي أَلِفوا مُشاهَدَتَه هو عندهم «طقم شَغَّالة»؛ يُجاهِد في الحياةِ مثلهم».

وبين هؤلاء كانت سميرة عشيقة الخُطِّ!

كانت في ربيعها الخامس والعشرين. سمراء، فارعة الطُّول، قَوامُها نَشوانُ مُعَربِدٌ عَربدةً هامِسَةً؛ شَعرُها أسوَدُ فاحِمٌ، وعيونها -كعيونِ الخُطِّ- زَرقاءُ كَزُرقَةِ البَحرِ الهادِئ الصافي...

عَرفَها الخُطُّ في غزوةٍ من غزواته للجنيزة، وآثَرَها على غيرها، ثم استَأثَرَت به، والتقى بها بعد فترةٍ قصيرةٍ، وازداد اعتزازًا بها، وحُبًّا لها، لدرجة أنه كان يُنفِقُ عليها في الليلة الواحدة من ليالي غَرامِهما أكثرَ من ثلاثين جنيهًا، وذاع صيت سميرة باعتبارها عشيقةَ «زعيم أولاد الليل» المُدَلَّلة، المَرهوبَة الجانب، التي لا تشرب مع عشيقِها الكبير سوى الويسكي، ولا شيءَ غيره.

وأصبح الخُطُّ وجهًا محبوبًا بين وجوه رجال الليل الذي يغشون حيَّ البغاء؛ فهو من أجل عيون سميرة السمراء الزرقاء ينفق ذات اليمين، ويُبَعثِرُ ذاتَ الشِّمال، وينالُ الجَميعَ من خَيره نصيبٌ. وكانت الجنيزة أيَّامَها تعيش أيَّامَ عِزِّها الأخير، وسنواتِ المَجدِ المُوشِكِ على الأفول؛ إذ كان يتردَّد بشدة أن البغاء الرسميَّ سوف يُلغى، وأن الحكومةَ قَرَّرَت أن تُحافِظَ على الأخلاق بتخريب نقطة المومسات، وهو ما دفع بعضَ مَن امتهنوا أعمال الجنيزة المتنوِّعة للهجرة؛ بحثًا عن أعمال شريفةٍ ترضى عنها الحكومة!

وقرَّر هلال أفندي أن يُطبِّقَ الحِكمَةَ الفرنسيَّةَ لعلَّها تَقودُه للقَبضِ على الخُطِّ؛ الحِكمَة القائلة: «فتِّشْ عن المرأة»...

في ليلة من ليالي أكتوبر 1946 هبط من الجبل اثنان من أولاد الليلِ، وتَوجَّهَا على الفور إلى الجنيزة. دخَلَا أوَّلَ مَنزلٍ صادَفَهما؛ بيت «المعلِّمة» حياة. كان في يَدِ كُلٍّ منهما سلاحه؛ وَجْهاهُما مُغبَّران بما يُؤكِّد أنهما عائدان لِتوِّهما من اشتباكٍ مُسلَّحٍ ضَخم. رحَّبَت بهما «السِّت حياة»، تأمَّلَت ملابِسَهما؛ فَتأكَّد لها ظَنُّها؛ لقد جاء الرَّجُلان من معركةٍ، هكذا كان مُعظَم أولاد الليل؛ يأتون بغُبار المَعارِكِ ليشربوا، ويتمتَّعوا، وبعد مُناقَشةٍ قَصيرةٍ فَهمَت أنَّ الرَّجَلَيْن من رجال الليل، وأن عصابَتَهما فوق الجبل، وأن الشَّوقَ والمَلَلَ قد رمى بهما إلى أحضان «السِّتّ» ليُمضِّيَا لَيلةً يُريدانها واحدةً من ليالي العمر، لا يُحسَبُ فيها للمال حِسابٌ، تَجري الخَمرُ فيها كالنَّهر، ويَنِزُّ الشَّبَقُ فيها كالفَيَضان.

وأسنَدَ الرَّجُلان سِلاحَيْهِما إلى الحائطِ، وتَراجَعا إلى حيث استراح ظَهراهما لنعومة حشايا صُنِعَت على الحائط، بينما انصرفت المرأةُ تُعِدُّ مُعدَّات الليلة، وتُمنِّي نَفسَها بِرزقٍ مَوفورٍ يَليقُ بِنهر من الخمر، وفيضان من العشق!

وجاء الطعام والشراب، وبعد عِدَّة كؤوسٍ انفلتَ عِيارُ الرَّجُلَيْن؛ وتَلَفَّظ لساناهما بألفاظٍ من تلك التي لا يُجهِدُ الإنسانُ نَفسَه في اختيارها، ونظر أحدهما -وكان يتميَّز بِسِنَّةٍ ذَهبيَّةٍ في مُقدِّمَة فَمِه- للآخَرِ، ثم للسِّتّ... وقال:

- هُوَّ مَفيش حَدّ هنا غيرك؟

نَفَت المرأةُ، قالَت إن البيت خاصٌّ بها ؛ اقترح الرَّجُلُ ذو السِّنَّة الذَّهبيَّة أن تأتي بامرأة أخرى لكي تكونَ القِسمَةُ عادِلَةً. أكَّدَت المرأةُ أنَّها «قدَّها وقدود». عاد الرَّجُلُ ذو السِّنَّة الذَّهبيَّة يقول إنه سَمِعَ أن بالجنيزة بِنتًا جميلة اسمها سميرة، وبما أنها سمراء، وهو «يموت في السمراوات»؛ فهو يقترح استدعاءَها؛ لاستكمال أبَّهة السَّهرة!

نَظَرَت إليه السِّتّ حياة باستهزاءٍ وسُخريَةٍ، وقالَت:

- دي سميرة بعينَك!

- ليه بقى؟ مش قد المَقام؟!

عن سميرة «ملكة الجنيزة» تحدَّثَت حياة... هذه عشيقة الخُطِّ، لا تَتدنَّى لتصبح مَداسًا لأيِّ إنسان وهي عَشيقَةُ «سيد الرِّجَّالة»...

لم ييأسْ الرَّجُلان. وفي بيوت البغاء يَسهُل دائِمًا أن تَخرُجَ النُّقودُ، فتَحْسِم أعْقَدَ المُشكلات، وهذا ما حدث، وهو ما انتهى بأن خرجت الست حياة تُرَجرِجُ أردافها الوافِرَةَ، «وتطرقع» بقُبقابِها، مُؤكِّدَةً أنها ستسعى، وليس عليها إدراك النجاح... وغابت، وطال غيابها، وقلق الرَّجُلان، بَيْدَ أن المفاوضات نجَحَت في النهاية، ودخلت «السِّتّ» وفي صُحبتِها سميرة!

هذه هي سميرة!

- أصل سميرة مابتشربش غير ويسكي!

قال أحد الرَّجُلَيْن:

- يا سلام.. غالية والطَّلَب رخيص يا سِتّ سميرة...

وأخرَجَ من جيبه خمسة جنيهات ناوَلها للسِّت حياة، التي خرجت مَرَّةَ أخرى تَهزّ أردافها وتطرقع بقُبقابِها، واعِدَةً أن تَعودَ بالويسكي:

- هَوَا!

بعد هذه الإشارة الودِّيَّة تواضَعَت «ملكة الجنيزة»، وقَبِلَت أن تُسامِرَ الرُّجَلَيْن، وهي تتحدَّث مَدَّت يَدَها إلى أحد المدفَعَيْن المُسنَدَيْن إلى الحائط، وكان مدفعَ الشَّابِّ ذي السِّنَّة الذهبيَّة، فَحَصته بِدقَّةٍ، وسألَت عن بعض أجزاء فيه، ثم أعادَته في استخفافٍ، قائِلَةً:

- الظَّاهِر انِّكو لسَّه جُداد في الكار...

واستدرجها الشَّابُّ ذو السِّنَّةِ الذَّهبيَّة لِحديثٍ عن الخُطِّ، ويبدو أن فَخْرَها بعلاقَتِه بها كان يَضغَطُ على صدرها؛ وهكذا تَدفَّق الحَديثُ على لِسانِها سَهلًا، وبلا مجهود... تَحدَّثَت عن رُجولَتِه وفُحولَتِه، عن عِشقِهِ لها، واهتمامِه بها... عن الأخطار التي يتعرَّضُ لها لكي يقضي وقتًا معها، عن جسارَتِه وشَجاعَتِه، وقَلبِه الطَّيِّب، لدرجةٍ أنه يبكي إذا خاصَمَته، ويَسهَرُ إذا لَذَعَت الغيرةُ قَلبَه، وشعر الرَّجُلان أنهما لا يساويان شيئًا أمامَ الخُطِّ؛ سيد الرِّجال، وعشيق صاحبة الجلالة ملكة الجنيزة!

وبِفَتحِ زُجاجة الويسكي تَحسَّن الجَوُّ نِسبيًّا؛ شَرِبَت سميرة، وثَرثَرَت، وغَمَزَ أحدُ الرَّجُلَيْن بعينه قائِلًا بلهجةٍ خاصَّةٍ:

دا احنا حننبسط قوي الليلة دي...

قامَت سميرة بِدَفْعِه:

دا بُعْدَك...

عَلَّقَت السِّت حياة:

ماقُلتُلكو من الأوِّل.

ورَدًّا على نظراتهما الدَّهِشَة؛ قالت حياة إن سميرة عاهَدَت الخُطَّ ألَّا تَخونَه، وألَّا تتكَشِفَ على أي رَجُلٍ من رجال الليل مهمَا بلغ بَأسُه من الإجرام؛ ولذلك فعَلَيْهِما ألَّا يَأمَلَا في أيِّ انبساطٍ غَيرِ ما هو حادِثٌ الآن بالفعل.

تساءَل أَحدُ الرَّجُلَيْن في دهشة:

- يعني السِّت ما بتشتغلش!

قالت حياة إنها تشتغل؛ فهي تَستَقبِلُ مَن لَيسوا من أبناء الليل في منزلها؛ إنها جُزءٌ من مَوكِب الشَّغَّالة» الذي يَجهَدُ في الحياة... وهي «بنت كار»، ولا بُدَّ أن تأكُلَ لقمتها. إنها تَرفُضُ أبناءَ الليل لأنَّهم يعملون في نفس مِهنَة حبيبها، وهو يَلتقي بِهِم، ويَعرِفُهم؛ فَجَسَدُها لا ينبغي أن يُكشَفَ لهم، أمَّا غيرهم من الناس العاديِّين فإن أحدًا منهم لا تُحدِّثُه نَفسُه أن يكونَ مثلَ الخُطِّ؛ فلا حرجَ إذًا من أن تعطيه نفسها!

وبدا المنطق غريبًا على الرَّجُلَيْن، ولكنَّهما تَقبَّلاه و«أَمرهما لله»، وبينما كانا يُفكِّران في المسألة انحنَت سميرة علِى أحدِهما سائِلةً إيَّاه عن «فص أفيون»، فاعتذر بأنه لا يتعاطاه. نظَرَت إليه

سميرة باستخفافٍ، وتحدّثت عن الخَط الذي يأكل الأفيون كوَجبَةٍ غذائيَّة، وبِكمِّيَّة لا يَقوَى عليها مائة رَجُل، وعَدَّدَت بطولاتِ رَجُلِها الخُطِّ في مجالات الخمور التي لا تروي ظمأه منها حانةٌ بِكُلِّ ما فيها، وقالت:

- وحياتك قزازتين ويسكي وقرص أفيون ما يمسحوش زوره!

وانطلقت مَلِكة الجنيزة تسخر من مُحدِّثها الذي ما زال مُستَجَدًّا في عالم أولاد الليل: لا يتعاطى أفيونًا، ولا يشرب ويسكي، وسلاحه من طرازٍ عتيقٍ؛ ومع ذلك فهو يَوَدُّ أن يَعبَثَ حيث يتهجَّدُ زَعيمُه، وبين أَعمِدَةِ نَفسِ المِحراب!

وانصرفت عنه بعد أن «شدَّت عليه المسخرة»، وجعلته هُزأةَ الجلسة، والتفتت إلى زميله ذي السِّنَّة الذهبية؛ كان يبدو أكثرَ فَهلوةً من زميله: يتحرَّكُ بكَثْرةٍ، ويَغمزُ بِعَينِه... وتبادَلَت معه حديثًا قصيرًا... قال:

- ما تفرَّجينا الرقص اللي على أصله يا سَمارة!

وبعد تَمَنُّعٍ قصيرٍ، ورجاءٍ طويل قامَت المَلِكَة لترقُصَ على نقراتِ أصابِعِ السِّتّ حياة على المنضَدَة، وتصفيق الرَّجُلَيْن...

كانا قد سَكِرَا تَمامًا، لدرجة أنهما نَسِيَا نَفْسَيْهِما، ووسطَ الضَّجَّةِ والصُّراخ، والتَّراقُص السَّريع، ولطشة الويسكي، وتَثَنِّي الجسد الرَّخْصِ الجميل، وتَهَدُّلِ شلَّالِ الشَّعرِ الأسودِ الحالِك فوقَ الصَّدر اللَّيِّن، وبَريقِ العيون الزَّرقاء بنشوةِ الخمر والرقص- وسط كُلِّ هذا قال الرَّجُلُ ذو السِّنَّة الذهبية شيئًا... كلمةً ما، لم يَلتَقِطها أحدٌ، لكنْ أُذُنا سميرة التقتطها.

فوُجِئَ الرَّجُلان بسميرة تتوقَّف عن الرقص، وتلتقط مدفعًا من مدفعَيْهما، وتَقفِزُ به على بُعدِ مِترٍ منهما، وتُصوِّبه إلى صدرَيْهما، وهي تقول بصوتٍ قاسٍ:

- كشَفت سِرُّكم يا ولاد الكلب.. انتوا جايِّين ورا الخُطّ.. بوليس.. مش كده؟!

لقد عَرفَت سميرة أن ابنَيْ اللَّيل هُما المُلازِم أوَّل محمد السعيد هلال قائِد فرقَة الموت، والمُلازِم أوَّل حامد عبد الله؛ قائِدُها الثاني، وتَحرَّجَ المُوقِفُ، وجاهَدَ الضَّابِطان لانتشالِ ذِهنَيْهِما من مَوقِفِهِما الرَّهيبِ. كانا غارقَيْن تمامًا في الويسكي والرَّقص، وسارَعَت السِّت حياة فتدخَّلَت مهروِلَةً. كانت سميرة قد تَنمَّرَت، فَبَدَت كَلَبُوَةٍ غاضِبَةٍ، وشَعَّت عيناها الزرقاوان بريقًا لا يرحم. قالت حياة:

- سميرة.. وحياة الخُطّ.. وغلاوته.. إرمي الداهية اللي في إيدك دي.. ما تجبيش لنا داهية.

قالَتها بلهجَةٍ خاصَّةٍ، لا تقولها إلا أُنثى لأنثى، كأنَّها تُريد أن تَمتَحِنَ حُبَّ سميرة للخُطِّ، و«غلاوته» عندها... وصمتت سميرة، تجمَّدَت أصابِعُها على زناد المدفع، وعادَت حياة تُكرِّر رجاءَها:

- أنا بَحَلِّفك بغلاوة الخُط...

مَرَّت اللحظة الثقيلة مَشحونَةً. هدَأَت نَظراتُ سميرة. صَوَّبَت إليهما نظرةَ عتاب من بَحرِ عَينَيْها السَّاكِن، تَعتِبُ عليهما ظَنَّهما أنها يُمكِنُ أن تَخونَ حبيبَها أو تُسلِّمه، ثُمَّ ألقَت المدفعَ إلى جوارِ الحائِطِ

كما كان، واستدارَت خارِجَة...

***

في الوقت الذي كان فيه قائِدًا فرقة المُطارَدة يقضيانِ الوقتَ مع عشيقة الخُطِّ كان هو يَشنُّ غارةً قاسِيةً على بلدة اسمها «دكران»، بمركز «أبو تيج»، وأسفَرَت الغارَة عن بعض القتلى.

ووجد المُلازمان عند عَودتهما إلى لوكاندة الشامي إشارة بالحادث بمقرِّهما، ووجدا تأشيرةً بِخَطِّ حِكمدار أسيوط، نصُّها: «تنتقل فرقة المُطارَدة لحضور التَّحقيق»...

جاوَزَت الساعَةُ وقتَها الثالثةَ صباحًا وهما مَخموران مُنهَكان، بعد نهارٍ شاقٍّ فوقَ الجبل، وساعاتٍ متوتِّرَةٍ قَضَياها في بيت السِّت حياة... وكان لا بُدَّ من قيام أحدهما على رأس الفرقة، وتَبادَلَا نَظراتٍ مُجهَدة، ثم اتَّفقا على أن يَترُكَا للقُرعَةِ أن تختار، وإذ اختارت القرعة حامد عبد الله انصرف مُسرِعًا، بنفس السُّرعَة التي قادت محمد هلال إلى فِراشِه، يَغُطُّ في نومٍ عميق...

وبدأت فرقة المطارَدة بمجرَّد وصولها إلى دكران حملةً تفتيشيَّةً واسِعةً عن الخُطِّ...

وعاد حامد عبد الله قبل الظُّهر، كان هلال ما زال نائِمًا، استيقَظَ على يَدٍ تَهزُّه بشدَّة، رَفَعَ الغِطاءَ عن وجهه، اكتشف أنه زميله، أعاد الغطاء على وَجهِه وقال:

يا أخي نام... وخَلِّي الناس تنام...

صَحّ النُّوم... يظهر إنِّي قَتَلت الخُط...

في اللحظة التالية كان هلال قد استيقظ تمامًا، انهال على زَميلِه بالقُبلاتِ، فأوقفه قائِلًا:

- باقول لك الظَّاهِر...

لا... إنت مُتأكِّد... قول إنَّك مُتأكِّد.. إحكي لي قَتَلته ازَّاي؟!

وبدأ حامد يروي... فأثناء عودته بالفرقَةِ بعد إنهاء التَّحقيق في حادث دكران رأى على مَدَى البَصر رأسًا وسطَ مياهِ الحَوض، وكانت يَدُه مَرفوعَةً ببندقيَّةٍ، عرف كيف يحميها من الماءِ بِمهارَةِ كَلبِ البحر المُدرَّب، وبدأ حامد يترصَّدُ الرأسَ لاصطيادها، ولكنَّ الشَّقيَّ كان يملك عينَيْ صقر... تَفاجَأ الضَّابِطُ برصاصاتٍ سريعَةٍ مَرَقَت بجانبه، وتَبادَلا إطلاقَ الرَّصاص، أخطَأته الرَّصاصَةُ الأولى، لكن الثَّانية استقرَّت في رأسِه، فاختفى في مياه الحَوضِ...

ولكنَّ الرأس -كالعادة- لم تَكُن رأسَ الخُطِّ!

كانت الرأسُ لواحِدٍ من أفراد عصابَتِه، هو عبد الحفيظ سالم، كان هاربًا من حُكم بالأشغال الشَّاقَّة المُؤبَّدة، وقد قاده حَظُّه الأسودُ للهَرَبِ من الحملة التفتيشية؛ فنزل إلى الحَوضِ سابِحًا إلى ماكينة مياه ليَختَبِئَ بها، فاقتنصته رصاصاتُ حامد عبد الله.

على أن حملة دكران لم تَعُد خائبَةً على أيِّ الأحوال؛ فبخلاف عبد الحفيظ فإنَّ الفرقةَ طارَدَت في الجَبَلِ عَددًا من الأفراد، وتَمَكَّنَت من اصطياد جعيدي عبد المحسن، ابن أخت الخُطِّ، وواحد من أشرس أفراد عصابته.

ما أكثر الرَّصاص الذي يُطلق وراءَ ابن الليلِ الهاربِ، وما أقل ذلك الذي يصيب عِصابَتَه... وهاهو قد طاش كُلُّه، فَلَم تُصِبْه هو شخصيًّا ولا رصاصة؛ فَهل أصبحَ الأمرُ مُيئِسًا إلى هذه الدَّرجَة!

هل هو الخُطُّ.. أم هو الحظُّ، كما أسماه صاحِبُ الجَلالَة؟!

الفصل الثامن

المُخابَراتُ البريطانيَّةُ تَدخُلُ المَعرَكَة...

إذا كان الخُطُّ قد نجا من رصاص مُطارِديه، فلم يُصِبْه في مَقتَلٍ في جزء من جَسدِه؛ فإن هذا الرصاصَ قد أصابه في مَقاتِلَ أخرى، حيث لم يَقصِدْ المُطارِدون، ولم يَتخيَّلوه؛ ذلك أن حالة الحصار التي وجد نَفسَه أسيرًا لها قد قادَته من حيثُ لا يُريدُ إلى تدميرِ نَفسِه، فكُلَّما ازداد الحصارُ حوله؛ ازداد هو تَوتُّرًا، وفَقَدَ تقديرَه الجَيِّدَ للأمور؛ فطاش رَصاصُه، وأصابَ حَيثُ لم يَكُن يُصيبُ قبلَ ذلك، وحيث كان يَجِبُ ألَّا يُصيبَ في أيِّ وقت!

لقد بنى مُعظَمُ أولاد الليل شُهرَتَهم على أنهم يدخلون معاركَ مُحدَّدةً، ضدَّ أفراد مُحدَّدين. إنهم لا يريدون من الفُقراء شيئًا، وليس بينهم وبين ما لم يَملِكوا عداءٌ؛ فَهُم جميعًا أبناء ذلك القهر الاجتماعي المُركَّز، وعُنفُهم يُعَدُّ نوعًا من «العُنف المُرتَدِّ». لقد وُضِعوا -غالبًا- تحتَ ضغوطٍ فَوقَ ما تَتحمَّله طاقَتُهُم البشرِيَّة، وانطلق رصاصهم ليواجِهَ لَحظَةً، لو لم يُواجِهوها لانهاروا تمامًا كبَشَرٍ، ولَفَقدوا احترامَهم لأنفُسِهم، وتلك حالَةٌ يَصعُبُ قَبولُها في الصَّعيد، حيثُ آثار تقاليد القبائل القديمةً ما زالت سارية، وحيث تتحدَّد المَكانَةُ الاجتماعيَّةُ على أساس من الاعتزاز بالذات، والحفاظ على الكرامَة الفرديَّة، وكان كثيرون من أبناء اللَّيل يُشبِهون فرسان العُصورِ الوُسطَى، فما بأيديهم ليس مُلكَهم، وعطاياهم للمُحتاجين أكثرُ من أن تُحصَى، بل إنَّ بعضَهم كان يأخذ بثأرِ الفُقراءِ مَجَّانًا. ومن الروايات المتواتِرَة بكثرَةٍ، والتي تُروَى عن بعضهم، أن أرمَلةً فقيرةً ذَهَبَت «تُقاوِلُ» أحدَهم على أن يأخذ لها بثأر زَوجِها الذي قَتَلَه «سيِّدُه» الغنيُّ، القادِر، وعَرَضَت أن تبيع عَنزةً -هي كل ما ترك زَوجُها المُغتالُ- من الميراث؛ لتعطيه أجرَه عن القَتل، وأشفَقَ ابن اللَّيل على حالها، وطلب منها أن تحفظ عليها عنزتها؛ وأخذ لها بثأرها مِمَّن اغتال زَوجَها مجَّانًا، ولوجه الله!

وربَّما كان واحدًا من أهم الأسباب التي أبقَت أولاد الليل ودَعَّمَت نفوذَهم؛ هو أنهم -كالفتوَّات في المدن- عاشوا دائمًا في بحرٍ من الحماية الواسعة، فَرَضَها عليهم كلُّ الفُقراءِ الَّذين ليسوا طَرَفًا في المُشكِلَة، وصحيحٌ أن الخوف كان عامِلًا من العوامل التي صَنَعَت موقِفَ الفُقراء ذلك أحيانًا، ولكنه لم يكن كذلك دائما؛ ذلك أن الظاهرةِ في الواقع أعمقُ من هذا، والعَلاقَةُ بين الفُقراءِ وبين أبناءِ اللَّيلِ هي تلك النُّقطة التي طاشَت عندها كلُّ رَصاصاتِ البوليس، والتَّضحِيَة بهذه العَلاقَة، وفَصْمِ هذا التَّحالُف هو الذي يُنهي حياةَ أولاد الليل ويَقضي عليهم... وقد يكون من الصحيح أن تقول إنَّ تحالُفَ أولاد الليل مع الأعيان هو الذي كان يقوم أحيانًا على الخوف، وأحيانًا على التَّعاوُن النَّاجِم عن الخَوف.

لكن علاقة أولاد الليل بالفقراء كانت دائِمًا علاقَةَ حُبٍّ مُتبادَل. كان البُسطاءُ من الناس يَجِدون في عُنفِهم ضدَّ المُتجبِّرين والطُّغاة نَوعًا من التَّعويض عن عُنفِهم المَكبوتِ، وعن فِعْلِهِم المُحبَط. ربَّما نالَتهم مِنهم أحيانًا بعضُ العَطايا، لكنَّهم حتى لو لم يأخذوا شيئًا فَهُم يَكتَفون بذلك التَّعويضِ النَّفسيِّ الَّذي يَجِدونَه عندما يَذِلُّ أولادُ الليل هَيبةَ الكبارِ والأغنياء ولُصوص العَرَق.

وأيَّامَها كان الفقراءُ والأجَراءُ يَشعرون -شعورًا مُكثفًا- بأنّ البوليس برَصاصِه لا يَحميهم؛ إنه يَحمي -فَحسبُ- اللصوصَ الَّذين يسرقون عَرَقَهم... إن جَهدَهم البشريَّ كُلَّه يُسفَحُ، ويُبتَذَلُ، ويُجازَون على عَمِلِهم لَطماتٍ، ويَقبضون ثَمَنَهم إهاناتٍ. لم يتدخَّل البوليسُ لِردِّ حَقٍّ ضاع عليهم، أو للحفاظ على كرامَةٍ أُهينَت، العَكسُ هو ما يحدث؛ في غُرَف «الحجز» في المراكز، و«النُّقط» كانوا يُحبَسون، ويُجبَرون على شُربِ «بول الخيل»، ويَصعَقُهم العَساكِرُ، ويَحلِقون لهم شَوارِبَهم. إذا رفع أَحَدُهم صَوتَه وطالَبَ بِحَقٍّ فإنَّ مالِكَ الأرض يَعتَبِرُ نُقطَةَ البوليس كجُزءٍ من قَصرِه؛ تَعملُ لحسابه، والذين يعملون فيها هُم عُملاؤه المباشِرون، يَتقاضون منه رشاوى وهدايا، ويسهرون في قَصرِه، ويأكلون على موائده، ويتَكفَّلون دائِمًا باستخدام سُلطاتِهم في تأديبِ كُلِّ مَن يَتجاسَرُ ويَرفَعُ صوتَه في وجه أسياده.

وكان البوليس قد أدرك خلال الانقلابات الدستوريَّة المُتوالِيَة التي حدَثَت في مصر، والتي كانَت تُعلي من سُلطَةِ «الإدارة» فوق سُلطَة القَضاء وفوق البرلمان- أدرك ضُبَّاطُ البوليس من هذا أنَّهم الحُكَّامُ الثَّابِتون والدَّائمون. إن وزاراتٍ تأتي وتذهب، والدستور يُطبَّقُ عامًا ويَذهَب خَمسة، وفَقَدوا لذلك أيَّ إحساسٍ بأنَّهم تحتَ رَقابَةٍ؛ فتحوَّلوا بوَلائِهم إلى الذين يملكون نَفْعَهم نَفعًا مُباشِرًا وحَيًّا، يأكلون على موائِدِ الباشاوات، ويَقبَلون رشاويهم، ويسعون لمُصاهَرَتِهم، وفي مقابل هذا كُلِّه يُنفِّذون لهم ما يشاؤون...

وكما صنع ضُبَّاطُ البوليس مَنطقَهم، فإن ضحاياهم أصبح لهم مَنطقٌ مُقابِل...

وكان منطِقُ الفُقراءِ -على سَذاجَتِه وتلقائيَّتِه، وتعقيد أسبابه- هو أرقى أشكال الوعي الاجتماعيِّ بواقِعِهم؛ فالدَّولةُ، ببوليسها، وجيشها، وقَضائها- هي دولةُ الأعيانِ، والمَعركَةُ هي بين هؤلاء وبين أولاد الليل؛ فما شأننا نحن بها؟ إن أحدًا لا يتطرَّق إلينا بسوء... وأولاد الليل في النهاية «أبناءُ شَقاءٍ»، يُكابِدون من أجل انتزاع لُقمَتِهم من تُخمَةِ الوحوش، الذين يملكون عشرات الآلاف من الأفدِنَة، بينما تَنتَشِرُ المَلاريا، والحُمَّى الراجعة، والبلاجرا في كُلِّ أنحاء الصعيد!

ولكنَّ الظُّروفَ كانت تَتغيَّر تَدريجيًّا على جَبهَة الخُطِّ!

لقد مات عوَّاد؛ عقله، ومُفتِي عصابته، وكان يلعب دَورًا خطيرًا في حياته وحياة العصابة؛ كان زعيمها الرُّوحيَّ، ومُفتيها، ومُنَظِّرَها، وراسِمَ خُطَطِها... إنه هو الذي يُفتي بمن تَحِلُّ أموالُه للعصابة؛ لأنها كثيرة، أكثرُ من أن يَحتَمِلَها وَحده، ومَن لا تَحِلُّ؛ لأنَّها «يا دوبك» تَكفيه. وهو الذي كان يُحدِّد الأعداء والأصدقاء، ويرسم التحالُفات، ويُقوِّي الرجال، ويُثَبِّتُ قُلوبَهم الواجِفَة، ويَعِظُهم بالقُرآن والأحاديث؛ لكي يحافظوا على وحدتهم وتماسُكِهم، ويواجهوا أعداءَهم صَفًّا واحدًا.

وبعد عوَّاد سَقَطَ كثيرون: عبد الحفيظ، وجعيدي، وتمَّام... وانفضَّ آخرون؛ خَوفًا أو جَزعًا، ولم يَبقَ سوى صالحين، و«مشعال»، الولد الأسمر السُّودانيِّ، الذي حَمَل للعِصابَةِ كُلَّ عُنفِ أحراش الجنوب، ودَمويَّةِ الإنسان البدائيِّ. ليس هذا فَقَط؛ بل الخُطُّ نَفسه بدأت تَغلبُه طبيعَتُه الانفعاليَّة، وبدأ رَصاصُ العصابَةِ يَتَّجِهُ إلى فقراء ومساكين، ليس لهم «في الطُّور.. ولا في الطحين»!

كان أولاد اللَّيلِ يبدأون حياتهم كما لو كانوا امتدادًا طبيعيًّا لزمن الصَّعلَكَةِ والفُتوَّة عند العرب، عندما كان الفِتيانُ يُحارِبون من أجل الفقراء؛ يَهبِطون على الأغنياء فيسلبونهم ما زاد عن حاجاتِهم،

فيوزِّعونه على الذين تَقتلهم الحاجَة، وتَذِلهم المَسكنَة.

على أن مشكلتهم الحقيقيَّة كانت تبدأ عادةً عندما يَقودُهم تَعقيدُ الحياة إلى حيث يختلط الحابِلُ بالنَّابِل، والصَّديقُ بالعَدوِّ، ويُصيبُ الرَّصاصُ حيث يَجِبُ ألَّا يُصيب. لأنَّ عُنفَهم كان تلقائيًّا، ينطلق من انفجار انفعالات ذاتِيَّةٍ في الغالب؛ فقَد كان يَفقِدُ مع الِحصارِ اتِّجاهَه، ويَرتَبِكُ، وتَتشابَهُ مَلامِحُ العَدوِّ الكريهة مع قَسَماتِ الصَّديق المُشتاقِ!

على قِمَّة الجَبَل، حيث الإنسان وحيدٌ إلَّا من الأفيون والزَّبيب، والليل، والبندقية، والمُطاردين من كُلِّ صنفٍ؛ في هذه العُزلَةِ القاسِيَة كان أولاد الليل يفتقدون الطَّريقَ، ويضلُّون الغايَةَ، يُعزَلون عن قواعِدِهم، وعن رموز المُقاوَمة التي يُمثِّلونها؛ فينتَهون في الغالِب إلى مُجرمين حَقيقيِّين...

واللحظة التي يتحوَّل فيها ابنُ الليل من رمزٍ للتَّمرُّد على مجتمعٍ فاسِدٍ، مُجتَمعٍ يَنوءُ بِكُلِّ عُنفِه على عاتِقِ الَّذين يَجهَدون ويَعرَقون في الحياة- إلى مُجرَّد «مجرم عاديٍّ»؛ لهي تلك اللحظة التي يُحاصَر فيها تمامًا، هُنا يُصبِحُ إنقاذُ الذَّات هو الأساس، ولا يُفرِّق الرَّصاصُ بين الصَّديق والعَدوِّ، ولا بين المُجرمِ والضَّحيَّة. إن لحظات الحِصارِ لم تُصِبْ -فَحسبُ- أولادَ الليل؛ هؤلاء الذين يَعتَبِرُهم القانون «مَجرمين جِنائيِّين»، ولكنَّها أصابَت أيضًا آخرين، كان القانونُ يَعتَبِرُهم «مُجرمين سياسيِّين»، وتكاد التَّأثيراتُ التي أحدَثَتها لحظاتُ الحِصارِ في أبناء الليل تكاد تكون نفسَ التأثيرات التي أحدَثَتها في المُناضِلين السياسيِّين؛ هؤلاء الذين رَفَعوا السِّلاحَ، لا ليتقاضوا إتاواتٍ، أو يَحصُلوا على فِدْيةِ مَخطوفٍ، ولكن ليُحرِّروا وَطَنَهم المُحتَلَّ والمُستَذَلَّ. وتُعطينا المُذكِّراتُ السياسيَّةُ المُمتازة الَّتي كتبها «وسيم خالد» صورةً دقيقةً عن سَيكولوچية المُقاتِل السِّياسِيِّ الفَردِ في نَفس هذه المَرحَلَة...

وهؤلاء شعروا ببؤس الناس في قلوبهم، إلى الدرجة التي حملوا معها السلاح ليقاتلوا من أجلهم، وتحولوا وهم ما كادو يخلعون البنطلون القصير إلى رجال يستطيعون نفسيا ان يضغطوا التتك ليزهقوا الروح البشرية وكانَت هذه المَجموعاتُ تَنطَلِقُ أيضًا -كأولادِ الليل- إلى الجبال؛ ففي جَبَلِ المُقطَّم كانوا يتدرَّبون على إطلاق النَّار، وبين نُتوءاتِه راحوا يكتشفون المَغاراتِ المَجهولةَ في شِعابِ الجَبَلِ، يُخفون فيها أسلِحَتَهم، ويَشحَذون فيها قُدرَتَهم على إطلاق الرَّصاصِ، وعلى سَحْبِ أمانِ القُنبلَةِ، ويَنقَضُّون على السَّاسَةِ الخَوَنَة، وعلى جُنودِ الاحتلالِ؛ هؤلاء الَّذين يَمتَهِنون كرامَةَ مِصرَ كُلِّها، فَيسلبونهم حياتهم.

أيَّامَها شَهِدَت مصرُ نماذِجَ غريبةً من أبنائها؛ شباب صغار في مرحلة الحلم، يتجاوزون بِكُلِّ قسوَةٍ مَرحلةً كامِلَةً من أعمارهم، ويقفزون من الطفولة إلى الرُّجولَةِ مَرَّةً واحدة، يستحِمُّون بالدم، ويعرفون السُّجونَ وهم لم يُغادِروا مقاعِدَ الدَّرس، وتَنبُت شَوارِبُهم في ظلام الزنازين.

وعندما ذهبوا بكل خَيرهم وشَرِّهم، تركوا ظواهِرَ غريبةً للتَّحليلِ والدَّرس والفَهمِ، وحصيلةُ حياتِهم المُضطربة تَطرَحُ نَفسَها في نَمطَيْن غَريبَيْن من السُّلوك:

الأول: هو ذلك الانهيار الغريب الذي أصاب معظم أفراد هذه المجموعة، فبِمُجرَّد وقوعهم في يَدِ البوليس تَحوَّل بعضُهم إلى «معترف محترف» يُفضي للمُحقِّق بكل ما لديه عن نفسه، وعن زُملائِه، بدرجة يصبح فيها جزءًا من نفس الجهاز الفتَّاك الَّذي كان يُوجِّهُ عُنفَه ضدَّه. واعترف

آخرون على أنفسِهم فقط كنوعٍ من التكفير، أو الاستنامَةِ إلى «القضاءِ والقدر»، بِحِسٍّ صُوفيٍّ مُشوَّش.

وكان وراء هذا النمط من السلوك ذلك «التَّوحُّش الفردي»، أو الإحساس الشديد بالتَّفرُّد، والوَحشَة والغُربَة في نفس العالَم؛ ذلك أن مُعظَمَ هذه الجَماعاتِ لم تَكُن تُمارِس عَمَلًا يعبر بها إلى براح العالم الواسع، وازداد تبعًا لهذا انغلاقها على نفسها ووحدتها، وقادت هذه الوحدةُ إلى شكلٍ من أشكال الهَوَس بالذات، والإعجاب الشديد بالنفس، إلى حدٍّ يَصِلُ إلى جنون العَظَمَة، وهو نفسه الذي قاد إلى الانهيار الكامل عندما أُطبِقَت الأسوار على هذه النماذج؛ فعانت الوحدة الفردية، الأَضيَقَ تمامًا من وحدة المجموعات أو الحلقات...

لحظَتَها -كما يسجِّل وسيم خالد، راويًا كيف انهار زعيم هذه المجموعة- «يفور فيه الغُرورُ الرَّهيب، الذي لا يُفلِتُ من درجاته المُختَلِفَة مَن ذاق دماءَ البَشَر، ويعطي لنفسه أكثرَ من قيمَتِها، ويستخدم هذه المبالَغَة لِتَغطِيَة نفسه أمام نفسه؛ إذ قرَّر أن يُطاوِعَهم -ولو جزئيًّا- للإفلات من الشَّنق، وتتركز الدنيا في كيانه، وفي خوفه من شبح المشنقة الرهيب، وكأنَّ المهمَّ هو أن يَخرُجَ ليُقاتِلَ مرَّةً أخرى، وكأنَّه لا يوجد مَن سيُقاتِل غيره، وكأنَّ الأمَّهات قد عَقِمنَ، ولن يَلِدنَ رِجالًا غيره».

أمَّا الثاني فهو الولوغُ في الدَّم إلى درجةٍ من العُنف المُجرَّد الذي لا يرتَبِطُ بأيِّ قضيَّةٍ، وهو نَمَطٌ من السُّلوك يَتولَّد ضدَّ الآخر من الغرور الشَّديد، الذي بدوره من العُزلَة والوَحشةِ والتَّفرُّد، التي تقود إلى الرَّغبَة في حماية الذَّات، فهناك -كما يقول وسيم خالد- «خيطٌ واهٍ جدًّا، قد يتعذَّر الاحتفاظُ به، يَفصِلُ بينَ نَفسيَّةِ المُقاتِل والسَّفَّاح، الذي يُمكِنُ أن يتحوَّل إليه». وكثيرًا ما تعقَّدَت الأمور واختلطَت لدرجة أنَّ بعض المُقاتِلين شارَكوا في اغتيال زُملائِهم عندما شَكُّوا في سلوكهم، شكوك ساذجة ترتبط إمَّا بإخلاصهم للتَّنظيم أو الحلقة، أو بعلاقتهم بزُملائِهم. ويروي وسيم خالد أن أحد زُملائِه قد فاجأه مَرَّةً بأنه فكَّر في قَتْلِه عندما شَكَّ أنه على علاقةٍ بإحدى قريباته، واعترف بأنَّه دبَّر عمليَّةً لقتل اثنين من زُملائِه عندما شَكَّ في أنهما أبلغا البوليس ببعض المَعلومات، وحَدَّد لهما مَوعدًا في الجَبَلِ لتنفيذ العمليَّة، ولولا أنهما تخلَّفا لوَلَغ في دم زُملائِه بقسوة!

وكان طبيعيًّا أن يتحوَّل هذا السلوك إلى نوعٍ من العنف المُجرَّد؛ فكثيرًا ما فجَّر مُقاتِلون سياسيُّون القَنابِلَ في تَجمُّعاتٍ مَدنيَّةٍ، وقتلوا أطفالًا وأبرياء.

والواقع أن هذا الشكل من العنف قد انتهى بتدمير المشتركين فيه، ومن هنا وعى وسيم خالد حقيقةً أساسيَّةً في هذه النماذج «سيُقضَى عليها في الصراع نفسه، وسيَنشَأ جيلٌ جديد يَستطيع أن يقومَ بعملية بناء الوطن».

وكان من الطبيعي أن يحدث هذا؛ بما أن هذه المجموعات تدور في إطار «الحلقية» المحدود، ولا تشتَرِكُ في عمل إنسانيٍّ رحيب، فمِمَّا لا شكَّ فيه أننا لا نَجِدُ هذه الظَّواهِرَ النَّفسيَّةَ لدى الأفراد الذين انتموا إلى حركات المُقاوَمَة ضد النازيَّة في مختلف بلاد أوروبا طوال الحرب العالمية الثانية، والفَرقُ هنا هو في رَحابَةِ العمل، وجَماهيريَّتِه، تلك التي تُثري دائِمًا القضيَّةَ التي يُقاتِل من أجلها المُقاتلون.

والخيط الواهن بين العنف الذي كان الخَط يُمارسه ضدّ القوى التي فرَضَت أن يُقاتِلها، وأجبَرَته -بلطمة كفِّ عبد الله بن محمدين- على أن يكونَ ابنَ لَيلٍ، وبين ما انتهى إليه- قد انقطع؛ لأن العُنفَ يَتوالَدُ ذاتيًّا كخَلايا السَّرَطان. إنه يتوالَدُ من مَظلَّةِ الغُربَةِ الشَّديدة، والوحدَةِ القاسِيَة، والوَحشَة فوق قِمَمِ الجبال، وفي كهوف ومغارات الليل...

ولقد انتهى عُنفُ الخُطِّ إلى أن أصبح عُنفًا مُجرَّدًا، وتَوَجَّهَ رَصاصُه إلى كُلِّ الناس بلا تمييزٍ، إلى الدرجة التي أصبح فيها الإنسان -من حيث هو «نوع»- هدفًا له، وكان ذلك مَقتَلَه الحقيقيَّ، الذي حَقَّقَه مُطارِدُوه، حيثُ لم يقصِدوا تَحقيقَه!

ومع ازدياد جبهة العداء ضدَّه، وضع الخُطُّ يدَه لأوَّلِ مَرَّةٍ في حياته الإجراميَّة في يد أعدائه ومُنافِسيه من أولاد الليل. كانت المنافسات الشَّرِسَةُ بينهم قد أضعَفَتهم جميعًا، وكان لا بُدَّ مع عُنفِ المُطارَدَةِ أن يَتَقوُّوا بالوحدة بينهم؛ وهكذا عقدوا حِلفًا، تعاهَدوا بِمُقتَضاه على أن يكونوا يدًا واحدةً ضدَّ البوليس، واتَّفقوا على أن يكونوا يدًا واحدة ضدَّ فرقَةِ المُطارَدة وضِدَّ الحكومة، وأن يقاوِموا المَوتَ الذي كان يُحيطُ بهم كالسُّوار بالمعصم...

ووضَعَ الخُطُّ يَدَه في يد «الأعمى»، و«أبو تمام»، و«أبو تمرة» و«أبو هاشم»، كما وضع يده في يد «أحمد عبد الغفار»؛ قُرصان النيل، وزعيم العصابة البحريَّة، وعدوِّه اللَّدود!

وفي تلك الفترة تحرَّكت أكثرُ من جِهَةٍ ضدَّ أولاد الليل!

وكان أغرب هذه التحرُّكات هو تَحرُّك المخابرات البريطانية، ففي إحدى الأمسيات استدعى عزيز باشا أباظة مدير أسيوط المُلازِمَ محمد السعيد هلال، وأخبره أن مدير المعهد البريطاني اتَّصل به تليفونيًّا، وأخبره أنه يُؤكِّد أن عصابَةَ أحمد عبد الغفار سَتَصِلُ عن طريق النِّيل إلى عزبة «دير القصير» في الساعة السادسة صباح اليوم التالي، ولم يَقُل المُديرُ البريطانيُّ شيئًا أكثر من هذا.

والمعهد البريطاني -في أساسِه- بَعثَةُ تبشيرٍ بريطانيَّة، نَزَلَت أسيوطَ أصلًا لتدعو أقباطها -ومعظمهم من الأرثوذوكس- لِتَركِ مَذهَبِهم، واعتناقِ «البروتستانتية»؛ المذهب المنتشر في انجلترا، وهو ما كان مَثارَ احتجاج البطريركيَّةِ المصرية، وانتهت البَعثَةُ إلى إنشاءِ مدارس للتَّعليم والتَّثقيف، لكنِ إخباريَّتَها عن أحمد عبد الغفار تكشف عن جُزءٍ من النشاط الخفيِّ الذي كانت تقوم به، والذي لا شَكَّ في أنه كان يَتَّسِعُ ليشملَ اهتماماتٍ أخرى: سياسيَّة واجتماعيَّة...

والواقع أن الاستعمار البريطانيَّ لم يَكُن ينظر بِعَينِ الارتياح لِكُلِّ مَظاهر مَوجَةِ العُنفِ، بِشِقَّيْها: السياسيِّ والجنائي، ولعلَّ الجَوَّ النفسيَّ الذي كانت تُثيره هذه الموجَةُ هو الذي جعل البريطانيِّين يَخشَون آثارها على النفس المصرية بشكل عام، وكانت فِكرَتُهم الأساسية أن استقرار الحُكم المصريِّ -بتركيبته التي كانت قائِمَةً آنذاك- هو الضَّمانُ الوحيد لوجودهم، وكانوا يُدرِكون أن العنف كالمَرض الوبائي؛ يَسهُلُ انتشاره، وهو يهزُّ الإحساسَ بهَيبَةِ التَّركيبة الاجتماعية، والثِّقَة في استمرارها.

وقامت فِرقةُ الموتِ كامِلَةً وراءَ إخباريَّةِ مدير المعهد البريطاني. ارتدى أفراد الفرقة الملابسَ البلديَّة، وتَسلَّحوا بكُلِّ أسلحتهم، وحَمَلَتهم مركبٌ شراعيَّةٌ عبر مُسطَّح الحوض الرَّهيب لمُدَّةِ ساعَتَيْن مُتَّصِلَتَيْن، ثم رَسَت بهم عند سفح الجبل المُشرِف على عزبة «دير القَصير».

كان أحمد عبد الغفار قد أصبح مَصدرَ رُعبٍ وهَلعٍ لِكل أعيان ديروط والقرى المجاورة، وتَزايَدَت جرائِمُه الوَحشيَّةُ، واقترَنَت بالقَتلِ والسَّرقَة بالإكراه والخطف، وأصبح يَرتَكِبُ جرائِمَه في رابعة النهار، وكان قد شَدَّد هَجماتِه في الأسبوع السابق على هذا التاريخ بصورة مُزعِجَة!

وبرغم كُلِّ مَشاغِلِه، فإن أحمد عبد الغفار لم يَنقَطِعْ لحظةً عن الاهتمام بعروسه الجديدة، التي تَزوَّجها في دير القصير، كان يَرتَحِلُ إليها بين الحين والآخر في مركب شراعية، تَعبُرُ به الحَوضَ، وترسو به عند قاعِدَة الجبل، فيَخرُجُ إلى دار عَروسِه، ويقضي معها ساعات من شهر العسل...

ووزَّعت فرقَةُ المُطارَدَةِ نَفسَها على ثلاث مجموعات بين سفح الجبل وقِمَّته، وشَدَّد عليهم محمد هلال بألَّا يتكلَّموا، ولا يُدخِّنوا، وألَّا يُطلِقَ أحدُهم رَصاصةً واحدةً إلَّا بعد أن يُطلِقَ هو رَصاصَ مدفعه الرَّشَّاش، حتى ولو شاهدوا العصابَةَ تَدخُلُ لِدائِرَة خَطِّ النَّار.


فرقة الموت وراء «الخط» طاغية الصعيد

آخر ساعة العدد 668 (26 رمضان 1366 - 13 أغسطس 1947)

في السَّادسة تمامًا لمح هلال أفندي قاربًا يقترب، وتأكَّد أن مدير المعهد البريطاني يعتمد على مصادِرَ مُحتَرمَةٍ، ومَوثوقٍ بها، تُعوِزُ البوليسَ. واصَلَ القارَبُ اختراقَه، واختفت الفِرقَةُ وراءَ السَّتائِر

الصَّخريَّة، وباقتراب القارب تدريجيًّا أمكنَ تَمييزَ رُكابِه، وقدّر قائِد فِرقةِ المُطارَدَة (من اتَجاه التَّجديف) أن القارب سيرسو أمام المركز الأول، واستطاع أن يُمَيِّزَ فيه -وهو في مدى الرؤية- خمسةَ أفرادٍ مُسلَّحين، وَقَفَ أحدُهُم في اعتدادٍ كالقبطان، وعندما أصبح القارب على بُعدِ عشرين مترًا من الشاطئ، أطلق محمد هلال رصاصته الأولى؛ إيذانًا بِفَتحِ خَطِّ النار، وجاوَبَ القارِبُ بِعَشراتِ الأعيرَة، وفُوجئ رُكَّابُه بِعُنفِ الرَّصاص الذي طَوَّقَهم، وكَثْرَتِه، وأصابت رصاصَةٌ القُبطانَ، الذي هَوَى إلى النِّيل، وابتلعه الحَوضُ الرَّهيب، ومَلأت الثُّقوبُ جِسمَ القارِب، الذي دَفَعَه الماءُ إلى مَقرُبَةٍ من الشاطئ، وتَرَكَت فرقَةُ المُطارَدَةِ مَكْمَنَها لتحاوِلَ إنقاذَ القارب ورُكَّابِه قبل أن يغرق، وانْتُشِلَ مَن بَقِيَ من رُكَّاب القارب، كانوا أربعة؛ إذ سقط الخامس في الماء، أحدهم كان قَتيلًا في قاع القارب، والثاني أُصيبَ في مَقتَلٍ، أمَّا الآخران فقد أُصيبَا إصاباتٍ مُتوسِّطَةً.

وسأل الضَّابِطُ المُصابَيْن عن شخصيَّات رُكَّابِ القارِبِ، فقالوا إنَّهم صيَّادون، وسَأَلَهم عن القُبطان الذي هَوَى قتيلًا في اليَمِّ، فأنكروا أن أحدًا قد سَقَطَ، وأن عَدَدَهم أربعة فقط، لا خَمسَة...

وأربَكَت الإجاباتُ هلال أفندي، طافَت بِذِهنِه مَسؤوليَّتُه الجَسيمَةُ عن المعركة، وساءَلَ نَفسَه بِقَلَقٍ: هل أعلنتُ حربًا طائِشَةً على صيَّادين أبرياء تَحتَ تَأثيرِ الوَهمِ بأنَّهم عِصابَةٌ من الأشقياء؟!

كان عبد المنعم مبروك عمدة دير القصير، وفرغلي مبروك -شقيقه- قد جاءا ضِمنَ مَن استيقظ من أهالي العِزبَة على دَوِيِّ الرَّصاص، وقد أخرج الضَّابِطَ من وَساوِسِه قائِلًا:

- هذه عصابة، والَّذي قُتِلَ هو زَعيمُها أحمد عبد الغفار، وهو مُعتادٌ على الحضور في ذلك الميعاد لزوجته...

وقال عمدة العزبة إن القتيل الذي وُجِدَ بقاع القارِبِ هو وَكيلُ العِصابَة: أحمد ياسين.

ولكنَّ القَلَقَ لم يَتلاشَ من ملامِحِ هلال أفندي. وقال العمدة:

- إذا كانوا صيَّادين، فما سَبَبُ حَملِهم البنادق؟ هل صَيدُ السَّمكِ بالرَّصاص؟

وانتقَلَت النِّيابة إلى محلِّ الحادث، وقالت عروس أحمد عبد الغفار إنه دَخَلَ بها ولم تَرَه مُنذُ تزوَّجَت، ولكنَّ شَيخَ خُفراء العِزبَة كَذَّبَها، وأكَّد أنها لم تَخسَرْ ليلةً واحِدَةً من شهر العسل، وأنَّ عريسها كان يأتيها كلَّ يومٍ في السَّادِسَة صباحًا.

وتبَيَّن أن الذين كانوا في القارب هم: دياب علي، وعبد العظيم أبو جبل، ومصطفى عبد الغفار (ابن عم قُرصان النِّيل)، وأحمد ياسين، فضلًا عن الخامس الذي سقط في النيل، والذي رَجَّحَ البوليس أنه أحمد عبد الغفار.

واعتَبَرَت النِّيابَةُ مَقتلَ أحمد عبد الغفار وأحمد ياسين «دفاعًا شرعيًّا» من جانب البوليس، وطلَبَت للضُّبَّاط الذين اشتركوا فيها مكافآتٍ وأوسِمةً.

والشيء الغريب أنه قد تَبَيَّن بعد ذلك أن أحمد عبد الغفار لم يَمُت!

لقد جاءت «إخباريَّة» المعهد البريطانى ناقِصَةً نَقصًا «طفيفًا»؛ فقد كان أحمد عبد الغفار يأتي إلى عروسه كُلَّ يوم، ولكن كان يأتي في السادسة والربع، أما قارَبُ السَّادِسَة فكان يَضُمُّ «كشَّافين» من عصابَتِه، يَكشِفُون له الطَّريقَ قبل أن يَقدِمَ بَعد ذلك. ولقد ظَلَّ أحمد عبد الغفار حَيًّا بعد هذا التاريخ

أكثرَ من ثمانية عشر شهرًا. عاش حتى بعد الخَط نفسه، وقتِل في مَعركةٍ ضاريَةٍ، بعد أن جُنّ منه محمود فهمي النقراشي باشا، وزير الداخلية ورئيس الوزراء، لِدرجة أنه كان يُعلِن أن كُلّ مُناه أن يعيش ليرى أحمد عبد الغفار مقبوضًا عليه، وعند ذلك سيموت مُستريحًا.

ووقع أحمد عبد الغفار عندما ذهب أحد المُقاوِلين الذي يُصلِحون جسورَ النِّيلِ إلى حكمدار المنيا يشكو من قرصان النيل لأنه فَرَض عليه إتاوةً أسبوعيَّةً قَدرُها عشرون جنيهًا، وفَكَّر الحكمدار -وكان القائمقام مصطفى بك متولي- ثم رأى أن يستعين بالمُقاولِ في القَضاءِ على المُجرِم الذي مات قبل ذلك كَذِبًا... واتَّفقَ الحِكمدارُ مع المُقاوِل على أن يعرض على أحمد عبد الغفار خمسمائة جنيه دفعَةً واحِدَةً مُقابِلَ إعفائِه من الإتاوة الأسبوعيَّة، وأن يُحدِّد له مَوعِدًا ليقبض المبلغ، واتَّفق المقاول مع أحمد عبد الغفار، الذي وافق على العَرضِ، على أن يكون مَكانُ اللِّقاء عند شجرة ضَخمَةٍ على شاطئ النيل، على رأس زِمام قرية المطاهرة، التي كان القُرصانُ يَتَّخِذُ منها مَقَرًّا له، يعيش فيها تحت حمايَةِ أحد الأعيان. وأخطِرَ الحِكمدارُ بالزَّمانِ المُحدَّد والمكان المُتَّفَق عليه.

دعا الحكمدار اثنين من ضُبَّاطه لِتَمثيلِ الفَصلِ الثَّاني، طَلَبَ منهما أن يَذهَبَا إلى ضِفَّة النِّيل عند المطاهرة، ومعهما بَعضُ رجالِهما: الضَّابطان في ملابِسَ مَدنيَّةٍ، ومَعَهما أدواتُ مُهندِسي المساحة، والرِّجالُ في مَلابِسِ المَسَّاحين...

وفي صباح يوم 5 يونيو 1949 ذهبَت فرقَة المِساحَةِ الوَهميَّة إلى المطاهرة، وأخذ رجالُها الوهميُّون يَقيسون الأرض، إلى أن وصلوا في الموعدِ المُحدَّد إلى الشَّجرة التي عُيِّنَت مكانًا لِلِّقاء، وهُناك وَجَدوا أحمد عبد الغفار جالِسًا مع رجاله ينتظرون الخمسمائة جنيه، كانوا يشربون الشاي في أمانٍ تامٍّ، فَدَعوا «الأفندية بتوع الهَندَزة» للجُلوس وشُربِ الشاي، وبالفِعل قَبِلَ المُهَندِسون دَعوتَهم، وجَلَسوا يشربون الشاي، ويَتسامرون، وفي لحظاتٍ حاصَرَت قُوَّات الأمن المكانَ، وتَبادَلَت إطلاقَ النَّار مع القُوَّات المُهاجِمَة، واستطاع اثنان من العصابَةِ الهروبَ إلى المساكن، واتَّجه آخران نحو النيل وهما يُطلِقان الرَّصاصَ، محاولين الوصول إلى قارَبٍ كان مُستقرًّا بالقُربِ من ضِفَّته، ويضمُّ أفرادًا آخرين من العصابة، فتحوا نيرانهم على الفور على البوليس.

وأطلق أحمد عبد الغفار رصاصَ بندقيته فأصاب أحد العساكر في مَقتَلٍ، وفي نفس اللحظة أصابته رَصاصَةٌ قَضَت عليه.

وأسرع مُديرُ المنيا إلى المَطاهرة، وهناك رأى عبد الغفار لأول مَرَّةٍ وآخر مرَّة!

ومات قُرصانُ النِّيل هذه المَرَّةَ... مات «بَحق وحَقيق»!

الفصل التاسع
بِنتُ الذَّواتِ... عَشيقَةُ ابنِ اللَّيلِ!

أثارَت معركة «دير القصير» الخُطَّ؛ فَرَدَّ عليها بعُنفٍ دَمويٍّ، وقَتَل ثلاثة أفراد في ثلاثة أيَّام مُتتالِيَة، وسارَعَ بالصُّعود إلى الجبل، وهَجَرَ أسيوط، واتَّخذ من مغارات الجبل المُشرِفَة على منفلوطَ مَوقِعًا جديدًا له!

وبدا واضِحًا أن الأعيان هم مفتاح الخُطِّ! إنهم وحدهم الذين يملكون القُدرَةَ على الإيقاع به؛ فهو طرف في علاقات إجرامية مشتركة معهم، وهو عَدوٌّ لبَعضِهم، وحَليفٌ للآخرين، وهم -أكثر من أي إنسان آخر- يعرفون أخبار تَنَقُّلاته ويُجالِسونه، ويُولِمون له الوَلائِمَ ويُزوِّدونه بالأفيون والزَّبيب، والأخبار.

وقرَّر مُحمَّد هلال أن يُطبِّقَ حِكمةً صَعيديَّةً تقول: «فَتِّشْ عن الأعيان»! وبدأ يجسُّ نَبضَ بَعضِ الذين عَرف عنهم أنهم على خِلافٍ مع الخُطِّ، أو يُكنُّون له العَداءَ من أبناء البيوتات، هؤلاء الذين لا يَستَأجِرونه لِحمايَتِهم أو الانتقام من أعدائهم، بل العكس من ذلك؛ فهو يُستَأجَرُ ضدَّهم ويَنتَقِمُ منهم لحسابِ مُنافِسيهم من الباشوات وأصحاب السعادة.

ومن هؤلاءِ كان واحِدًا من أعضاء مجلس النواب عن طَهطا؛ نائبٌ صعيديٌّ شابٌّ، ينتمي لأسرةٍ من أكبر أسَر الصَّعيد، ويُقيمُ في قَصرٍ هائلٍ أشْبَهَ بالقلعَة، ويمارس «النيابة» و«القتال» بمهارة يُحسَدُ عليها، ووَعَدَ النَّائِبُ بأن يُقدِّمَ كُلَّ مُساعَدَةٍ مُمكِنَة.

ويومًا وَصَلَت برقيَّةٌ منه لِقائِد فرقَةِ المُطارَدَة تقول: «احضر فورًا.. البضاعة موجودة».

وبسرعة شديدة حَمَلَ هلال البرقيَّة إلى مكتب الباشا المدير، الذي كان قد أحال جميعَ أعمال المديريَّة إلى مُعاوِنيه، وتَفرَّغ -منذ مُقابَلَتِه لمولانا- لِمُطارَدَة الخُطِّ فقط، دون كُلِّ مُجرِمي أسيوط، وكلِّ مَشاكِلها...

وبعد مُناقَشةٍ حَضَرَها الحكمدار، تَقرَّر أن يُسافِرَ محمد هلال ومعه أربعة عساكر فقط إلى طهطا، في ملابس بَلَديَّة؛ لِيَبحثِ المسألة مع النائب الطهطاوي، على أن يكون هناك قُوَّة ضَخمَة -بقيادة الحِكِمدار نفسه- مُستعدَّة للتَّحرُّك على ضوء المعلومات والأخبار التي لدى النائب.

وكان النائب الطهطاوي يعيش في منزلٍ أشبَه بِقَلعةٍ مُحصَّنَة، زُوِّدَت بحراسةٍ دقيقة، وخَفيَّة؛ نتيجةً لِعَددٍ من المعارك الدموية التي كانت تَنشبُ بينه وبين أعدائه، واستقبل النائِبُ هلالَ أفندي بمجرد وصوله في الثانية بعد منتصف الليل، وأخطَرَه بأن لديه معلوماتٍ بأن الخُطَّ قد دُعيَ في نفس الليل إلى حفل عُرسٍ هائلٍ بعزبَةٍ في زمام قرية المَشايْعَة، وأنه ذهب مع بداية المساء بالفعل إلى هناك، وبصُحبَتِه عصابَتُه، ليس هذا فقط؛ بل إن العُرسَ يَضمُّ أيضًا جميعَ جَبابِرَةِ الإجرام في الصعيد، ومعهم زُعماءُ من عصاباتِ الدَّرجَة الثَّانية، وأبرز الوجوه في عالم أولاد الليل، الذين اجتمعوا ليزفُّوا زميلًا لهم إلى عروس جديدة!

وخرج قائدُ فرقة المُطارَدَة من عند النائب ومعه شاب سودانيٌّ اسمه نجاح، كان واحدًا من عبيد النَّائِب، أوفده ليكون دَليلًا للحَملَةِ، التي كانت تَقتَصِرُ على خمسة أفراد فقط، كان عليهم أن يُواجِهوا كُلَّ الشياطين التي تَجمَّعَت في عزبة الإجرام.

وفي الطريق اقترح نجاح -دليل النائب الطهطاوي- أن تَمُرَّ البعثةُ على نُقطَة المَشايعَة لتستعينَ ببعض رجالها على ما سوف تُواجِهُ من ظروف، ولكنَّ الضَّابِطَ رَفَضَ؛ خَشية أن يَلفِتَ ذهابُهم إلى النُّقطَةِ النَّظرَ، فيفَشل مَسعاهُم.

ووَصَلَت البعثة إلى العزبة، وقادَهم نجاح إلى مَنزل شَيخ خُفرائها، وقَدَّم هلال أفندي نفسه لشيخ الخفر باعتباره ضَيفَ أولادِ اللَّيل من إسنا، كان مَدعوًّا إلى الفرح ولكنه تأخَّر، وطلب منه أن يَدلَّه على الطريق إلى مكان الحفل؛ حتى «لا يأخذ العريس على خاطره»، ويَظُنَّ أنه أهمَلَ دَعوَتَه.

وأبدى شيخُ الخُفراءِ أسفَه لأنَّ الضَّيفَ وَصلَ مُتأخِّرًا، فقد انفَضَّ الحَفلُ في العِزبَة، وخرج المَدعوُّون بالمراكب يَصحبون العَروسَيْن، وأبحروا في الحوض قبل ساعةٍ من وصول الضَّيف الإسناوي، ومن المُؤكَّد أنهم قد قطعوا ما لا يَقِلُّ عن ثلاثة كيلومترات، وأمامهم مَسافَةٌ أخرى قبل أن يَصِلوا إلى هَدَفِهم، وتَرسو مَراكِبُهم في الحَوض بجزيرةٍ اسمُها «الحديقة»؛ حيث سيدخل العَريسُ على عَروسِه في أحد مَنازلِها.

وكاشَفَ هلال أفندي شيخَ الخَفَر بِهُويَّتِه كضابطٍ من ضُبَّاط البوليس، وبِهَدَفِه الذي يسعى وراءه، وطلب منه باعتباره شيخًا لخفراء العِزبَة -وأحدَ رجالِ الأمن- أن يتعاون معه للإيقاع بالخُطِّ، وأبدى شيخُ الخفراء تَحفُّظَه على ما يريد الضَّابِطُ؛ لأنه غير مُمكِنٍ وغيرُ عَمَليٍّ؛ فمِنَ المُستحيلِ أن يُحقِّقَ أيَّ نَصرٍ على الأشقياء، أو حتَّى يَلحقَ بِهِم؛ فلا يوجدُ ولا مَركَبٌ واحدةٌ للانتقال في الحوض؛ لأن كلَّ مَراكِبِ العزبة قد رَحَلَت بأولاد الليل، واحتُجِزَت هناك في انتظار رحيلهم عليها، ثم إن «الحديقة» هي أجمةٌ كثيفةٌ من النَّخيلِ والأشجار، وقد أصبَحَت بعد أن احتلَّها أولادُ اللَّيل غابةً حَقيقيَّةً؛ فهي تَضمُّ الآن ثلاثةً من رجال اللَّيل، قُوَّتُهم تَزيدُ على ألفِ رَجُلٍ، بما يَملِكون من أسلِحَة، وبِفَرضِ أنه من المُمكِن الهُجومُ عليهم فيها؛ فإن ذلك غيرَ مُمكِنٍ والقُوَّة التي مع الضابط لا تزيد عن أربعة أفراد!

ومن نُقطَةِ المَشايِعَة اتَّصل هلال أفندي بالحكمدار، وأخطره بالمَوقِف؛ فاستَمهَلَه الأخيرُ بعضَ الوقت، ثمَّ عاد وطلب منه تليفونيًّا أن يرسم خريطةَ المكان ويُرسِلها بالسيَّارة فورًا؛ حتَّى يُمكِنَ لقُوَّة الجيش في منقباد أن تَنظُرَ في أمر التَّحرُّكِ معنا. واعترضَ هلالٍ أفندي، وأخطر الحكمدار أن «الحديقة» تضمُّ كثيرًا من الأهالي المُسالِمين، وأن هجومَ الجَيشِ بالطَّائرات أو بقذائفِ المَدافِع على هذه «الحديقة» يتضمَّن خَطرًا مُؤَكَّدًا على أرواحهم، وطَلَب قُواتِ بُوليس ومَراكِبَ تُمكِّنُه من حصارِ «الحديقة» والهُجومِ على الوحوش التي تَحتلُّها. وبعد أَخْذٍ ورَدٍّ اتَّضَحَ أنِ الوَقتَ لن يكون في صالحِ الخُطَّة؛ فمن المُؤكَّدِ أن أولاد الليل لن يُقيموا في «الحديقة»، وتَحرُّكُ القُوَّات من أسيوط إليها سيَأخُذُ وقتًا طويلًا، يَجعَلُ الحَركَةَ نَفسَها بلا معنى!

وانقطعَ أوَّلُ خَيطٍ جاءَ من أبناء البيوتات... وطار الخُطُّ...

***

وعاد محمد هلال يفكر -مَهمومًا- في طريقة أخرى لاصطياد الخَط، ويبحث عن خَيطٍ جديد وسط أبناء الأعيان؛ حُلفاءِ الخُطِّ، وأعدائه، والوحيدين الذين يستطيعون أن يُسلِّموه.

وفجأةً غَمزَت السِّنَّارة، لكن بطريقَةٍ مختلِفَةٍ هذه المَرَّة؛ فقد عَلِمَ قائِدُ فرقة المُطارَدة أن هناك خطابًا وصل للأستاذ إحسان عبد القدوس -وكان وقتها رئيسًا لتحرير «روزاليوسف»- يتضمَّن معلوماتٍ حول قصَّة حُبٍّ تَدور بين بنتِ ذواتٍ من أبناء البيوتات في الصعيد، وبين الخُطِّ!

وبدا الخَيطُ الجديدُ شديدَ الأهمِّيَّة لأنه ربَّما يقود إلى امتزاج أسلوبين من أساليب البحث عن الخُط: الأسلوب القائم على الحِكمَة الفرنسيَّة «فتِّش عن المرأة»، والآخر الذي يقوم على القاعدة الصعيديَّة «فتِّش عن الأعيان»، وها هي امرأةٌ من الأعيان تعشق الخُطَّ؛ فهل تكون تلك نهايَتَه؟!

وبأسرع من البَرقِ سافر محمد هلال إلى القاهرة، ومن المَحطَّة تَوجَّه فورًا، وبغُبارِ السَّفر، إلى «روزاليوسف»، وكانت ما تزال بِمَبناها القديم بشارع محمد سعيد، واستقبله إحسان عبد القُدُّوس، وكان بينهما مَعرِفَةٌ سابِقَة، وقال له إن الخطاب قد جاء بين بريد باب «جرَّاح قلب»؛ وهو الباب الذي تُعالِجُ فيه المَجلَّةُ مشاكِلَ القُلوبِ ومَتاعِبَ المُحبِّين وأهل الهَوَى.

وبدأ الضَّابِطُ يقرأ خطاب بنت الذَّوات التي تعشق الخُطَّ، كان نَصُّه ما يَلِي:

سيِّدي مُحرِّر «جرَّاح قلب»...

إن لي قِصَّةً -يا سيدي- واقعيَّةٌ... للأسف. أرجو ألَّا تَسخَرَ منها؛ فإنَّ في واقِعيَّتِها مأساةً يَعجَزُ أيُّ كاتِبٍ من كُتَّاب القِصَّة أن يأتي بِمِثلِها...

أنا -يا سيِّدي- فتاةٌ في الحادية والعشرين، نِلتُ قِسطًا مِن التَّعليم، يقولون عنه إنه التعليم المثاليُّ لفَتَياتِ الطَّبقَة الرَّاقِيَة التي أنتمي إليها، ومنذ ثَلاثَةِ شهور أُصِبْت بما ظَنَنتُ أنَّه حُبٌّ... وكان البَطَلُ فَتًى من فتيان الطَّبَقَة الرَّاقِيَة، يُجيدُ الرَّقصَ، والتَّحدُّثَ باللُّغة الفرنسيَّة، واستعمال أحدث أنواع «البريانتين».

وسَمِعَ والدي باندماجي مع هذا الفتى أكثرَ من اللَّازِم، فما كان منه إلَّا أنْ أرسَلَني إلى الريف، وفي الرِّيف بَدَأت مَأساتي...

إنَّكَ تستطيع أن تتصوَّر حياةَ فتاةٍ مِثلي في الرِّيف؛ كنتُ أحاول أن أُغالِبَ المَلَلَ؛ فأركب جوادًا وأدور وأَخُبَّ به في أرجاء الأرض، وكُنتُ أُصادِقُ الفَلَّاحات، وأقوم بأيِّ شيءٍ لِمُغالَبَةِ ذلك الضِّيقِ وهذا المَلَل.

وفي إحدى الأمسيات، وآه -يا سيدي- من أمسيات الرِّيف! إنَّكَ لا تستطيعُ أن تَتصوَّرها وأنتَ بالقاهرة- وفي إحدى هذه الأُمسياتِ حَضَرَ شَخصٌ اهتزَّت له الحُقولُ والعِزَب!

وطَلَبَ عَشاءً، وتَفانَت العِزبَةُ في تَقديم العَشاء له، وحَضَرَ الرُّسُلُ من البِلادِ المُجاوِرَةِ حامِلين له الهَدايا والنُّقود، وبِنَوعٍ من الفُضول النِّسائيِّ، وجَرأة الفَتاةِ القاهِريَّةِ المُتعلِّمَة نَزلتُ، وقابَلتُه...

أَتدري مَن هو يا سيِّدي؟

إنه محمد محمود منصور... لا تَدَّعِ عَدمَ المَعرفةِ به؛ فأنتَ تَعرفه، وكل قرَّائِك يَعرفونَه، وأجهَل الجَهلَةِ في مصر يَعرفون مَن هو محمد محمود منصور! إنه حبيبي، وكُلُّكم تُطلِقون عليه اسمًا آخر؛ إنَّكم تُسمُّونه الخُطّ!

ولنَعُدْ -يا سيِّدى- لِحَديثِنا: نَزلتُ إليه، وحادَثتُه... كم من الجَميلِ أن تتحدَّثَ إلى المشاهير والكبار! وظَلَلنا نتحدَّث، وانفضَّ السَّامِرُ كُلُّه، وبَقيتُ أنا وهو، وطال الحَديثُ، وتَشعَّبَ. حَدَّثَني عن مُغامَراتِه ومُطارَداتِه، وعن الجَرائِم التي ارتكَبَها، والجَرائِمِ المَنسوبَةِ إليه زُورًا وبُهتانًا، حتى عن الليالي المُخيفَةِ بين عيدان الذُّرَة العالية...

حدَّثني عن مُطارِديه من رجال البوليس، وفي يَمينِهم السِّلاح، يَحمي القانونُ ظهورَهم إذا قتلوه...

وحدَّثَني عن مُطارِديه من أهل بَلدَتِه... وطال الحَديثُ، ولم نَشعُر إلَّا ونحن في الصباح.

وتكرَّر حُضورُ هذا الرَّجلِ وفي يده خيزرانة، كما لو كان آمِنًا في بَيتِه وليس من المُطارَدين، وكان الرِّجالُ -بسلاحِهم- يخشون خَيزُرانَته.

أثار ذلك الرَّجُلُ إعجابي شيئًا فشيئًا، وأخيرًا شعرتُ أنَّه ذو سُلطانٍ لا يُقاوَم، واعترفتُ بيني وبين نفسي بأنَّني أحبُّه!

قد تقول إنني أحببتُ الجَريمةَ، وعَشقتُ الضَّلال، ولكن لا يا سيِّدي؛ فإننى ما أحببتُ فيه إلَّا جَمالَ الرُّجولَة...

إن المَرأةَ تُحبُّ الجَرأةَ والشَّجاعَةَ، ولا أظنُّ أن هناك رَجُلًا تَوافَرَت فيه هذه الشُّروطُ أكثرَ منه... من حبيبي محمد...

لَيتَكَ -يا سيِّدي- كنتَ امرأةً حتَّى أستطيعَ أن أشرحَ لكَ سِحرَ الرَّجُلِ، أو ليتني كنتُ رَجُلًا حتَّى أستطيعَ أن أفُكَّ طلاسِمَ سِحرِه!

ولنَعُدْ مَرَّةً ثانيةً لحديثنا:

إنَّني أحببتُه كما قُلتُ لكَ، ولكنِّي أحاولُ أن أنزلَ من عَليائي لأُفْهِمَه أنني أحبُّه، ولكنَّ الذي حَدَثَ -يا سيِّدي- أنَّ هذا المُجرِمَ الحبيب أفْهَمَني بأدَبِ قاتِلٍ أنَّه يَعبُدُني، ويَثِقُ بي، وأنَّه يَضَعُ رَقبَتَه بين يدي، بحُضوره كُلَّ لَيلةٍ ليراني، وأنَّ في هذا مُخاطَرَةً كُبرى بالنِّسبَة إليه؛ وذلك لأنه -ويا للفرحة- يُحبُّني. لم أُطِقْ أكثرَ من هذا يا سيِّدي، وتَهاوَيتُ. مَنَعتُه من الحُضور إليَّ؛ لأذهَبْ أنا إليه! كنتُ أخرجُ، وعندما أدخلُ في بحر الذُّرةِ الخِضَمِّ يُقابلني أحدُ رِجالِه، ويُوصلني حتى أجِدَ نفسي بين ذِراعَيه...


فتاة من عائلة كبيرة تعترف بأنها أحبت المجرم وعاشرته !

وظائف خالية

إعلانات مبوبة

(روز اليوسف العدد 1000)

في بَعضِ اللَّيالي تَستيقِظُ في نَفْسي الفَتاةُ القاهِريَّةُ المُتعلِّمَةُ، ويَشتَدُّ بي الحَنينُ إلى «الأريزونا» و«مارلي» و«الأوبرج»... وأثورُ، وتَشتَدُّ بي الثورة، حتَّى أحاوِلَ أن أخَلِّصَ نَفسي من هذا الجحيم في مَذبَحَةٍ، ولكن سرعان ما تستيقظ في نَفسي المَرأةُ؛ فأخْرُجَ لأُلقي نفسي بين ذراعَيْه، وكم في ذلك من مُغامَرَةٍ لَذيذة!

سيِّدي، إن مُشكِلَتي هي نَفسُ المُشكِلَةِ القَديمةِ بين العَقلِ والقَلب، ولكني لا أدري لِمَن سَتكون الغَلَبَة؟

أرجوكَ يا سيِّدي، حاوِلْ أن تُساعِدَني، وابْحَثْ لي عن علاج؛ فإنَّ عَقلَكَ -وأنتَ بَعيدٌ عن سَيطرَةِ هذا الوَحشِ المَعبودِ- يستطيعُ أن يَدُلَّني إلى أين أذهب؟ أظنُّ أنَّه لا خَلاصَ لي من هذه الحَياةِ المُدنَّسَةِ المُمتِعَة إلَّا إذا تَخلَّصتُ من حياتي نَفسها!

ولكني -يا سيِّدي- لا أريد أن أموتَ، لا لأني أخشى الموتَ؛ ولكن لا أريد أن أبتعد عنه! يا سيِّدي، ساعِدني؛ فرَبَّما كان في كَلماتِكَ شِفائي وخَلاصي...

(مُدَنَّسَة)

«اعذُرني إنْ لَم أستَطِعْ أن أكتُبَ إليكَ في ورقٍ أفضلَ؛ فهذا هو النَّوعُ الوَحيدُ الَّذي وَجدتُه هنا، ولم آخذ ورقًا من مَكتَبِ العِزبَة حتى لا أفضَحَ نَفسي وأفضَحَ والدي».

***

عاد المُلازِمُ محمد هلال بالخطاب إلى أسيوط، بعد أن وَعَدَ إحسان عبد القدوس بأن يُعيدَه إليه مرَّةً أخرى...

كان الخطاب يَفتَحُ البابَ أمام تَحرِّياتٍ جديدةٍ، ستكشف بالتأكيد جوانِبَ أخرى في عالَم الخُطِّ، فهل يقودُ هذا الخَيطُ للإطباقِ على ابن اللَّيل الهارِب؟ وكيف يَبدَأ؟

إن المسألة ليست صعبة إلى هذا الحَدِّ؛ فأعيانُ المنطقةِ مَحدودي العَدَدِ، والخِطابُ نَفسُه يَتضمَّن تفاصيلَ يُمكنُ أن تقود إلى معرفة الفتاة ومُراقبَتِها، ثم الإطباق على الخُطِّ وهو بين أحضانها.

لم يَكُن في الخِطابِ شَيءٌ يَنبو عن التَّصديق، وهو أَدرَى بِعالَم أثرياء أسيوط أكثرَ من غَيره: وسطَ الفَقرِ والقَحطِ والأوبِئَة كانَت قُصورُهم تَقومُ كالقِلاعِ المُحصَّنَة ضدَّ الجوع، وضِدَّ المَرَض، سميكَةَ الجُدرانِ لكي لا تَسمَعَ آذانُهم المُرفَّهَةُ أنَّات ضَحاياهم، وبينما كان النَّاسُ يَموتون من البلهارسيا والإنكلستوما والبلاجرا والحُمَّى الرَّاجِعَة والملاريا، فإنَّ حَدائِقَهم كانت دائمًا قادِرَةً على إخفاءِ كُلِّ هذا عن عُيونِهم المُحِبَّة للجَمال، والكارِهَةِ للقُبْحِ، وآذانِهم الصَّمَّاء عن الشَّكوى؛ لأنَّ المُوسيقى تَسكُنُها!

خلف جدران القِلاعِ المُتجمِّدة في وَجهِ مَن يَراها من الخارِج كانَت تَدور حياةٌ أخرى من نوعٍ خاص، حياة تَنتمي إلى عواصِم الغَربِ الكُبرى، إلى حضارَةٍ أخرى تمامًا: حفلات استقبال، وأعيادَ ميلادٍ، وموسيقى كلاسيك، وجِـاز، وآخر موضات الأزياء والرَّقص، ورحلات صَيدٍ، وسباق خَيل...

إذًا فَقَد وَقعَت هذه المُدنَّسَةُ في حُبِّ الخُطِّ... فَبِنْتُ مَن هي يا ترى؟! واضِحٌ أنَّ الخُطَّ قد دَخَلَ عالَمَ أبناء البيوتاتِ بِكلِّ ثِقَلِه، فهل تَعتَبِرُه فَتياتُها نوعًا من «الفولكلور» الشعبيِّ، فيتمتَّعن به؟

كان ختم البريد يقول إنَّ الخطاب قد صدر من «أسيوط- منفلوط»، ولكن ذلك لا يقود لشيء مُجدَّدًا؛ فمن السَّهل إلقاؤه من أي مركز، ومنفلوط نفسها مركزٌ كبير، وأغنياؤه كَثيرون، فمَن منهم وقَعَت بِنْتُه في هَوى الخُطِّ؟ وما مصير سميرة، ورشيدة؟ وهل رَوَى الخُطُّ شيئًا لِبنتِ الذَّوات عنهما؟

عاد الضَّابِطُ يتأمَّلُ في الخَطِّ النِّسائيِّ الذي كُتِبَت به الرِّسالة، بحروفه الدَّقيقَة «المدغدغة»، ويحاول أن يرسم خُطَّةً تُمكِّنُه من معرِفَةِ صاحبَتِه. كيفَ يَستَكتِبُ بناتِ البُيوتاتِ في المُديريَّة ليُقارِنَ خُطوطَهنَّ بِخَطِّ الخِطاب؟!

ولكن ألا يبدو الأسلوبُ مُتقعِّرًا بعضَ الشيء على بنت ذَواتٍ نِصفِ مصريَّةٍ في الغالب: «تَخبُّ في أرجاء الأرض»، وتحاول أن «تفُكَّ طلاسِمَ سِحره»! ألا تَبدو حِكايَةُ «الصِّراع بين العقل والقلب» هذه فوق مستوى تفكير بنت ذواتٍ؟ صحيحٌ أنِ مِنهُنَّ مَن تَعلَّمَت في المدارس الأجنبية، ولكنَّ الأسلوبَ يبدو أزهريًّا، وكأنَّ كاتِبَه أحَدُ المشايخِ الَّذين تَتَلمَذوا على الشيخ عوَّاد، أو زامَلوه على عَهدِ مُجاوَرَتِه بالأزهر...

ليسَت هذه هي المشكلة. لنبدأ بالبَحث عن خيطٍ يَكشفُ كُلَّ هذه الطَّلاسِم... قبل أن يبدأ هلال أيَّ شيء للبَحثِ وَقعَت في يَدِه رسالَةٌ بِنَفس الخَطِّ! كانت الرِّسالَةُ مُوجَّهَةً إليه هو هذه المرَّة، بتوقيع وخَطِّ زَميلٍ له يَعمَلُ في مَنفَلوط... وكان مَضمونُ الرِّسالة الجَديدة تَقليديًّا: تحيَّات، وخَبرًا بأن كاتِبَها سيُسافِر إلى القاهِرَة اليوم في قطار المساء: «فإذا لَزِمَكَ شيءٌ فاكتُبْ لي عنه. سأعود يومَ السَّبت صباحًا... وفي يَدِكَ أَلَّا أسافِر -وبالطَّبع- وألَّا أعود إذا لَم تُرسِلْ لي خمسةَ جُنيهاتٍ أردُّها بمجرَّد عودتي».

وبدلًا من أن يُرسِلَ هلال الجُنيهات الخمسة مع حامِلِ الرِّسالة، تَوجَّه معه بِنَفسِه إلى منفلوط، وقابَلَ صاحِبَ الرِّسالة، وبعدَ مُناوَشَةٍ خفيفةٍ بينهما اعترف ضابِطُ منفلوط بأنَّه هو «المُدَنَّسة» التي كتَبَت لـ«روزاليوسف»، وقال إنه اخترعَ الرِّسالَةَ من بنات أفكاره من الألف للياء وأردف قائِلًا: «المسألة أنَّنى أرَدتُ أن أمتَحِنَ نَفسي في التَّأليف من الخَيال»!

وروى له هلال ما تَعرَّض له من مَتاعِبَ في سبيل هذه الرسالة، و«المشوار» الذي تَكبَّدَه إلى القاهرة، وما كان يُمكِنُ أن يحدُثَ لو لم يَكتَشِف بالمُصادَفَةِ كاتِبَها؛ كان سيبذل مجهودًا في التَّحرِّي، والبحث، ورَسْمِ الخُطَط وراء خَيطٍ واهِنٍ، وواقِعَةٍ مَكذوبَة... وعلَّق ضابِطُ منفلوط على هذا كُلِّه قائِلًا: «على أي حالٍ فقد هَدفتُ إلى غَرضٍ آخر غير التَّأليف والاختراع... أردتُ أن أُحدِثَ هِزَّةً في صفوف أغنياء أسيوط، أردتُ أن أثير الارتباكَ بين أصحابِ الضِّياع والعِزَب، وهُم الَّذين آووا الخُطَّ طوالَ هذه المُدَّة، وأطعموه، وأَجْلَسوه على مَوائِدِهم، ونَفَحوه الأموالَ لِيَقوى وليشتري الرَّصاصَ الذي يَعتدي به عَليكَ وعلى رِجالِنا... إني والله أردتُ أن أُزعزِعَ ثِقَتَهم في نُفوسِهم، وفي أعراض بَناتِهم؛ حتَّى يَحرِصَ كُلٌّ منهم على تَجنُّب الخُطِّ، وإغلاق أبوابهم في وَجهِه؛ فَيُصبِحَ كَطيرٍ مَقصوصِ الجَناحَيْن ضَعيفًا بلا مَلاذٍ؛ وبذلك يُمكِنُك القَبضُ عليه. أنا والله أردتُ مُساعَدتَك».

واستمع هلال أفندي لِذلك كُلِّه بصبرٍ، ثم قال:

- يا سيدي مُتشكِّر!

على أن منطق ضابط منفلوط كان يعكس في الواقع شيئًا أخطرَ من مُجرَّد محاوَلَةٍ منه لتبرير سَأمِه من حياة الصعيد الرَّتيبة، فهو يكشف عن أنَّ ضُبَّاط البوليس كانوا قد بدأوا يضيقون بالفعل بالأعيان، ويكرهونهم... كان رَصاصُ الخُطِّ -وغيره من أبناء اللَّيل- قد اتَّجه بكثْرَةٍ إلى صُدورهم، وكان مُعظَمُهم -برغم قبولِهم العَملَ في مِهنَةٍ تتضمَّنُ مُخاطَرَةً بالحياة- لا يَعتَبِرون هذه المُخاطَرَةَ جِدِّيَّةً؛ اعتمادًا على الهَيبَةِ التَّقليديَّة التي كان جهاز الدَّولة قد كَوَّنَها لنفسه؛ ولذلك أزعَجَهم بشدَّة أنْ قُتِلَ عَددٌ من زُملائِهم الضُّبَّاط في مَعارِكَ مع أولاد الليل، وبدأوا يُحمِّلون الأعيانَ المسؤوليَّةَ عن حدوثِ ذلك، ويكرَهون تحالُفَهم مع العصاباتِ، وحِمايَتَهم لها، ويَنسِبون إليهم مَسؤوليَّتَهم عن اختلال الأمنِ، وإلقاء هذه المسؤوليَّةِ على عاتِقِ البوليس...

وكان هذا بدايةَ بُروزِ التَّناقُضِ الغريب في صُفوفِ جهازِ الدَّولَة نَفسِه، عندما بَدَأت الأجهِزَةُ الضَّارِبَةُ للطَّبقاتِ الحاكِمَة، وأداتُها المُسلَّحَة لِقَهْر الجماهير تَنفَصِلُ عن هذه الطَّبقات؛ وهو ما أدَّى كُلُّه إلى تَفسُّخ السُّلطَة، وسُقوطِها في 23 يوليو 1952.

***

ولم يَغضَب قائِدُ فرقَةِ المُطارَدةِ من زَميلِه المُؤلِّف، شعر أن كلامه به بعضُ المنطق؛ لأنه هو نفسه كاد أن يفقدَ حياتَه برصاصِ الخُطِّ في نفس الأسبوع!

كانت التَّحريَّات قد أكَّدَت أن الخُطَّ قد نَقَلَ نَشاطَه إلى منطقة منفلوط. وانتقَلَت فرقة الموت بكامل أفرادها لتُقيمَ بعزبة «سيد خشبة باشا»؛ لتكون على مَقرُبَةٍ من مَسرحِ الأحداث.

في هذه المرحلة من حياته، كان الخُطُّ قد رمى بِثِقَلِه كُلِّه فوق كاهل «الخواجة محروس عازر»، أحد المُلَّاك المُتوسِّطين في العزبة؛ إذ كان الخُطُّ يهبط على العِزبَةِ في الليل، ويَمرُّ ببقَّالِ القرية، فيأخذ الطَّعام والسَّجائر وزُجاجَة الزَّبيب، ثم يعود إلى وابور مالطي، ويدفع محروس كُلَّ الحساب!

كان محروس عازر من أعيان الأقباط بالمنطقة، يَملِكُ ثلاثين فدَّانًا بها، وهو في أواخر الحلقة الرابعة من عمره، يُخفي مَظهَرُه الفقيرُ ثَراءَه، وقَدَّر الخُطُّ أنَّ الخواجة محرِوس رجلٌ هادئٌ الطَّبْع،

يَنفِرُ من الشغبِ إلى درجةٍ تَقتَرِبُ من الجُبْنِ؛ ومن هنا فرَضَ عليه إتاوةَ تتراوَح في الشهر بين الخمسين والسبعين جنيهًا، فَضلًا عن الأفيون والزَّبيب والسجائر التي كان يَسحَبُها من البَقَّال.

وأثبَتَ مَحروس بذلك أنه ضحيَّةٌ مِثاليَّةٌ للخُطِّ؛ ذلك أنَّ عُزوفَه الشَّديد عن الدُّخول في المشاكل كان صِمامَ أمنٍ مَطلوبٍ؛ فهذا رَجُلٌ لا يمكن أن يَخطُرَ ببالِه في أي لحظةٍ أو يَومٍ أن يستعينَ بالبوليس لإنقاذه ممَّا هو فيه...

وأصبح منزل «آل عازر» دارَ أَمانٍ للخُطِّ، يَنزل إليها في بعض الليالي، حيثُ تُطهَى وليمةٌ فَخمَةٌ من اللُّحوم، تُعوِّضُ مايَلقاه من شَقاءِ الإقامَةِ في الجَبَل، أو في وابور مالطي، وأصبح من عاداته أن يُغيِّرَ مَلابِسَه في دار محروس، يتركُ المُتَّسِخَ منها، ويَلبَسُ النظيف، ثُمَّ يعود في الأسبوع التالي ليفعل نفسَ الشيء: يأكل، ويُغيِّر مَلابِسَه الَّتي اتَّسَخَت بتلكَ الَّتي غُسِلَت وكُوِيَت.

وكان يمكن أن تستمرَّ الحال على هذا المنوال، لولا أن حالةَ الخواجة محروس الماليَّة كانت تأزَّمَت بعضَ الشيء، هُنا أصبَحَت مَطالِبُ الخُطِّ عِبئًا لا يُمكِنُ احتمالُه، وبرغم أن الخَواجة كان يُؤثِرُ السَّلامَ؛ فإن «داءَ البُخلِ» كان مُتمكِّنًا من نفسه، وكان وحدَه -من بين طِباعِه- القادِرَ على مَنحِه شَجاعَةً تَصِلُ -بالنسبة لتكوينه- إلى حَدِّ الفِدائيَّة! وفي لَحظَةِ تَهوُّرٍ وغَضَبٍ على مالِه المَفقودِ اتَّصل مَحروس عازِر بقائِدِ فرقَةِ المُطارَدَة الملازم محمد هلال، وقَدَّم تقريرًا كامِلًا له عن المَرحَلَةِ الأخيرة من حياة الخُطِّ...

لقد استقرَّ الخُطُّ أخيرًا في وابور مالطي، في زمام قرية جحدم، بمركز منفلوط، وهو يعيش هناك في حمايةِ حَليفِه وصديقِه حمدي خليفة عمدة جحدم، وهو يزور الخواجةِ محروس في منزلِه مَرَّةً كلَّ أسبوعٍ لكي يُغيِّر مَلابِسَه المُتَّسِخَةَ، ويلبَسَ ما غُسِلَ، وأيضًا ليأكُلَ أكلةً شهيَّةً، وهو يتعمَّد ألَّا يأتي في موعدٍ مُحدَّدٍ، إنه قد يجيء في الصباح أو في المساء، وأحيانًا في الفجر.

وهدفه الواضِحُ من ذلك هو إرباك محروس لكي لا يعرف له -هو أو أي من أعدائه- موعدًا مُحدَّدًا يمكن أن تُرسَمَ على أساسه خُطَطٌ لاقتناصه.

وكانَت المعلومات تُؤكِّد أن الخُطَّ قد فرض هيبَتَه على المنطَقَة، وأنَّه شديدُ الحَذَر، لدرجَةِ أنَّه يرفض أن يشربَ أيَّ شرابٍ مَفتوح؛ فهو لا يشرَبُ عَرَقَ البَلَح -الذي يُتقِنُ أهالي الصَّعيد تَقطيرَه- ويُفضِّلُ عليه «الزَّبيب»، برغم أنَّ الأوَّل أفضَلُ من الثاني؛ ومقياس التَّرجيحِ عندَه أنَّ «الزَّبيب» شرابٌ مُغلَقٌ لا يستطيع أحدٌ أن يَدسَّ له شيئًا فيه.

وبرغم ثِقَتِه بالخواجة محروس فقد كان حَذِرًا تِجاهَ كُلِّ ما يُقدَّم له في منزله؛ فقد كان يَفرِضُ عليه أو على أحد من أولاده تَذوُّق ما يُقدَّمُ إليه من شرابٍ أو طعام قَبلَ أن يَمَسَّه هو، وكان يُردِّدُ مُبَرِّرًا ذلك: «يا خواجة محروس.. لن يقتُلَني إلَّا السُّم!

وحتَّى الشَّاي، فإن الخُطَّ لم يَكُن يشرَبُه في أي مكانٍ إلَّا إذا تَذوَّقَه مُقدِّمُه قَبلَه، ولم يَكُن يَستثني من ذلك أحدًا، إلَّا أُمَّه «خالتي فضَّة»، وعوَّاد، قبل مَقتلِه.

إلى هذا الحَدِّ كان ابنُ اللَّيل قد أصبحَ غَريبًا ووحيدًا. لم يَكُن له عَزاءٌ إلَّا الأفيون. كان قد فَرَضَ على الخواجة محروس أن يُدبِّرَ له كَمِّيَّةً تَكفيه أسبوعًا كامِلًا، وكان يَتناوَلُه بكمِّيَّاتٍ كبيرةٍ؛ ممَّا أثقلَ كاهِلَ الخواجة بالمصروفات.

وكان الأفيون هو مِزاجُ أبناءِ الليل المُفضّل، ورُبَّما كان الوحيد؛ فقد كان مُعظمُهم يَرفضون الحشيشَ؛ رُبَّما لِمَا يَبعَثُه في الجَسَدِ من كَسَلٍ وخُمول، بِعَكسِ الأفيون الذي كان يُرهِفُ حواسَّهم، ويعاوِنُهم على السَّهَر الطَّويل، ويُعينهم على مُواجَهَةِ الخَطَر بدرجَةٍ من الاستهانَةِ وعَدَم الإدراك الواعي الكامل بأبعاده؛ وهو ما يُفجِّر جَرأتَهم وطَيشَهم، ويُرعِبُ مُهاجميهم نتيجةً للحالة اللَا إنسانية التي يكون عليها.

وبدأ محمد هلال في ضوء المعلومات الجديدة برِسْمِ خُطَّتَه لاصطياد الخُطِّ، وكَبَّده الخواجة محروس مَشقَّةً كبيرة وهو يحاوِل أن يُقنِعَه، كان الرَّجُلُ مُفَكَّكَ الأوصال تمامًا، وعندما كان الضَّابِطُ يشرح له فصولَ الخُطَّة كان يَنطَلِقُ جاريًا بعدَ كُلِّ فَصلٍ، مُؤكِّدًا أنَّه لن يشترك في هذه المُغامَرة؛ كان الرَّجُلُ قد فَقَدَ طبيعتَه البشريَّة تمامًا، لم يَعُد إنسانًا، وإنَّما أصبح مَجموعةً من الأعصاب الخائِفَة المُرتَعِبَة.

وبعد مجهودٍ عَنيفٍ وافق الرَّجُلُ، وبدأ التَّنفيذ...

في أوَّل مراحلها أصبحت العِزبَةُ يومًا وهي تتحدَّث عن خِلافٍ حادٍّ بين الخواجة محروس وشقيقه؛ لقد تَنازَعَ الشَّقيقان -كما تَحدَّثَت العِزبة- بشأن عددٍ من الأفدِنَة الَّتي يملكانها إرثًا عن والدهما، وراجَت شائعاتٌ كثيرةٌ عن الخِلاف، وأكَّد الكُلُّ أن الخِلافَ إذا لم يُحسَم فسينتهي بأنْ يُريقَ أَحدُ الأخوَيْن دَمَ الآخر.

وكالعادة، وَصَلَ نَبأُ الخِلافِ إلى الخُطِّ في مَكمَنِه بوابور مالطي!

وقرَّر ابنُ الليل الهارب أن يتدخَّل ليؤكِّد مَكانَتَه، ويُثبِتَ أنه رجُلُ المَهمَّات؛ فإذا لم يتدخَّل هو لإعادة المياه إلى مجاريها بين الأخوَيْن -وهما صديقاه وحليفاه- فمَن يتدخَّل؟

إنه لن يفعل ذلك لإثبات «مكانته» فقط، ولكن أيضًا للحصول على مكافأة من الطَّرَفَين، وكانت العادَةُ في الصَّعيد أن تُعقَدَ مَجالِسُ للصُّلحِ شَبيهةٌ بمجالس «العُربان» (وهي مَحاكِمُ عُرفيَّة)، وبمجرَّد صدور الحكم وتوقيع الصُّلح بين المتخاصِمين فإنَّ الذي يحكم في القضية تُودَعُ لِذمَّتِه مُكافَأة، تُفَسَّر على أنها للتَّبرُّك، وأحيانًا باعتبارها مَصاريفَ الانتقال.

إلى هذا الحَدِّ كانت مكانة أولاد الليل. إن أحدًا لم يَكُن يَتعامَلُ معهم كمُجرمين، بل إن كثيرًا من الأعيان كانوا يَقبَلون وَساطَتَهم، ويُحكِّمونهم في مشاكلهم، بل ويُحكِّمون هم أيضًا بينهم وبين زُملائِهم من أولاد الليل عندما تنشأ بينهم خلافات...

المهمُّ أن الخُطَّ بَلَغَته أنباءُ الخِلاف بين آل عازر؛ فتحرَّكَ ليكون «قاضِيًا» بينهما، وبمجرَّد وصوله إلى دارهم هُيِّئَ مَجلِس الصُّلح على الفور، واقتصر المَجلِسُ -بحسب الخُطَّة الموضوعة- على الشَّقيقَيْن وأولادهما، وتَمَّ الصُّلحُ بعد مُناقَشةٍ قصيرة، لم تَخلُ من حِدَّةٍ مُفتَعَلةٍ، هَيَّأت للخُطِّ أن يقوم بمَهمَّتِه، وأقنعته أنَّ الخِلافَ حَقيقيٌّ، وأنه ما كان يُمكِنُ أن يُحَلَّ دون مجهوده، وحرص في الحُكم الذي أصدره أن يكون عادِلًا وموضوعيًّا، وأعلن الشَّقيقان قبولَهما للحلِّ، ورِضاهما بِحُكم الخُطِّ.

وشفع الخواجةُ محروس إعلانَه بإعلانٍ آخر، فقال إنه -تقديرًا منه لمجهود الخُطِّ في عودة المياه إلى مجاريها بين الأخَوَيْن- يُقدِّم عشرة جنيهاتٍ كنوعٍ من البَرَكَة للقاضي الفاضل، وأخرج شَقيقُه عشرةً أخرى مثلها؛ حِرصًا على نَصيبه من البَرَكة.

وقبل أن يقوم الخَط لينصرف وفي جيبه الجنيهات العشرون، قام الخواجة فأقسم بأغلظ الأيمان ألَّا يُغادِرَ الخُطُّ الدَّارَ إلَّا بعد أن يأكلوا جميعًا «عيش وملح»، وشفع محروس قسمه بالعمل، وعلى الفور خرج أحد أبنائه، وعاد بخروف من قطيع الخرفان الذي تملكه الأسرة، وقيده تحت أقدام الخُطِّ، وأخرج الشقيق سكينه، وأجهز على الخروف وأهاب بأهل البيت أن يعجلوا بطهيه.

وجلس الشقيقان يَسمُران مع الخُطِّ، بينما كانت الأسرَةُ في المطبخ تُعِدُّ الوَليمَة من تَنويعاتٍ مختلفة على لحم الخروف: «لحمة ضاني مسلوقة، ومحمَّرَة، وفتَّة، وملوخيَة، ولحمة بالصَّلصة، ورُزّ، وجِبنَة بلدي»...

وأثناء إعداد الطعام كان هلال أفندي ومعه الكونستابل «راغب شنن» يُرابِطان خلفَ صَخرَةٍ كبيرَةٍ، كان قد مَضَى عليهما يومان في هذا المكان، عندما لمحا غُلامًا صغيرًا يَحومُ خائِفًا مُترَدِّدًا حولَ الصَّخرة، وناداه هلال أفندي وطَمأنه، حتَّى قال الغلام رسالَتَه بعد تَرَدُّدٍ شديد: «أبويا بيقولَّك الخُطّ عندنا في الدار»!

وإذ عاد الطِّفل إلى المنزل وأخطر والده محروس عازر بأنه أبلغ الرسالة؛ دخل الخواجة إلى مطبخ الدار، وأطلَّ على حَلَّةِ المَرَق، ثم أخرج من جيبه زجاجة من «الـ□يتوفالـ□يتين»، وأسقط منها سِتَّ حبَّاتٍ كامِلَةً في المَرَق.

و«الـ□يتوفالـ□يتين» هو أقوى مُنوِّم كان موجودًا في ذلك الوقت، اختاره مُؤتَمرٌ من أطبَّاء أسيوط، عُقِدَ في مكتب مأمور منفلوط «اللواء عبد الحق الرفاعي».

وكانت الفكرة في البداية أن يضع الخواجة سُمًّا يَقضي على الخُطِّ، لكنَّ اعتراضًا على هذه الفكرة جاء من ناحيتَيْن، الأولى: من ناحية الخواجة محروس نفسه، الذي رفضها بعُنفٍ، وخَشي من تنفيذِها؛ لِكَيْلَا تَفشَلَ لأيِّ سببٍ؛ فتكون القاضِيَة عليه. أمَّا الاعتراض الثاني فكان قانونيًّا؛ إذ ليس من حَقِّ البوليس بالطَّبع أن يُسمِّمَ مُجرِمًا لأيِّ سببٍ، وكان التفكير في الخُطَّة يُجاوِزُ أصلًا حقوقَ البوليس التي يُحدِّدها القانون!

وانتهى طَهوُ الطَّعام... لقد دَخَلَ المَرَقُ في كُلِّ ألوانه؛ منه صُنِعَت الملوخيَّة، وفيه سُلِقَ اللَّحمُ وحُمِّرَ. طَبقان فقط كانا خالِيَيْن من «الـ□يتوفالـ□يتين»: الجبنة البلدي، وطبق كبير من الملوخيَّة وُضِعَ في وسط المائدة...

وبدأ أهل المنزل -الذين يعلمون بالخُطَّة- يأكلون تبعًا لها؛ اتَّجهَت أيديهم إلى طبق الملوخيَّة مرَّةً واحِدَةً، وتَبِعَتهم يَدُ الخُطِّ إلى طبق الملوخيَّة مِثلهم، ومَضغَ آلُ عازر لُقمَتَهم الأولى ببُطءٍ وتُكاسُلٍ شديدَيْن، وهو نفس ما فعله الخُطُّ، وانتقل الرِّجالُ إلى اللقمة الثانية، ثم الثَّالثة، إلى الخامسة... كُلُّها من طبق الملوخيَّة، بنفس الطريقة، ونفس التَّباطُؤ! وظَلَّ الخُطُّ يَتبَعُهم فيما يفعلون؛ لم يَمُدَّ يده إلى اللحم، أو الصَّلصَة، أو الفتَّة.

وارتبك «آل عازر»؛ خشي الخواجة أن يكون الخُطُّ قد كشف اللعبة، وفجأةً دَخلَ صَبيٌّ صغيرٌ إلى مكان الطعام، وقف مُترَدِّدًا على بابِها، كأنَّه مُحتَجٌّ على أن أحدًا لم يَدعُه إلى هذه الوليمة الضَّخمَة، وكان الخُطُّ كَريمًا، ناداه، وأجلسه على فَخذه، وراح يُربِّت على كَتفِه، ثم مَدَّ يَده واقتطَعَ قطعةً من

اللحم المحمَّر، وناوَلها للصبي، الذي التهمها في نَهَمٍ، وبعد ثلاث دقائق مالت رأسُ الصَّبيِّ على ذراع الخط، وراح في سُباتٍ عميق...

وألقى الخُطُّ الصَّبيَّ على الأرض، وهَبَّ واقِفًا، والتقط بندقيته، واندفع خارِجًا من الدار!

وفشلت الخُطَّة، ولم يَبقَ من ذيولِها إلَّا الرُّعبُ الشَّديد الذي حاق بالخواجة محروس، الذي اعتبَرَ نفسَه مَحكومًا عليه بالإعدام، وفشلَت كُلُّ مُحاولاتِ الضَّابطِ لِطَمأنَتِه؛ فقد طَلَبَ منه أن يَنقلَه هو وأسرته إلى قلب مركز أسيوط، بعيدًا عن منفلوط كلها؛ ليعيشوا فيه تحت حماية البوليس، وأقنعه الضَّابِطُ أن هذا حَلٌّ غير عَمَليٍّ، ووَعَدَه بأن يَفرِضَ عليه حراسَةً مُشدَّدَة وهو في داره.

وبعد الحادث بيومين فقط كان هلال أفندي يتسلَّم الرِّسالَةَ الثَّالِثَةَ من الخُطِّ...

كانت رسالته الأولى هي تلك التي وَصَلته بعد مقتلِ عوّاد، أمَّا الثانية فقد جاءت قبل حادث الخواجة محروس بحوالي أسبوع، وكان نَصُّها:

«الضَّابط هلال..

هذا آخر إنذار لك بالقتل

(الخط)».

وبرغم أن «محمد هلال» قد نشر في مُذكِّراته نَصَّ وصُورَ هذه الرسائل إلَّا أنَّه لم يذكر بالتفصيل كيف كانت تَصِلُ إليه، لكن الشائعات كانت تُروِّج أيَّامَها عن الوسائل الماكِرَة التي لجأ إليها الخُطُّ لتوصيل رسائِلِه للبوليس، وممَّا قيل -مَثلًا- إن قائد فرقة المطاردة دخل مَكتبَه يومًا فوجد شخصًا ينظِّف زُجاجَ غرفةِ مَكتَبِه، وقد ظَنَّه أحدَ «أفراد المَصاريف»؛ وهم الأشخاص الذين تحكم عليهم المحاكِمُ بغرامَةٍ يَعجَزون عن دَفعِها، ويشتغلون في نُقَطِ البوليس مُدَّةً مُعيَّنَةً، بقيمة الغرامَة، وعندما انصرف هذا النَّفَر فوجئ الضَّابِطُ بأنه تَرَكَ له رسالةً يَسخَرُ فيها منه!

ورُبَّما يكون هذا قد حدث، ورُبَّما لم يحدث، لكنَّ الثَّابِتَ أن كثيرًا من الحكايات والأساطير قد راجت عن الخُطِّ؛ حكاياتٌ المُؤكَّدُ أنها ليست خَيالًا مَحضًا، ولو كانت كذلك فهي ذات دلالة على رؤية الوجدان الشعبيِّ للخُطِّ.

ونَقلًا عن هذه الحكايات نَشَرَت الصُّحُفُ -فيما بعدُ- الكَثيرَ عن الخُطِّ، وكثيرٌ ممَّا نُقِلَ يجعل قصَّةَ الخُطِّ تنويعًا جيِّدًا على لَحن «الأدهم الشرقاوي»، ويبدو أن «لحن الأدهم» -كرؤيةٍ للشَّقي-هو قيمةٌ ثابِتةٌ في الوجدان الشعبي، أنَّ ابن الليل دائِمًا ذكيٌّ وماكِرٌ، وصاحِبُ مَقالِبَ، يَسخَر من البوليس، ويُضلِّله، وهو رمز خيبَةِ السُّلطَة وغَبائها، إنه ذلك الفهلوي المصري، الحاوي، الذي يَلعَبُ بالبَيضَةِ والحَجَر، ويُخاطِرُ بنفسه ليهزَأَ بأعدائه.

وبرغم أن قصص مُغامَرات أولاد الليل هي خليطٌ من الدَّمِ والعُنفِ والخَوف، فهي تنتقل وتتواتَر دون أن تخلو من بَسمَةٍ أو نُكتَةٍ أو مَقلَب!

لقد أُشيعَ بين أهالي أسيوط -مثلًا- أن الخُطَّ قد قابل بعضَ مُطارديه من ضُبَّاطِ البوليس في أحد الأيَّام، وسألوه عن الطريق الذي يؤدِّي إلى أحد الأوكار التي كانوا يُطارِدون الخُطَّ فيها، فقادهم في الطريق لِمدَّةٍ من الزَّمن، وتَحدَّث معهم عن الخُطِّ، ثمَّ انصرف في هدوء... وهي قِصَّةٌ تكادِ تكون نَقلًا

حرفيًّا لِمَا وَرَدَ في «مَوَّال الأدهم» عندما قابَله مُطارِدوه، وسألوه عن الأدهم، وكان مُتنكرًا في زيِّ خواجة، وأخذ يُردِّد لهم: «الأدهم أنا ماشُفتوش»!

وسواءً صَحَّت هذه الحكاياتُ أم لم تَصِحَّ، فالثَّابِتُ أنَّ «الوجدان الشعبي» كان ينظر لمُغامَرات الخُطِّ بشيءٍ من الإعجاب بشجاعته وجَرأتِه، ويُسقِطُ عليه أحلامَه بأن يكون هناك من بين المُستَذَلِّين مَن يملك كلَّ هذا العُنفِ في مواجَهَةِ لُصوصِ العَرَق...

ولا يعني هذا أن الذكاء صِفَةٌ أُلصِقَت زُورًا وخيالًا بالخُطِّ، إنَّ الحقيقة أنه كان شديدَ المَكرِ والذَّكاء، كما أن كُلَّ خُطَطِ البوليس كانت تصل إليه أوَّلًا بأوَّل، وبِكلِّ تفصيلاتها الدَّقيقة، وهو ما يدفع للاقتناعِ أكثرَ بأنَّ بَحرَ الحِمايَةِ الواسِعَة الذي كان يُحيط به هو أوسع مدًى وأعمَقُ شعورًا من مجرَّد مجموعةٍ من الأتباع والذُّيول!

وصل الخطابُ الثَّالِثُ من خطابات الخُطِّ إلى هلال أفندي بعد فشل عملية آل عازر بيومين فقط، كان الخِطابُ يقول:

«الضَّابِط هلال..

استشهِدْ؛ ستموت يوم الأربع

(الخط)»

ونظر هلال أفندي إلى النتيجة أمامه، كان الخطاب قد وصله يومَ الثُّلاثاء، ومعنى هذا أن العملية ستُنَفَذُّ في الغد!

ومضى يوم الأربعاءِ بطيئًا طَويلًا، وكان هلال أفندي مُقيمًا في مقرِّه بعزبة خشبة، وفي العاشرة مساءً دخل رسولٌ من القرية عليه يقول إن عسكريًّا قد جاء وفي يَدِه ورقة، ويريد مُقابَلَة محمد أبو النجا -ضابط نقطة «التتلية»، وهي النقطة التي كانت تتبعها العزبة- ودخل العسكري فسلَّم ضابطَه إشارةً تقول بأنه قد تمَّ العثور على قتيلٍ مجهول مُصابٍ بأعيرَةٍ ناريَّةٍ في أحد المساكن...

وقال الكونستابل راغب شنن: «لازِم القاتل هوَّ الخُطّ...»، وتَحمَّس هلال أفندي الذي كان مُتوتِّرًا من الانتظار الطويل، وقرَّر أن يقوم فورًا مع ضابط النقطة لمُعايَنَةِ الجُثَّة، على أن يكتفيا بثلاثة عساكر فقط لمُصاحَبَتِهم، وتَحرَّك المَوكِبُ على الفور، غير أنَّه قبل أن يستمرَّ في طريقه اصطدَمَت يدُه مُصادَفَةً برسالة الخُطِّ في جيبه؛ فاكتشفَ الكمينَ الذي كاد يقع فيه، اتَّضحَت المسألَةُ على الفور: إن الحادِثَ كُلَّه هو الكمين الذي سُينفِّذ فيه الخُطُّ تهديدَه بقتلِ الضَّابط.

من البلاهة أن تتصوَّر بأنه سيهجم على مَقرِّك بعزبة خشبة، ومعك ستُّون رَجُلًا مسلَّحًا بأعتى الأسلحة، وإذًا فلا بُدَّ من مُبرِّر يُخرجُكَ إلى العراء؛ حيث تكون هدفًا لبندقيَّته هو، الذي لم يَبْقَ معك سوى رجلٍ واحدٍ؛ هو بمثابة كَلْبه الأَمين أبو الصالحين!

وبمُجرَّد تَكشُّف كَمينِ الخُطِّ أمامَ عين الضَّابِطِ عاد إلى حيث اصطَحَبَ فرقَةَ المَوتِ، بِكُلِّ أفرادها وأسلحتها، وقاد مُظاهَرَةً مُسلَّحَةً ضَخمَة، أَخَذَت تُطلِقُ النَّارَ في فضاءِ الحُقولِ المُلتحِفَة بظلام اللَّيلِ الدَّامي، كان هَدفُه من ذلك كُلِّه أن يُرهِبَ الخُطَّ، وأن يُخيفَه لِيَعدِلَ عن هُجومه، ويلوذَ بالفرار،

وهو يعترف في مُذكِراته بأنه كان مُقصِّرًا في تلك الليلة: «كان في إمكاني أن أقبض على الخَط في تلك الليلة، لولا أن كُلَّ تفكيري كان مُنصَبًّا على النَّجاةِ من خَطَرِه، لا على الإمساك به».

وعندما وصَلَت القُوَّةُ إلى مكانِ الجُثَّة لم تتعرَّف شَخصيَّةَ القتيل، ولا الباعِثَ على قَتلِه؛ الأمرَ الَّذي أَكَّد للضَّابط فِكرَتَه أنَّ العَمليَّة كُلَّها كانت فَخًّا لاصطياده.

وقَتلُ إنسان بريء لا دخلَ له بالصِّراع هو نَموذجٌ لذلك العُنفِ المُجرَّد الَّذي أصبح طابَعَ الخُطِّ في المرحلَةِ الأخيرةِ من حياته؛ لقد اختار إنسانًا لكي يَقتُلَه ويَجعلَ منه طُعمًا لأعدائه، هُنا ألقى حَجَرًا كبيرًا في بحر الحماية الواسعة الذي يُحيطُ به، بحرِ المُحايدين من النَّاس الذين كانوا لا يَخلون من العَطفِ عَليه، ولا يَبخَلون عليه بالحِمايَةِ والمَعونَةِ أَحيانًا!

ذلك أنَّ العُنفَ بلا قضيَّةٍ يَتوالَدُ ذاتِيًّا كخلايا السَّرطان...

الفصل العاشر

بَكارَةُ مُومِس!

عاد البحث من جديدٍ يدور عن طريقة لاصطياد الخُطِّ،- وقفزت على الفور الفكرَةُ القديمة: «فَتِّشْ عن المرأة»، وكان الدَّافِعُ لظهور الفكرة من جديد هو أن الخُطَّ كان قد اتَّخذ له عَشيقَةً جديدة، هي حميدة زوجة مدبولي، خفير وابور مالطي.

وَرَدَت أوَّل إشارة إلى هذه العلاقة في حديث محروس عازر، عندما قَدَّم تقريره الأول إلى محمد هلال، فقد ذَكَرَ له أنَّ الخُطَّ قد استقرَّ في وابور مالطي لأسبابٍ؛ كان على رأسِها غَرامُه بحميدة، ورغبته في الاستقرار بجوارها.

ولم تَكُن حميدة جميلةً، كانت قد جاوَزَت مرحلةَ الشباب، ويبدو أن الخُطَّ كان قد حوصِرَ تمامًا؛ فأُجبِرَ على الاكتِفاء بامرأة «نصف»، باعتبار أنها -على حدِّ تعبير الخواجة محروس- الموجودة والسَّلام!

وبسبب شِدَّة الحصار فإنه لم يَكُن قادِرًا على الهبوط من فوق قمَّة جبل «الشيخ بخيت» ليلتقي بزوجته رشيدة في منزلهما بدرنكة، كما كان يفعل في الماضي، وآخر مرَّة زار فيها أسرَتَه كانت بعد أن سقط آخِرُ أخوته «توفيق» صريعًا في معركةٍ مع البوليس.

وكان مقتل توفيق واحِدًا من الأسباب التي أحدَثَت أقسى التطوُّرات التي اعتَرَت الخُطَّ، وحَوَّلَته إلى ذِئبٍ بَشريٍّ حقيقي. كان توفيق قد هرب إلى الإسكندرية ليبعد قليلًا عن مطاردة البوليس له، وهرب معه أحدُ أعضاء العصابة، ويومًا، وهُما يسيران في ميدان الرَّمل، فوجِئا بِيَدٍ تُوضَع على كتِفِ كُلٍّ منهما، ومُسدَّسٍ مُصوَّبٍ إلى صدرَيْهِما، ولأن الإسكندرية ليست أسيوط فإن توفيق لم يَكُن يَحمِلُ مدفعًا في يده، ولكن هو وزميله كانا يُخفيانِ مُسدَّسَيْن صَغيرَيْن في جَيبَيْهما، لكن المُفاجَأة لم تُمكِّنْهما من إخراجه، وسقط توفيق...

وبرغم أنه استسلم للبوليس، فالظاهر -على حَدِّ رواية البوليس نفسه- أنَّه حاول الهروبَ، فأطلق البوليسُ الرَّصاصَ عليه وقتله.

ولقد ظَلَّ الخُطُّ ما بَقِيَ من حياته مُقتَنِعًا بأن البوليس قد اغتال توفيق، ودَبَّر تَمثيليَّةَ هُروبِه لِيَقتُلَه؛ تَخَلُّصًا من عجزه عن تقديم أيِّ مبرِّراتٍ قضائيَّةٍ تَكفُلُ مُحاسَبَته وعُقوبَته والحُكم عليه!

والمدهش في الخُطِّ، كان ذلك الحِسَّ القانونيَّ الغريب، فقد كان يثور لأنَّ البوليس يتجاوَزُ القانونَ ويستَخدِمُ الغَدرَ، ولا يَحتَرِمُ ما يَزعُمُ لنفسه أنَّه يُحارِبُ أبناءَ اللَّيلِ بِسبَبِ الخروج عليه.

لقد أحزنه مَقتَلُ تَوفيق حُزنًا ثَقيلًا، ونَقِمَ على البوليسِ إلى حَدِّ الجنون.

ليلَتَها هَبَطَ الخُطُّ من فوق قِمَّة جبل «الشيخ بخيت»، وكان الليلُ قد انتصَفَ، عندما فوجِئَت أُمُّه به في باحَةِ الدَّار، كان حزينًا كما ينبغي لِرَجُلٍ قُتِلَ أصغرُ أشقَّائِه، وأكثرهم تَفانِيًا في طاعته، وأحبُّهم

إلى قلبه، سقط قتيلًا في معركةٍ غادِرَةٍ... ومَدّ يده مُعزِّيًا أمَّه، التي قالت: «البَرَكة فيك...».

ودخل ليرى زوجته، وحَمَلَت الأمُّ الرَّهيبَةُ مدفع «التومي جَن»، وخَرَجَت كَعادَتِها تَحرُسُ البابَ، ولم يَمكُث الخُطُّ سوى ساعَةٍ واحِدَةٍ، غادَرَ بعدَها الدَّارَ، ولم يَعُدْ من يومها، ولم تَرَه رشيدة أبدًا بعد ذلك!

وكانت سميرة قد هاجَرَت من أسيوط، تَرَكَت الجنيزة إلى غَيرِ عَودَة؛ فبعد مُقابَلَتِها العاصِفَة مع قائِدَيْ فرقَةِ المُطارَدَة وَضَعها البوليسُ تحتَ مُراقَبَةٍ شَديدة، حالَت دون اتِّصال عَشيقِها بها، وضاقَت بالمُراقَبَة، التي كانت تُهدِّدُ أيضًا مَصدرَ رزقِها في حَيِّ البغاء؛ فانتهَزَت فُرصةً تَراخَت فيها عيونُ البوليس، فهاجَرَت إلى المنيا، ومن هناك جاءَت الأنباءُ بأنَّها تَشتَغِلُ في حيِّ البغاء في المنيا، لدى واحِدَةٍ من «معلِّماته»، اسمها زينب!

وبِتَجَمُّع هذه المعلومات في يَدِ محمد هلال قرَّر أن يُطبِّقَ القاعِدَة الفرنسيَّةَ تَطبيقًا خاصًّا؛ سيحاوِلُ أن يُثيرَ غيرةَ كِلتا المَرأتَيْن: رشيدة: الزوجة المَهجورَة، وسميرة: العشيقة المُهاجِرَة- من حميدة: عشيقة الخُطِّ الجديدة، وساكِنَةِ وابور مالطي؛ لعلَّ هذه الغيرةَ تدفع واحِدةً منهما -أو كِلتَيْهِما- للانتقام من الحبيب الغادِرِ، بِتَسليمِه للبوليس، وقَرَّر أن يبدأ برشيدة.

هبط من الجبل يومَ سوق درنكة، ومعه الجاويش «الغول»، أحد أفراد فرقة المطاردة، وقد تَنكَّر في زيِّ أولاد الليل، وعندما اقتربا من المنزل قابَلَا «خالتي فضَّة» التي كانت في طريقِها إلى السوق، وعلى رأسها قُفَّةٌ بها أَربَعُ بَطَّاتٍ، فتعثَّرَت في حَجَرٍ، فوقعت منها القُفَّة، وهرَبَت البَطَّاتُ، فاستغاثَت بالغول وهلال اللذيْنِ كانا بجوارها، وساعداها على الإمساكِ بِبَطَّاتِها الشَّارِدات، فأعادتهم إلى قُفَّتها، ومَضَت دون كلمة شُكرٍ!

ودَلَفَ الرَّجُلان إلى دار الخُطِّ، فوَجَدَا نَفسَيْهما وجهًا لِوجهٍ أمام رشيدة، التي جلَسَت على باب دارِها تُرضِعُ طِفلَها هاشم...

قَدَّم محمد هلال نفسه وزميله باعتبارهما من مطاريد أبنوب، ضاقت بِهِما الدُّنيا بعد أن قَتَلَت الحكومةُ «رَيِّسَهما» في الحوض؛ فجاءا يحتميان في دار الخُطِّ (وكان هذا واحِدًا من تقاليد الفروسيَّة التي حافَظَ عليها أولاد الليل)، واستمرَّت المُحادَثَةُ فترةً، وسألها الرَّجُلان عن الخُطِّ، فنَظَرَت إلى الجبل، وقالت إنها لم تَرَه منذ شهور.

وبدأ هلال أفندي يَطرُقُ على الحَديدِ وهو ساخِن، قال إن الخُطَّ «قلبه جامد»، وأنَّه شَخصيًّا برغم مُطارَدَةِ الحُكومَةِ له فإنَّه لا يطيقُ بُعْدَ زَوجَتِه، وألقى بنظرةٍ ذاتِ مَعنى إلى ملابِسِ رشيدة الفقيرة، وإلى الدار التي كانت تصرخ بالفقر، ثمَّ تَحدَّث عن زوجته التي يُحِبُّها، ولا يعود من غَزوَةٍ أو يحصل على إتاوة، أو يشترك في مَعرَكَةٍ- إلَّا وجَلَبَ لها من نفسه من الغَنائِم هَديَّةً ثَمينةً، لدرجة أن لديها الآن مَصوغاتٍ بمئاتٍ من الجنيهات. ليس هذا فقط، هو أيضًا ابنُ لَيلٍ ناصِح؛ فهو يشتري بما يتجمَّع لديه من الغنائم أرضًا، يَكتُبُها باسم زَوجَتِه؛ لِيَضمَنَ مُستَقبَلَها ورِزقَ عِيالِها!

ثُمَّ انتقل يُحدِّثها بِخُبثٍ عمَّا «يُشاع» في أوساط أبناء اللَّيل من أن للخُطِّ عَلاقاتٍ واسِعَةً بـ«نسوان» كثيراتٍ، وقال بعد لحظةِ تَمَنُّعٍ -كأنَّه لا يريد أن يتوسَّع في الحديث- إنَّه سَمِعَ أن للخُطِّ «رفيقة»، وهي امرأةٌ ساقِطَةٌ خائِنَة، تَتَجَسَّسُ للبوليس، ومع ذلك فإنَّ الخُطَّ يُنفِقُ عليها نقودًا كثيرةً،

كان ابنَه هاشِم أوْلى بها، وهي غير مُخلِصَةٍ مع هذا؛ فبعد أن عَصَرَت الخَط عَصْرًا هَرَبَت من أسيوط، وتزوَّجَت هناك أحدَ عساكِرِ البوليس، وهو يتمتَّع الآن بِكُلِّ ثَروَتِها الَّتي جَمَعَتها من بَلاهَةِ الخُطِّ وتَبذيرِه!

واستمرَّ هلال أفندي قائِلًا:

- البِتّ سميرة دي مُصيبة... إن ماسَلِّمِتْش الخُطّ للبوليس أبقَى أنا ما اعرفش حاجة.. مش كده والَّلا إيه يا غول؟

وإذا بالغول يَرُدُّ ردًّا لم يَكُن مُتَوَقَّعًا بتاتًا، قال:

- مظبوط يا افندم.. عندك حَقّ يا سعادة البيه!

وكشَفَت كَلماتُ الغول -الذي سَرَحَ أثناءَ الجلسةِ- سِرَّ أولاد اللَّيل المُتنكِّرين، وبعد فترةٍ من السؤال المُلِحِّ من رشيدة، كاشَفَها محمد هلال بشخصيَّتِه، وأخرج من جيبه جُنيهًا دَسَّه في صَدرِ هاشم، وبدأ يُحدِّثها عن علاقَةِ حميدة بالخُطِّ، وكانت تَجهَلُ سِرَّ هذه العَلاقَةِ الجَديدَة، وقال لها إنَّ الخُطَّ «مقتولٌ مَقتول، أو مَسجون مسجون، وأهم شيء الآن هو تأمين حياتِك أنتِ وهاشم، وأنا أَعِدُكِ بأن أسعَى لتحقيق ذلك لكِ ولولدك؛ فالخُطُّ وهو طليقٌ الآن لن يُفيدَكِ في شيء، بل ويَضُرُّكِ ويُؤذيكِ، حتى إنَّ الأرملَةَ هي أحسنُ مِنكِ حالًا...».

ولم تَرفُض رشيدة حديثَ الضابط وهو يؤكِّد لها بالمنطق أنَّ من الخير لها ولِوَلَدِها أن يُخرجَ الخُطَّ من حياتها؛ فهو يَظلِمُها بأفعاله، ويَكويها بعاره، ولا يدفع لها مِلِّيمًا واحدًا من مئات الجنيهات التي يُحصِّلها، وفضلًا عن ذلك فهو غير مُخلِصٍ لها؛ لقد غَدَرَ بها وخانَها، فلماذا تُخلِصُ هي له؟!

كان الحديث بمُجمَلِه يَلعبُ على وترٍ حسَّاس في نفسها، وهي تتذكَّر المَرَّات الأخيرةَ التي كان الخُطُّ يَهبِطُ فيها من الجَبَل، فيَسحَبها بلا سَلام ولا كلام إلى الحُجرَة، وفوق مرتبةٍ حَقيرةٍ، وحصيرة، يُمارِسُ معها الحُبَّ صامِتًا، ثُمَّ ينصرف عائِدًا إلى الجَبل دون أن يتنفَّس بكلمة؛ ولذلك لم تَندَهِشْ أو تَعتَرِضْ عندما طَلَبَ منها الضَّابِطُ أن تُبلِغَه بأخبار الخُط. إن الطَّلَبَ في حَدِّ ذاته لم يُثِرْ استنفارَها، أو يَستفِزَّ غَضَبَها، تَقبَّلَته ببساطَةٍ، وأبدَت عدمَ قُدرَتِها على تنفيذه لسببٍ آخر تمامًا، هو أنها لا تعرف له أخبارًا، ووَعَدَت بتقديم هذه الأخبارِ إذا ما وصَلَت إليها!

كان كلا الاثنين -الخُطِّ ورشيدة- قد أصبح غريبًا عن الآخَر تمامًا.

وصحيحٌ أنَّهما زوجان منذ أكثر من عشر سنوات، وبينهما ولدٌ، إلَّا أنَّ تركيبة الخُطِّ الإنسانيَّة كانت قد اختلَفَت وتَغيَّرَت نتيجةً لِغُربَتِه وتَوَحُّشِه. إنه لم يَعُد هو نفسه محمد الذي زُفَّت إليه وهي في التَّاسِعَة، والذي لم تَرفُض من سلوكِه -وقتَها، وبَعدَها بقليل- شيئًا.

لم تَكُن المسألة هي علاقاته النسائيَّة، رغم أنها كانت تُقلِقُها، ولكنَّها أصبَحَت حالَةً من الانفصام الكامِل بينهما، فما أكثر الرِّجال الذين كانوا يتزوَّجون أخرَياتٍ في الصعيد، إن هذا لا يبدو سَببًا كافيًا لكي تقبلَ رشيدة أن تُشارِكَ في تَسليمِه، لكنَّ المسألةَ كانت أعمَقَ من هذا؛ كانت مَسألَةَ ذلك الانفصامِ النَّفسيِّ والجَسَديِّ الذي عَزَل كُلًّا منهما عن الآخر، وبنى بينهما جدارًا من الثَّلج.

كان العُنفَ الواقِعُ على الخَط -والصادر منه- قد حفر أخاديدَ عَميقة في قلبه ووجدانِه، وغيَّر من بنيَتِهِ الإنسانيَّة، ولأنَّ رشيدة ظَلَّت على ما هي عليه؛ فإنَّها لم تُدرِكْ أبعادَ ما حدث لزوجها إذًا عندما اكتشَفَت تَدريجيًّا أنَّ الذي يُشارِكُها فِراشَها -في لحظاتٍ مَحدودَةٍ- هو شخصٌ غريبٌ تمامًا عنها.

وبرغم أن رشيدة كانت مُستعدَّةً نفسيًّا للمُشارَكَةِ في تسليم الخُطِّ، فإنَّها -واقِعيًّا- لم تَكُن مُفيدةً؛ فهي غريبةٌ عن الخُطِّ، بِكلِّ مَعنى الغُربَة، لا تعرِفُ شيئًا عنه: أين يُقيم، ومَتى يأتي، وأي طريقٍ يَسلك...

وفي زيارَتِه الثانية لها -وكانت يومَ السُّوق التَّالي- جاء هلال أفندي وحده، لم يَكُن قد حَقَّق طوالَ أسبوعٍ كامِلٍ أيَّ تَقدُّمٍ؛ فقرَّر أن يُحاوِلَ مرَّةً أخرى مع رشيدة؛ لَعلَّها كانت تَمكُرُ به، أو رُبَّما كانت تُخفي شيئًا.

وفي التَّاسِعَة صباحًا كان واقِفًا أمامَ دارِ الخُطِّ، ودخل، طَرَقَ أذُنَه بُكاءُ هاشم، وصوت رشيدة تقول غاضِبَةً ومُحنَقَة: «انْسَدّ يا ابن الكلب.. مَرَّرت عِيشتي.. إلهي يعَيَّطوا على أبوك»! وتفاءَلَ بالسِّباب، وبما يَعكِسُه من علاقاتٍ مُهشَّمَةٍ بين الخُطِّ وزَوجَتِه، وبعد لحظاتٍ كان يَجلِسُ معها على باب الدار. كانت أتعسَ حالًا من المَرَّة الأولى التي زارها فيها، قال لها في مرارَةٍ:

- انتي رشيدة؟! انتي مرات الخُطّ اللِّي عامِل نَفسُه سيد الرِّجَّالة! مش لاقية هِدمَة تُستُرِك!.

وجَرَت دموعُ رشيدة وهي تقول:

- تِصَدَّقْ بالله... أنا لو ألاقي تَمَن السِّم لاسِمُّه هُوَّ وامُّه فَضَّة!

ووجد نفسه يُردِّد بلا وعي:

- سِمّ؟ عاوزَة سِمّ تقتلي الخُطّ!

وشَرَدَ الضَّابِطُ بفكره بعيدًا... إنها طريقةٌ سَهلَةٌ ومَضمونَة: زوجة الخُطِّ تَضَعُ له السُّمَّ في الطَّعام، ولكن هل يُوافِقُ المَسؤولون على ذلك؟ وهل يُمكِنُ دَسُّ السُّمِّ للخُطِّ بموافَقَة الحُكومَة، وتحتَ إشراف ضابِطٍ من ضُبَّاطها؟ وما مدى مَشروعيَّة هذه الوسيلة؟!

وأفاق من شرودِه على صبيٍّ يَندَفِعُ من البابِ، ويهمِسُ لأمِّ هاشم بشيء ثم يَنطَلِقُ خارِجًا في لَمحِ البَصَر... ووَقفَت رشيدَة وهي تُردِّد في فَزَع:

- محمد جاي... محمد جاي.

كانت في حالَةٍ عصبيَّةٍ فَظيعَة، وبسرعةٍ وَقَفَ الضَّابِطُ وسَألَها عن حُجرَةِ الخُطِّ، فأشارَت إليها، فدخل مُسرِعًا، وكَمَنَ خَلفَ الباب، ويَدُه تُخرِج من جَيبِه مُسدَّسه الصَّغير سريعَ الطَّلَقات.

وظَلَّ الضَّابِطُ واقِفًا لحظاتٍ بَدَت كَعُمرٍ كامل؛ لم تكن ثقتُه برشيدة مُطلَقة، فقد يكون الأمرُ كُلُّه انفعالًا طارئًا، وماذا يحدث لو فاجَأت رشيدة الخُطَّ عند دخولِه قائِلَةً: «حاسِبْ يا محمَّد.. فيه واحد واقِف لَك ورا الباب»؟!

على أن الموقِفَ لم يَطُلْ، فَبعدَ لحظاتٍ قَصيرَةٍ دَوَّى طَلقٌ ناريٌّ، ثُمَّ جاوَبَته طَلَقاتٌ سريعة مكثَّفَة، وساد الصَّمتُ بُرهَةً، ثمَّ بدأ النَّاسُ يَجرون نحوَ مَصدرِ الصَّوت، وخرج هلال أفندي، فوَجَدَ

صبيًّا في الخامِسة عشرة مُصابًا بِعيارٍ ناريٍّ في ذراعه، وكان يَهدِرُ مُهَدِّدًا شخصًا صعد -فيما يبدو- قمَّةَ جبَل «الشيخ بخيت».

وكان الخُطُّ قد قَتَلَ أخاه الأكبرَ، فأَقسمَ أن يثأر له، ولم يَتصوَّر الخُطُّ -ولا أيُّ إنسانٍ آخر- أنَّ الصَّبِيَّ الذي لم يَتجاوَز الخامِسةَ عَشرةَ يُمكِنُ أن يُفكِّر في هذا، أو يَقدِرَ عليه، ولكنَّ الغُلامَ ظَلَّ يترصَّدُ الخُطَّ في حَقل الذُّرة، إلى أن شاهَدَه يَهبِطُ من الجَبَلِ لزيارَةِ زَوجَتِه، فَفَتَحَ عليه النَّارَ، ولقلَّةِ خِبرتِه فإنَّه لم يستطِع أن يصيبه، وظنَّ الخُطُّ -غالِبًا- أنَّ هناك كَمينًا كبيرًا في الذُّرَة، فبادَرَ بالفرار، والعودة إلى الجبل.

ولم يَجِد الضَّابِطُ مُبرِّرًا للعودة إلى دار رشيدة؛ فعاد إلى فكرَةِ عشيقَتِه، وبرغم أنه انفَعَلَ فَرِحًا بمحاوَلَةِ الصَّبيِّ الصغير الفاشلة، فإنَ المُشكِلَة كانت ما تزال قائِمَةً: إن رشيدة التي أبدت استعدادًا نفسيًّا لتسليم زوجها، ليست هي الكَمَّاشَة المُلائِمَة، والخُطُّ بعدَ مُحاوَلَةِ غُلامِ درنكة سيعتَبِرُ أن قريتَه لم تَعُد دارَ أمانٍ، ولن يَهبِطَ من الجَبَلِ مَرَّةً أخرى إلَّا بعد شهور.

وإذًا... فما العمل؟

سَميرة!

***

وبعَكسِ رشيدة، فإن ملكة الجنيزة كانت أكثرَ قُربًا من الخُطِّ، واتِّصالًا به، وإذا كانت الزَّوجَةُ مُستعدَّةً إلى هذه الدَّرجة لتسليم زوجها، فما بالُكَ بالعَشيقة! إنها على الأقَلِّ لَيسَت «سيِّدَةً مصونًا»، وأخلاقُها هي ذلك النَّوع من الأخلاق الذي يَسمَحُ لامرأةٍ بأن تَبيعَ جَسدَها في سوق المُتعَة.

إلى المنيا سافَرَ هلال أفندي، ومن مَحطَّتِها استقلَّ عربة «كارُّو»، وطلب من سائقها أن يَذهَبَ به إلى بَيت المعلِّمة زينب، فابتسمَ السَّائِقُ بِخُبثٍ، وفي الطَّريق تَوقَّف لحظاتٍ ريثما عاد بعدد أرطالِ اللَّحم، وفواكه، وزجاجة كونياك.

واستقبَلَته المعلِّمة باعتباره زبونًا طيِّبًا، تدلُّ على ذلك هيئتُه، وما جاء به! وجاءته سميرة، التي بُهِتَت عندما رأته بعد اللقاء الحاد الذي كان بينَهما بأسيوط.

وحاول أن يجسَّ نَبضَها:

- أجيب لك ويسكي؟

- اللي تشوفه؟

- لسه بتحبِّي الويسكي؟

- أبدًا.. أشرَب كونياك.. نبيت.. بوظه.. اللي انت جايبه دلوقت!

كان واضِحًا أنها انكسرت شيئًا ما، وإذًا فقد أضحَت كالأُخرَيات، بعد أن هجرها الخُطُّ. وفكَّر أن يستمرَّ في إذلالها، لكنَّه رأى أن ذلك لَن يُفيدَ خُطَّتَه، وفضَّل أن يَغمُرَها بعَطاياه، وأن يُقدِّمَ دَليلًا على كَرَمِه، ويهيِّئ الفرصةَ للمُفاوَضَة، وأخرجَ الجُنيهات الخَمسَةَ وطَلَبَ من المعلِّمة أن تشتري زجاجةَ ويسكي.

وفي ظل الجَوِّ الطيِّب الذي انتشر بعد خروج المعلمة لشراء الويسكي بدأ المُناقشة مَعها، وطلب منها بصراحَةٍ أن تُساعِدَ الحُكومَةَ في القَبض على الخُطِّ، وبَنى طَلَبَه على أنَّ الخُطَّ قد أكَلها لحمًا ورماها عَظمًا، وذَكَرَ لها أنباءَ غرامِه بحميدة، وإقامَتِه في وابور مالطي بجوارها، وأنها ستكسب نقودًا من هذه العملية حوالي خمسمائة جنيه، تَستُر بهم نَفسَها، وتعيش في أمانٍ.

وكان منطق سميرة واضحًا وبدائيًّا، قالت إنَّ الحُبَّ والكراهية من أمور القلب؛ فليسَ بِيَدِها أن تُحبَّ الخُطَّ أو تَكرهه؛ لأنَّ الذي فَرَضَ عليها هذا الحُبَّ هو قَلبُها.

واعترضَت على وصف الضَّابِطِ له بأنَّه مُجرِم، قائِلَةً إنها لم تُحِبَّه بشروط؛ فلا شروطَ في الحُبِّ، لقد أحبَّته «والسَّلام». صحيحٌ أنَّها لم تُحبَّه بسبب إجرامه؛ إذ لو كانت تسعى وراءَ مُجرمين لَمَا عَزَّ عليها أحدُهم، ولَنالَت منهم الكثيرَ، وأكثرَ من الكثير، ولكنها أيضًا ليست ضدَّ هذا الإجرام؛ لأنها تُحبُّ الخُطَّ بكلِّ عيوبه ومَحاسِنِه.

وعن الإجرام تحدَّثَت سميرة ببساطَةٍ وصِدقٍ، وقالت إن الحياةَ إجرامٌ من البدايَةِ إلى النهاية، وأن الناس مُجرِمون، ولكنَّهم يختلفون في نصيبِهم من الكَذِب، باختلاف قُدرَتِهم على إخفاء جَرائِمِهم وسَتْرِ إجرامهم، والسَّبَبُ في شُهرَةِ الخُطِّ الإجراميَّة -دون غيره- أنه مُجرِمٌ صادِقٌ، صَريحٌ، لم يَطْلِ حقيقتَه بمادَّة الكَذِب، ولم يُحاوِل إخفاءَ شَخصيَّته.

ودُهِشَ الضَّابِطُ لمنطق سميرة البسيط. والواقع أنَّ كائِنًا مثلها لا بُدَّ له أن يَعي الحياةَ بهذا المَنطِق العَميق في تلقائيَّته.

وكان مُحتَّمًا -وهي الَّتي طُحِنَت تمامًا في معركة الحاجة، إلى الدَّرجَة التي اضطرَّت فيها لبَيعِ جَسَدِها، وأصبَحَت عَبدَةً بِكُلِّ معنى الكلمة- أن تكونَ لها مَفاهيمُ مُختَلفةٌ للخَير والشَّرِّ غير تلك التي يُروِّج لها قاهِروها؛ ولذلك رَفَضَت سميرةُ بكبرياء وأنَفَة أن تُشارِكَ في الإيقاع بالخُطِّ، وقالت إنه شابٌّ طيِّبٌ، فيه ذَخيرَةٌ وَفيرةٌ للرُّجولَةِ النَّادِرَة، وأنه عَطوفٌ ورَقيقُ القلب، وأنَّه كان صادِقًا في حُبِّها؛ كان يَغارُ عليها، وكم بَكَى وبَلَّلَت دُموعُه عَتباتِ دارِها، شأنُه شَأنَ الحَبيبِ الذي يَشعُرُ ويحسُّ.

وفشَلَت كُلُّ مُحاوَلات محمد هلال لإغرائها بالمال، وبينما هو يُفكِّر كيف يُغلق بابَ المُفاوَضَة دون أن يَدَعَها تَشعُرُ بأنَّه هُزِم- جاءت المعلِّمة.

وربَّما هي الخَمر، وقد تكون لفتةً من لَفَتاتِ المعلِّمة، أو كلمة من شلَّال الكَلماتِ الفاضِحَة التي تَسلَّلَت من فَمِها... شيءٌ غير مفهومٍ حَدَث؛ جَعَل الضَّابِطَ يحاول مرَّةً أخرى، وجعل مُحاوَلَتَه هذه المَرَّة مع المعلِّمة.

فجأةً، وبلا مُقدِّمات، تَوجَّه إلى المعلِّمة زينب سائِلًا:

- يامعلِّمة يا تُفَّاح خالِص.. تِحبِّي تكسبي خُمسمية جنيه؟

ويبدو أن العُنفَ يَنعَكِسُ على النَّاس بشكلٍ مُتفاوِت. إنَّه يُحدِثُ عُنفًا بديلًا في كلِّ الأحوال، ولكنَّ اتِّجاهَ العُنفِ هو الذي يَختَلِف، فبينما وَعَت سميرةُ حقيقةَ العُنف الذي وقَعَ عليها؛ بما جَعَلَها تعتبر نَفسَها حَليفَةَ الخُطِّ، فإن عُنفَ المعلِّمة كان نَوعًا من الكَراهِيَة العامَّة لكُلِّ النَّاس، والشَّبَق للإضرار بِهِم والكسب من ذلك... نَوعٌ من المَوتِ الكامل للضَّمير واللا إحساس بالمسؤوليَّة.

وشرح هلال أفندي للمعلمة ما يريد منها؛ أنّه يريد أن يقتَرِضَ منها سميرة لمدّة ثلاثة أيَّام.

كان هناك «مُولِد» لأحد الأولياء يُقام في إحدى القُرى القَريبَةِ من جحدم، وكانت خُطَّةُ الضَّابِط تقوم على أساس استغلال المولد ليكون كميناً لاصطياد الخُطِّ، سوف يُقيمُ خَيمةً وقَهوةً في المولد، تَرقُص فيها سميرة، وسيَعرفُ الخُطُّ طبعًا أن عشيقَتَه -التي يُحِبُّها- تَرقُص على مَقربَةٍ منه؛ فيترك وابور مالطي، ويأتي ليراها- وتلك هي الفُرصَةُ الذَّهبيَّة لاصطيادِه والقَضاءِ عليه!

ومن المستحيل أن تَنجَحَ خُطَّةٌ مُحكَمَةٌ كهذه دون مَعونَةِ سميرة!

وبكبرياءٍ أعلَنَت سميرة أنها لن تفعلَ شَيئًا من هذا، وأنَّ ما يطلبه الضَّابِطُ من المُستَحيلات، ولن يَحدُثَ، حتَّى ولو رأى نجومَ الظُّهر... ونظر الضَّابِطُ للمعلِّمة، وكَرَّر الحَديثَ عن الجُنيهات الخمسمائة، وقالت المعلِّمة:

- يا بِتّ يا مُغفَّلَة.. إيه عاجبِك في العيشة المنَيِّلَة دي! خُمسمية جنيه يا مجنونة! أكسيكي.. أصَيَّغِك.. أجَوِّزِك، وأكتب لك نُصّ البيت...

بَكَت سميرة:

- يا نِينْتِي مستحيل.. مش مُمكِن يِهُون عليَّا الخُطّ.. إمسكوه بعيد عني.. إقتلوه.. إدبحوه بعيد عنِّي.. مستحيل يا نِينَة!

وهي تقول كلماتِها الأخيرةَ صارِخَةً وباكِيَةً قامَت إلى حقيبَةٍ ضَخمَةٍ، وأخَذَت تُكوِّمُ مَلابِسَها فيها، مُعلِنَةً أنَّها سترحَلُ، وأنَّها تُفضِّل الجوعَ والعَيشَ بلا عَمَلٍ أو رزقٍ على ما يُطلَبُ منها...

وكان رَدُّ المعلِّمة أن أطلَقَت من حَلقِها صوتًا إباحيًّا يَطفَحُ بالسُّخرية، وفي لحظةٍ واحدة انقلبت سِحنَتُها انقلابًا مُروِّعًا، أصبحَت لَبُؤةً هائِجَةً وثائِرَة، تُهدِّد بوحشيَّةٍ، وتنطِقُ بكلماتٍ فظيعَةٍ عن الخُطِّ وسميرة، وتُؤكِّدُ استعدادَها لاستئجار فَحلٍ آخرَ يُرضي نوازِعَ سميرة بدلًا من الخُطِّ الذي لا تستطيع أن تستغني عنه.

وفي لحظاتٍ اختطَفَت المعلِّمة كُرباجًا أسودَ، وكَشَّرَت عن أنيابِها، وانقضَّت على الجَسَدِ الرَّخصِ اللَّيِّن، جَذَبَت سميرة من شَعرِها جَذبةً ألقَت بها على الأرض في عُنفٍ، ورَفَعَت الكُرباجَ الأسود، ووَطِئَت الصَّدرَ الرَّقيقَ الفاتِنَ -الذي طالما تَعبَّد فيه العاشِقون- بأقدامها الوَحشيَّة، ورَفَعَت يَدَها بالكُرباج ليُرسِلَ فَحيحًا في الهواء، ثم ليهوي على بَدَنِ سَميرة...

وكما يتحمَّل المُتصوِّفةُ عذابَ الجَلْدِ من أجل ما يعشقون، تَحمَّلَت سميرة العذابَ صابِرَةً، وظَلَّت مُصِرَّةً على مَوقِفِها.

ووقَفَ محمد هلال صامِتًا، رغمَ ألَمِه. كان لا بُدَّ مِمَّا ليس منه بُدٌّ، فكَّر لَحظةً في أن يَحتجَّ على وحشيَّةِ المعلمة، لكنَّ احتجاجَه لم يَتجاوَز خلايا مُخِّه، وفَكَّر -حائِرًا- كيف أن البنتَ قد خَجِلَت من كلمات المعلِّمة، وعَلَت مَلامِحَها السَّمراءَ حُمرَةُ خَجلٍ، شأنَ مَن ينظر لهذه العلاقة نَظرَةَ تَقديسٍ.

ولأنَّ العُنفَ -عندما يكون بلا قضية- يتوالَدُ ذاتيًّا كخلايا السَّرطان، فإن الحدودَ فيه تتمحي بين رَجُلِ القانون والخارجِ عليه، وبين حَفَظَةِ الأمن والعابِثين به... وهكذا وقف محمد هلال يُشاهِدُ عمليَّةَ تَعذيبٍ بَشِعَةٍ لإنسانٍ مَطحونٍ، يَجري على رِزقِه، مُتحمِّلًا عذابَ بَيعِ النَّفسِ والغَرائِزِ والرَّغَبات-

يُشاهِدُ كل هذا صامِتًا، ومُقِرًّا، دون أن يتدخّل أو يمنع كما يَقتَضيه واجِبُه، والقَسَمُ الذي أقسمه عندما دخل في سِلْكِ البوليس. وكان ذلك كله قاسِيًا؛ فخلال هذه المعركَةِ الدَّامِيَة فكَّر -وهو ضابطٌ بوليس ورجل قانون- أن يَسُمَّ الخُطَّ وأُمَّه، وبصَرفِ النَّظَر عن أن هذا عملٌ غير قانوني بالنِّسبَة للخُطِّ نفسه، فإنَّه كان جريمَةً مُتكامِلَةَ الأركان بالنِّسبة لـ«خالتي فضَّة»؛ إذ ما ذَنبُها لكي يُفكِّر في تَسميمِها... إنها بريئةٌ تمامًا أمام القانون.

ليس هذا فقط، بل إنه فكَّر أيضًا في الاستعانَةِ بزوجَةِ الخُطِّ في الإيقاع به، وفي ذلك قَسوةٌ بالِغَة؛ ذلك أنَّ قواعِدَ القانون في المُجتَمعات المُتحضِّرَة كانت تُحرِّم دائمًا سَماعَ شهادة أحد الزَّوجَيْن ضد الآخر، والأبناءِ ضدَّ الآباء؛ حمايةً لعلاقات الرَّحِم، وحِفظًا على وشائِجِ القُربَى.

لكن يبدو أنَّ المسألَةَ كُلَّها أن أحدًا لم يَكُن يَحتَرِمُ حريَّة الإنسان أو كرامته أو حقوقه، وحقوقُ الأبرياءِ تمامًا -بلا أيِّ شُبهَة- تُهدَر عَلَنًا كلَّ يوم، فهل تَنتهي به مُطارداتُه للخُطِّ إلى أن يُصبِحَ «خُطًّا» آخر، من ناحية الجَوهَرِ على الأقل؟!

كانت البنتُ ما زالت تَصرخُ وقد مَزَّق السَّوطُ ثَوبَها، وكَشَفَ عن جُزءٍ من فخذها الأسمرِ الجَميل، ومَدَّت يَدَها تُغطِّيه بالثَّوب -حياءً أو وقايَةً- من جَلدَتَيْن من جَلدات المعلِّمة، فأصابَت الثَّانيَةُ كَفَّها التي كانت تَقبِضُ على طَرفِ الثَّوب، ودُموعُها تَسحُّ في تَدَفُّقٍ غريب من عيونِها الزَّرقاءِ الجَميلة...

وأخيرًا قالت البنت:

- طيِّب.. أَرقُص.. سيبيني وأنا أرقص...

خَرَجَ الضَّابِطُ من جموده وسارع بكتابَةِ صَكٍّ بالخمسمائة جنيه، مَضمونُه أنَّ المعلِّمة زينب وسميرة كان لهما الفَضلُ في الإرشاد عن مخبأ الخُطِّ؛ ولذلك فإنَّهما يستحقَّان نصفَ المُكافأة التي عَيَّنَتها وزارةُ الدَّاخِليَّة لِمَن يُرشِدُ عنه.

وانطلق الضَّابِطُ من جموده، وكان ما زال خاضِعًا لإحساسه المُرِّ بالمَهانَةِ لِمَا حَدَثَ أمامَه، وكانت البنتُ -المُومِس، التي بلا عرضٍ ولا شَرَفٍ- تشعر بأنَّها أقوى منه برغم كلِّ ما حدث لها، وقد وَصَفَ هذه اللحظاتِ المريرةَ قائِلًا: «كان الظَّلامُ حَولنا والصَّمتُ بيننا. كنتُ أُعاني أَلَمًا نفسيًّا مريرًا. أعاني خَجلًا شديدًا من مَوقفي إزاءَ سميرة. لم يَكُن كُرباجُ المعلِّمة زينب أداةَ جَلْدٍ، بل كان عَلَمًا في مَملَكَةِ العبوديَّة، كان يَعني أن سميرة إنَّما هي جارية للمعلِّمة زينب؛ تتصرَّف في بَدَنِها كيفما تشاء: تهديه للرِّجال، أو تَجلِدُه بالسِّياط»!

وأخرَجَته سميرة من خَواطِره بِكلماتٍ كالسِّياط التي انهالَت عليها، قالت:

- كُلُّكم مُجرمين.. الدُّنيا كُلَّها: الخُطّ، وانت، وغيركم... بس الفَرق بينك وبين الخُطّ إنُّه مش كَذَّاب...

***

في المولد أقامَت فرقَةُ الموت خَيمَةً صغيرةً لسميرة لتكونَ مَحلَّ إقامَتِها، ووُزِّعَت حولَها حراسَةٌ خفيفةٌ لمُراقبَتِها، وأُعِدَّت خيمةٌ أخرى كبيرةً واسِعةً لتكون مكانًا للمَقهى والمَرقَص، وفي رُكنٍ

منها أقيمَت «نَصبَة» لأدوات الشاي والقهوة والدّخان، وغيرها من الطلبات، وفي صَدرِ الخَيمَةِ كانت هناك خَشبَةٌ صَغيرةٌ للمسرَح، رُصَّت أمامَها الدِّكَكُ والكَراسي في صفوف مُتراصَّة.

واستخدَمَت «فرقة المَوت» فرقةً موسيقيَّةً من أفضل وأرقى فِرَق المولد بالصَّعيد، وعلى النَّصبَة وقف أحد الكونستابلات يُعِدُّ الطَّلَبات، وتَطوَّع أحدُ العساكر بابنِه ليكونَ صَبيًّا يُوزِّع الطَّلَبات، وفي وسط المُتفرِّجين كان هناك باستمرار عشرون من أفراد الفرقة اندسُّوا بين الرُّوَّاد في أزياء الأهالي المُتبايِنَة، وكان محمد هلال بين هؤلاء...

في الليالي الثلاثة الأولى غَنَّت سميرة ورَقَصَت، وأشار عليها هلال أن تنزِلَ إلى الصَّالَةِ لِجَمعِ النُّقوط؛ أُسوَةً بغَيرِها من راقصات المولد.

وفي الليلة الرابعة نَزَلَت تجمَعُ النُّقوط، وهلال أفندي جالِسٌ يُدخِّنُ «كرسيًّا» من «المعسِّل»، ويبدو أنه كان من النوع الحامي؛ فأثار سُعالَه الحادَّ، وقام خارِجًا من الخَيمَةِ ليشُمَّ بعضَ الهواء.

وفي الليلةِ الرابعة تغيَّرَت سميرة تمامًا؛ كانت في لياليها الثلاثة الأولى تُغنِّي أغنياتٍ حزينةً، وكان صَوتُها الشَّجيُّ مَليئًا بِرنَّةِ شَجَنٍ وهو يُغنِّي:

«اللِّي ماداقش الحُب يسألني وأنا أقولُّه

أنا اللِّي دُقْت الذُّلّ وشرِبْت كاس مُرُّه»...

وفجأةً تَغيَّرَت نَغمةُ الغناءِ من الليلة الرابعة، تَحوَّلَت سميرة فجأةً لطفلةٍ مَرِحَةٍ تَعبَثُ وتُهرِّج، ومن المواويل والغناء الحزين انتقَلَت إلى المنولوجات، وحَزمَت وسطها بِشالٍ مُلوَّنٍ، وأخَذَت ترقُصُ كما لم ترقص طولَ عُمرِها على كلماتٍ تقول:

«وأقول له يا شاويش.. رقَّصني يا شاويش... عَ الواحْدَة يا شاويش.

رقَّصني يا شاويش.. عَ الواحدة يا شاويش...

قام الشاويش ساب ده وده..

شاف مَزِّيكا بتدُقّ.. اتْحَزِّمْ..

قال رقَّصني يا شاويش.. عَ الواحْدَة يا شاويش».

وبينما كانت الخيمة كلُّها تَرقُصُ على كلماتها، كان هلال أفندي دَهِشًا بِتَغيُّر حال البنت، ولم يُدرِكْ -إلَّا فيما بعدُ- أنَّ سميرة كانت بهذا المَوَّالِ تُدَشِّنُ انتصارَها عليه، وتقود رُوَّادَ مَقهاها في أغنيَةٍ تَسخَرُ من الشاويش، من السُّلطَة، والباشاوات والأعيان، ومَن يَخدمون أهدافَهم بلا ضَميرٍ تحتَ دعوى حمايَةِ الأمن العام.. أمن مَن؟! أين هو «الأمن العام» حَقًّا في كل ما تفعلون؟ هل حافَظُوا عليه يَومَ داسَ الفَقرُ على عرضِها وسفح خَجَلِها وإحساسِها بالكَرامَةِ؟ ومَن الذي كان يستطيع أن يُعاقِبَ عبد الله بن محمدين على لَطمَتِه الوَحشيَّةِ على وجه صَيَّادٍ فقير؟!

وما حدث حَدَث في الليلة الثالثة، فبعد أن خرج هلال أفندي مباشرَةً من الخيمة يستنشق الهواء انحَنَت سميرة تأخُذُ النُّقودَ من الرَّجُل الذي يجلس بجواره، لم يَكُن سوى «أبو الصالحين» كشَّافِ

الخَط ودَليلِه، وآخِرِ مَن بَقيَ معه من الرِّجال، أرسله الخَط ليستكشف له الجَوَّ قبل أن يُخاطِرَ وينزل بنفسه إلى المولد...

وفي كلماتٍ قلائِلَ هَمَسَت سميرة لأبو الصالحين بكلِّ شيء، طَلَبَت منه أن يُحذِّر الخُطَّ، وأن يَمنَعَه من الحضور...

وفَرَّ العُصفورُ... ضحَّت سميرة بِوعدِ المعلِّمة: الخمسمائة جنيه، ونصف المنزل، والزَّوج الذي سيَستُرُها. وانطلقت تُغنِّي:

«قام الشاويش ساب ده وده

سِمِع مَزِّيكا بِتدُقّ اتحزِّم قال

رقَّصني يا شاويش على الواحْدَة يا شاويش...».

الفصل الحادي عشر

يا «كايِد» الحكومة!

كان كُلُّ يومٍ يَمُرُّ والخُطُّ ما زال حيًّا يَضَعُ الحكومةَ في مأزقٍ جديد...

وما أكثرَ المآزِق الَّتي كانتِ الحكومة المصريَّة تُعانيها أيَّامَها؛ كانت أحزاب الأقلِّيَّة قد أفلَسَت، وأَعلَنَت إفلاسَها رَسَميًّا عندما سَلَّمَت برلمانها لإسماعيل صدقي لِيحكُمَ بمقتضاه، وهو المستقِلُّ الذي لا حِزبَ له، ولا رصيدِ سياسيٍ لشخصه في أي قلب، بل إن العلاقات بينها وبينه كانت علاقاتِ عداءٍ مُستَحكِمَة، وبرغم كُلِّ ذلك قَبِلَت رئاستَه للوزارة، ومَنَحَ مَجلِسُ نُوَّاب الأقلِّيَّات ثِقَتَه؛ حرصًا على العَهد كُلِّه من السقوط.

وكان الشارع المصري قد انفجر يَغلي ضدَّه عندما اتَّضحَت مؤامراته لِجَرِّ مصر للارتباطِ بالأحلاف الاستعمارية، وتَمَكَّن الصَّعاليكُ وشُبَّانُ المُدُنِ من إجهاض المحاولة. وفي حَملَةٍ ضارِيَةٍ حَطَّ صدقي على جميع الذين قاوَموه، ونَقَلَهم إلى السجون في ليلةٍ واحدة.

والغريب أن البوليس الذي نَفَّذ هذه الحملةَ بنجاحٍ تامٍّ ضدَّ خصوم صدقي السياسيِّين من الكُتَّاب والصَّحفيِّين وغيرهم من العناصر الوَطنيَّة - هذا البوليس نفسه كان يُعَاني هَزائِمَ مُتوالِيَةً في مَعارِكِه ضدَّ أولاد الليل!

وكانت المَسألتان مُرتبطتَيْن بشكلٍ ما؛ ذلك أن «الأمن السياسيَّ» كان يحوز دائمًا كلَّ الاهتمام، ويَخرُجُ ضُبَّاطَه وحتى مُخبِريه بنصيبِ الأَسَدِ من المُكافآت والرُّتَب، بِعَكسِ زُملائِهم في الأمن الجنائيِّ، وكانت السُّلطَةُ المصريَّةُ -قبل الثورة- تَعتَبِرُ أن أعداءها السياسيِّين -برغم سلميَّةِ أساليبهم وديمقراطيَّتِها في الغالب- هُم الأعداء الأساسيُّون، بل هم -برغم أسلوبِهم الهادِئ- أخطَرَ على العهد بِمُجمَلِه؛ لأنهم أكثرُ تأثيرًا وفاعِليَّة.

وبرغم هذا فإن الخُطَّ سبَّب قَلقًا شديدًا للسُّلطَةِ المصريَّة بمجموعها، وبدأ يُحدِثُ تناقُضاتٍ بين أَجنِحَةِ الدَّولَةِ الواحِدة، والفكرة التي كانت وراءَ رسالة «المُدنَّسة» التي كتبها ضابِطُ منفلوط تَعكِسُ شكلًا من أشكال هذا التناقُض. كان ضُبَّاط البوليس قد أصبحوا في «وجه المدفع»؛ يتآمر الأعيانُ على حياتهم بحمايَتِهم لأولاد الليل واستخدامِهم لهم. وبرغم أن ضُبَّاط البوليس هم جُزءٌ من جهاز الدولة، هذا الجهاز الذي يخدم هؤلاء الأعيانَ، فإن الأعيان قد تَخَلَّوا عنهم وسَلَّموهم غنيمةً بارِدةً لأولاد الليل!

ففي خِلال شهور الصيف قُتِلَ أكثر من ضابط من ضُبَّاط البوليس في مَعارِكَ مع أولاد الليل، فقتَلَت عِصابَةُ الأعمى المُلازِمَ أول رمضانِ الطبيلي، من ضُبَّاط مركز أخميم، عندما كان يشارك بعضَ القُوَّات في هجومها على العصابة. وقُتِلَ كونستابل وجنديٌّ في هجومٍ على عزبة الزهيري، في مركز البداري، قَتَلَهما هاشم الزُّهيري، واحِدٌ من أبناء الليل الَّذين بَلَغَت شُهرَتُهم الحَدَّ الذي أطلَق فيه النَّاسُ اسمَه على العِزبَة.

وقد سجَّل التقرير الذي كتبه أحدُ مُفتَشي وزارة الداخلية عن حادث مقتل الملازم رمضان الطبيلي -بأسفٍ- أن التحريات قد «دلَّت على أن رئيس العصابة قد لَجَأ إلى منزل أحد الوُجَهاءِ، وباتَ عنده لَيلَةَ اغتيالِه الضَّابِطَ، وعَقِبَ ارتكابِه الحادِث مباشرةً، ولكي يُمكِّنَه من الهَرَب ألبَسَه بعضَ الملابس الأفرنجيَّة، وبها اختفى عن أعيُن البوليس»!

وأدَّى قتلُ البوليس المتوالي إلى ظهور نَغمةٍ من الاستهانة به، والسُّخرية منه، وتَصاعَدَت النَّغمةُ حتى وَصَلت إلى الشارع، وفَقَد النَّاسُ تمامًا أيَّ ثِقةٍ في قوَّات الأمن.

وكان أقسى رَمزٍ لهذه الاستهانة ما فعلته «جُلَّشان» في ابن عمها «أبو هاشم»!

وكان أبو هاشم واحدًا من أشهر أولاد الليل وأذكاهم، وموطنه الأصليُّ هو جرجا، وقد بدأ حياتَه في الجَبَل بِجريمَةِ ثَأرٍ، كَغَيره من أولاد الليل، واستطاع في فترةٍ قصيرَةٍ أن يُؤكِّدَ مَكانَتَه، وأن يُجبِرَ كلَّ الرؤوس على الانحناء له في خشوع.

وجنَّد أبو هاشم أسرَتَه لِحمايَتِه، إلَّا أن خِلافًا حادًّا نَشبَ بينه وبين أولاد أحد أعمامه -هم أشقاء جلشان- وانتقم ابنه من واحدٍ منهم، ثم آخر؛ فَقَتَلَه أولاد العم الخصوم، ورَدَّ أبو هاشم على ذلك بقتل والدهم، وهو والد جلشان، ثم قتل واحدًا من أولاد عَمٍّ ثالث، وكان العَمُّ وابنُ العَمِّ الثالث اللذان قتلهما يَمُتَّان بأوثق الصِّلاتِ لابنة عمِّه جلشان؛ فالعَمُّ الذي قُتِلَ هو والدها، وابن العم هو زوجها...

وثارت جلشان لوالدها وزوجها، وخَلَعَت ثيابَ النساء، و«استرجلت»، وخَرَجَت لتصبح «ابنةَ ليل»، تطارد أبو هاشم في كلِّ شبرٍ من الأرض، وبثَّت عيونها تتبعه في كُلِّ مكانٍ يذهب إليه، وتعاوَنَت مع البوليس في ذلك.

ويومًا جاءَتها إخباريَّة بأن أبو هاشم ورجاله يتمركزون في نقطةٍ مُعيَّنةٍ من البحر الأخضر، فذهبت بنفسها إلى ديوان مديريَّة المنيا، وقابَلَت مُديرَها (كان اسمه عبد الرحمن عمار بك)، وطلَبَت جلشان من المُديرِ أن يَضعَ تَحتَ إمْرَتِها بعضَ قُوَّاته، على ألَّا يَسألَها أحدٌ عن وُجهَتِها؛ لأنها لا تَثِقُ بأنَّ ما لديها من معلوماتٍ لا يمكن الحِفاظُ عليه بين قوَّات المديرية!

وبالفعل انضمَّت قُوَّةٌ من البوليس إلى قُوَّاتها، وحاصَرَت القُوَّاتُ المشترَكَةُ بقيادَةِ جلشان منطقة البحر الأخضر لمُدَّة ثلاثة أيَّام، نَشبَت خلالها مَعركَةٌ ضارِيَةٌ، قُتِلَ خلالها خَمسةٌ من عصابة أبو هاشم، وقُبِضَ على أربَعةٍ آخرين...

إلى هذا الحَدِّ كانت الثِّقَةُ في البوليس مُتدَهوِرَةً، وإلى هذه الدرجة قَبِلَ البوليسُ عدمَ ثِقَةِ النَّاس فيه، وسَلَّم قيادَةَ قُوَّاته لامرأةٍ تَطلُب ثأرًا، ولا تسعى لعدل -بالمفهوم القانوني-، وربما كان الأَصَحُّ في كل هذا أن نقول إن البوليس نفسه كان قد فَقَدَ الثِّقَةَ بِنَفسِه، وبالنِّظامِ الذي يَخدمُه!

وقد انتهى هذا كُلُّه بأقسى ضربَةٍ وُجِّهَت إلى النظام القديم عَشيَّةَ سُقوطه، وهي إضرابُ ضُبَّاط البوليس، الذي بدأ مَحدودًا في نهاية عام 1947، وعَمَدَت وزراةُ النُّقراشي بعد انتهاء هذا الإضرابِ المَحدودِ إلى تَشتيت قادَتِه، وتباطَأت في تنفيذِ مَطالِبِ الضُّبَّاط، برَفع أجورِهم؛ وهو ما أدَّى إلى تَجدُّد الإضراب -مُوسَّعًا- مرَّةً أخرى في ربيع 1948؛ لتأكيد المَطالِبَ التي رَفعوها بزيادَةِ مُرتَّباتِهم، وإعادة زُملائِهم المَنقولين، وقد شَمِلَ هذا الإضرابُ جميعَ الضُّبَّاط، ما عدا ضُبَّاط القِسم السِّياسيِّ،

الذي لم يجرؤوا على الاقتراب من مَقرِّه بنادي ضُبَّاط البوليس؛ لكراهية جميع الضّبَّاط لهم، واحتقارهم لشأنهم.

وخرج جنود البوليس يتظاهرون، وانضمَّ إليهم الطَّلَبةُ والعُمَّال، وبعد أن كان المَألوفُ أن يُواجِهَ جُنودُ البوليس الطَّلَبَةَ بالرَّصاص عندما يتظاهَرون؛ سار الجَميعُ في مُظاهَرةٍ واحِدَة تُعلِنُ تأييدَ الشَّعبِ كُلِّه لِمطالِبِ الجنود والضُّبَّاط!

وكان أغربَ ما في هذه المُظاهَرة أن المُتظاهرين من الجنود كانوا يَحمِلون عِصيَّهم الشَّهيرة (أداة تشتيت المُظاهرات) وقد رَفَعوها لأعلى بالأرغِفَة، ليكونَ من ذَلك كُلِّه شعارُ الإضراب!

وكان هذا الإضرابُ هو الانفِجارُ الحادُّ للتَّناقُضات داخلَ جهازِ الدَّولَة، الذي كان قد أُثخِنَ بالجروح حتى في أجهزته التي اصطفاها ورَبَّاها وغَذَّاها لِتقومَ بِقَهرِ الجماهير، فَرَفَعت عِصيَّها تَطلبُ الرَّغيف!

والواقِعُ أن معارك أولادِ اللَّيل ضدَّ البوليس -بما كشَفَت عنه من نَتائِجَ- تطرحُ على الفور تَساؤُلًا هامًّا وأساسيًّا حولَ طبيعة «المركزيَّة» التي أعطَت الدَّولَةَ هَيمَنَتها الرَّهيبَةَ على النَّفْسِ المصريَّة، فالمتواتِرُ عِلميًّا أنَّ نهر النيل بسبب طَبيعَتِه كَمَصدرٍ للريِّ الصِّناعيِّ الذي يَقوم على شَبكَةٍ هائِلَةٍ من القَنواتِ والتُّرعِ والمَصارِف؛ فقد استتبعها نُشوءُ سُلطَةٍ مَركزيَّةٍ قَويَّةٍ وثَقيلَةِ الوَطْءِ لحمايَةِ هذه الشَّبكَة الأخطبوطيَّة، وهو ما انتَهى إلى أنْ أصبَح للدَّولَةِ -أو «الحكومة»- نُفوذٌ واسِعٌ وقَويٌّ، أيًّا كان شَكلُه، وأيًّا كان حَظُّ الأسلوبِ الذي تَحكُم به من رِضى المَحكومين أو قبولِهم.

والاهتزاز الذي تَعَرَّضَت له السُّلطَةُ في تلك الفترة من مُجرَّد اضطراباتٍ أَحدَثَها عَددٌ من أولاد الليل، يَطرحُ نَتيجةً مُختَلِفَةً لهذه المُقدِّمات الصَّحيحة؛ فالتَّخاذُلُ والفَشَلُ الكامِلُ يُؤكِّدُ أنَّ قُوَّةَ وهَيمَنَةَ هذه الدِّلالة هي قُوَّةٌ نَفسيَّةٌ أكثر منها فِعليَّة، والظَّاهِرُ أنَّ الدَّولة في ذلك الزَّمان كانت قد استنامَت لِرَهبَتِها التاريخيَّة في النُّفوس، ففُوجِئَت بهذه المُقاوَمَة الَّتي شَنَّها عَددٌ مَحدودٌ من أولاد الليل، كانوا بالفِعلِ يَحكُمون الصَّعيدَ، بِرَغمِ أنفِ الحُكومَةِ الرَّسميَّة، و«على عينك يا تاجر»!

ومِمَّا يَلفِتُ النَّظرَ أيضًا أن واحدًا من هؤلاء الأشقياء لم يَسقُط إلَّا بمَعونَةٍ من داخِلِ صُفوفِه، ويَندُرَ أن نجد من بينهم أحدًا استطاعَت رَصاصاتُ البوليسِ أن تُرديه.

وهنا يَبرُزُ الدَّورُ الخاصُّ الذي لَعِبَه العُمَدُ والمَشايخُ في حِمايَةِ أولاد اللَّيل وتَأكيدِ سُلطَتِهم، ثُمَّ في إسقاطِهم، والقَضاءِ عليهم.

والوقِعُ أنَّ العُمَدَ والمَشايخَ -الذين يُشتَرَطُ في تَوْلِيَتِهم لِهذه المِهنَةِ أن يكون لهم نِصابٌ مُعيَّنٌ من الملكيَّة الزِّراعية- كانوا جُزءًا من القوى المُسَيطِرَة في الرِّيف، وكان تَحالُفُهم مع أولادِ اللَّيلِ وحِمايَتُهم لَهم هو جُزءٌ من تَنفيذٍ لِمَطْلَبِ الأعيانِ، وتَطبيقٌ لِسَعي كِبارِ المُلَّاك لِتكوين جُيوشٍ غَيرِ قانونيَّةٍ تَنتَقِمُ لَهم من مُنافسيهم، وتُساعِدُهم ضِدَّ هؤلاء المُنافسين، وهكَذا كان أولاد اللَّيل وَديعةً أَمينةً، تَرَكَها الأعيانُ في يَدِ المَشايِخِ والعُمَد!

غيرَ أنَّ طَبيعةَ عَملَهم -كجُزءٍ من جهاز الدَّولَةِ البُوليسيِّ- سهَّلَت لهم دائِمًا تقديمَ خَدماتٍ فَعَّالَةٍ لأولاد الليل، وعلى رَأسِها: إخفاؤهم، وتَحذيرُهم من الهَجماتِ المُفاجِئَة، ثم إنها في النهاية كانت قُطْبَ

التَناقضِ الآخَر، الذي يَقودُ هؤلاءِ العُمَد والمَشايخ إلى تَسليم أولاد الليل والتَخلي عنهم عندما يَفقِدون قُوَّتَهم الفِعليَّة، أو تَنتَهي الخَدماتُ الَّتي يُؤدُّونها لِكبارِ المُلَّاك، أو يَتجاوَزون ما هو مَطلوبٌ منهم.

وهكذا سَلَّم شَيخ موشا عوَّادَ، وكان طبيعيًّا أن يُسلِّمَ عُمدَةُ جحدَم الخُطَّ...

ويبدو أنَّه كان مُقدَّرًا لحياةِ الخُطِّ العنيفَةِ العاصِفَة أن تَبدَأَ بِشَيخ خُفراء، وأن تنتهي بِعُمدَة!

***

بدأ الفَصلُ الأَخيرُ في حياةِ الخُطِّ بِصوت نَفيرِ سيَّارةٍ وَصَلَ إلى سَمعِ محمد هلال، الذي كان يَتجرَّعُ الإحساسَ بالخَيبَةِ؛ لأنَّه خَرَجَ من «المولد بلا خُطّ»! وخرج لِيَجِدَ اللِّواء عبد الحق الرفاعي مأمور منفلوط وقتها.. كان اليومُ أحدَ الأيَّام العَشرة الأخيرة من رمضان، وشَعَرَ المأمورُ أن ضابِطَه مَأزومٌ؛ فَطَلَبَ منه أن يُريحَ نَفسَه في إجازَةٍ قصيرة، وخَرَجَا معًا إلى سيَّارَةِ المركز، التي انطلَقَت بهما في طريقها إلى منفلوط.

قُبَيلَ الغُروب بِقليلٍ مَرَّت السَّيَّارةُ بقريةٍ على حافَّة الصحراء، وقال السَّائِقُ -ليسلِّي صيامَه فيما يبدو-:

- يا سعادة البيه «دي جَحدَم»...

وكانت الكلِمَة بدايَةً لآخِرِ مُغامَرات محمد هلال...

بعد تَفاهُمٍ قصير مع المأمور انحَرَفَت السَّيَّارةُ إلى جحدم، إلى القريةِ التي تَضُمُّ حمدي خليفة، حليفِ الخُطِّ، وحاميه، والتي تَضمُّ أيضًا وابور مالطي؛ مَقرَّه الحصين، وعُشَّ غرامِه: حميدة...

كان النَّاسُ في شوارع القَريةِ يَستَتيمون لِلَحظاتِ الشَّبَق للطَّعام التي تَسبِقُ أذانَ الإفطار، ووَقَفَت السيَّارَةُ أمام دَوَّار العُمدَة، الذي كان جالِسًا وسطَ مَجموعَةٍ من أعيان البلد وشيوخها، ورجالِها الطَّاعِنين في السِّن، وقد جلسوا على دِكَكٍ مَفروشَةٍ بِشرائِطَ من الصُّوف، يَغلبُ عليه اللَّونُ الأحمر والأصفر، وقد أمسكوا بِمَسابِحِهم يُتَمتِمُون بِذِكر الله.

وهبَّ الجَميعُ واقِفِين، وسارَعَ العُمدَةُ ورَحَّب بالمأمور، وقادَه هو ومُرافِقه إلى داخل الدَّار، وعلى الفور بدأ تَنفيذُ الخُطَّة.

كان العُمدَةُ مُنهَمِكًا في التَّرحيبِ بالمأمور الذي أشعلَ سيجارَتَه مع أذان المغرب، وحاول العُمدَة -مُنافقًا- أن يَلفِتَ نَظرَه إلى أنَّ «شُرب الدُّخان على الرِّيق» مُضِرٌّ، فلم يَلتَفِت إليه، ورَفَضَ كوبَ الكَركديه الَّذي قَدَّمَه إليه، بِأَنَفَةٍ...

وكانت الخُطَّة التي اتَّفَقَ عليها الضَّابِطان تَقومُ على أن يأخذا الموضوع بجدِّيَّة تامَّةٍ، وأن يُعامِلا العُمدَة مُعامَلَةً رسميَّةً: يرفضا طعامَه وتَرحيباتِه، ويُعامِلاهُ باعتبارِه عُمدَةً يُخفي مُجرِمًا ويَتحالَفُ معه ضِدَّ البوليس، الذي يَعملُ به كواحِدٍ من حَفَظَةِ الأمن، وسارَت الخُطَّةُ كما رُتِّبَت.

ذَهَبَ العُمدَة إلى دار الحريم -المُواجِهَة للدوَّار- وعاد وخَلفَه شابٌّ يَحمِلُ عددًا من الصَّواني، وبدأ يَعزِمُ على ضُيوفه، الذين رَفَضوا بِعَجرَفَةٍ وكِبرياء، ولِفَترةٍ ظَنَّ العُمدَة أن أصناف الطعام المُقدَّمَة

لم تعجب «البهوات»، وأخيرًا وُضِعَت النقط على الحروف؛ انفجرَ فيه الضّابِط المُرافِق للمأمور -والذي لم يَكُن يعرفه حتّى تلك اللّحظَة- قائِلًا:

- اسمَعْ يا عُمدَة.. لم نَحضِر هنا لنأكل، فالأكلُ في كُلِّ مكان، والذي يَصومُ للمَغرب يَقدِرُ أن يصومَ للعِشاء، ونحن في طَريقِنا إلى بلادٍ أخرى، ثمَّ إلى المَركَز، وسَنَجِدُ في كُلِّ مكانٍ طعامًا نَعرفُ مَصدَرَه على الأقَل، طعامًا حلالًا، شريفًا، يُمكِن أن يكون أنظفَ من طَعامِك.. اعتَبِرْ نَفسَكَ من رجال الأَمن فقط، ونَحنُ الآن لَسنا في مَنزلِك، وإنَّما في منزل الحكومة ومَضيَفَتِها...

وتدخَّل المأمور على الفور مُكمِلًا:

- يا عُمدَة.. اعتَبِرْ نَفسَكَ من الأهالي، وأنْ لا سُلطَةَ لكَ ولا سُلطانَ عَليهم، وأنَّك إنسانٌ عاديٌّ مُتَّهَمٌ أمامنا أنَّكَ خُنتَ وَظيفَتَكَ، وأنك تأوي مجرمًا وتُخفيه بَعيدًا عن الحكومة...

والتفتَ المَأمورُ إلى محمد هلال آمِرًا:

- يا حضرة الضَّابِط، اكتُبْ فَورًا تقريرًا بِطَلَبِ إيقافِ العُمدَة، وسوف أرفَعُه للباشا المُدير الليلَة، وعَليكَ أنت أن تَنتَظِرَ هنا، وسَأرسِلُ لكَ القُوَّةَ اللازِمَة للمُحافَظَة على الأَمن... يظهر أن هذه البَلد يَجِبُ حُكمُها بالسِّياط!

وانهار العُمدَة تمامًا... اقتربَ من المَأمور مُنَكَّسَ الرَّأس، وطَلَبَ منه أن يُخبِرَه بِسَبَب هذا الإجراء، وما هي الجَريمَة التي ارتَكَبها، وما سِرُّ هذه الأزمة التي لا يفهم عنها شيئًا؟ فقال المأمور:

- الخُطّ!

وأقسم العُمدَة أنَّه لا يعرف عنه شيئًا، وقال إنَّ الخُطَّ من بَلَدٍ آخرَ غَير جحدم، ولو كان في بَلَدِه لاختَلَّ الأَمنُ، لكن «الأمن في بَلَدنا أربعة وعشرين قيراط»...

قال المأمور:

- خلاص يا عُمدَة... اكتب التَّقرير دلوقت يا حضرة الضابط...

وبدأ العُمدَةُ يُغلِقُ باب الحديقَة حتى لا يراه النَّاس، وكانت فترةً كافِيةً لكي يَتَّفِقَ الضَّابطان على تَعديلِ الخُطَّة، والاكتفاءِ بِأخذِ العَهدِ على العُمدَة بأن يُساعِدَ في ضَبْطِ الخُطِّ، باعتبارِ أن هذا أقصى ما يُمكِنُ الحُصولُ عليه منه...

وهكذا أقسمَ الثَّلاثَةُ على المُصحَفِ أن يَتعاونوا معًا في ضَبطِ الخُطِّ...

وقَبِلَ العُمدَةُ الحلَّ سعيدًا به، وبعد القَسَم أَكَلَ الضَّابطُ والمأمور، ثمَّ اقترحَ الضِّابِطُ بعد الإفطار أن يصطَحِبَه العُمدَةُ لزيارة وابور مالطي... واتَّسعَت عينا العُمدَةِ خَوفًا، وكان أحدُ أبنائِه ساعَتَها يَحمِلُ صينيَّةَ الإفطار من أمام الضَّيفَيْن، وقال العُمدَة بصوتٍ عالٍ:

- عايز تزور وابور مالطي؟ ومالُه.. نزوره...

- دلوقت.

- أَمرَك...

وألقى ابنُ العُمدَة صينيَّة الطعام في منزله، وقفزَ فوق ظهرِ حِمارِه سريعًا، وانطلق إلى وابور مالطي ليحذِّر الخُطَّ...

وخَرَج الضَّابِطُ راكِبًا حِمارَه وأَمامَه العُمدَة، وما أن دخل الحِمارانِ زِمامَ البَحر الأَخضَر حتَّى أخرجَ الضَّابِطُ بُندقيَّتَه ووَضَعَها في ظَهرِ العُمدَة، وهَدَّدَه بأنَّه سيُطلِقُ عليه الرَّصاصَ فورًا عند أوَّل حَركَةٍ منه، أيًّا كانت، ولأيِّ سَبَب!

وبدأ الرَّجُلان طريقَ «الرَّجُلِ الواحِد»، وأصبع الضَّابِط على زِنادِ بُندقيَّتِه، مُستَعِدًّا في أيِّ لحظَةٍ لإفراغ إحدى عشرة رصاصةً في ثانِيَة واحدة.

وانتهى بهما الطريق الخانِقُ إلى ساحَةٍ واسِعَةٍ تُحاصِرُها عيدانُ الذُّرَة من كُلِّ جانِب، ويَربُضُ فيها بناءٌ عَتيدٌ، يَنبَعِثُ منه ضَوءٌ خافِتٌ يَتراقَصُ في ظَلامِ اللَّيلِ... هذا هو وابور مالطي!

وفي سُرعَةٍ خاطِفَةٍ تَركَ الضَّابِطُ ظَهرَ الحِمارِ، وجرى إلى حِمارِ العُمدَةِ فَأوقَفَه هامِسًا به أن يَنزِلَ صامِتًا، وبِمُجرَّد نُزولِه تَأبَّطَ ذِراعَه اليمنى، بحيث أصبحَ مُلاصِقًا تمامًا له...

كان بابُ الوابورِ مُوارَبًا، وفي سُرعَةٍ مُفاجِئَة خَلَعَ هلال أفندي ذِراعَه من ذِراعِ العُمدَة، ودَخَلَ وأَغلَقَ البابَ، تارِكًا العُمدَة في الخارج، واستطاعَ أن يَلمحَ السُّلَّمَ الحلزونيَّ الذي يُؤدِّي إلى الدَّور الثالث، بِرَغمِ الظَّلام، وفي خِفَّةٍ وسُرعَةٍ كان على قِمَّته...

في صالة الدَّور الثَّاني، وعلى ضَوءِ لَمبَة جاز ريفيَّةٍ لَمَحَ ثَلاثَةَ رجالٍ وامرأة، رَفَعَ بُندقيَّتَه مُهَدِّدًا كلَّ مَن يَتحرَّك، وفي ثانِيَةٍ تَبيَّنَ ملامِحَ أحدِ الرِّجال الثَّلاثة؛ كان شابًّا أصفرَ الشَّعرِ، ذَهبيَّ الشَّارِب، أزرقَ العَينَيْن... وبسرعَةٍ خاطِفَةٍ انقضَّ عليه وغَرسَ أصابِعَه العَشرةَ في عُنُقِه...

وكانت اللَّحظاتُ التَّالِيَةُ غَريبةً؛ ذلك أن أصابِعَه على رَقَبَةِ الخُطِّ كانت قد أصبَحَت لا تَتَلَقَّى أَوامِرَها من رأسه، ووَجهُ الشَّابِّ يَكتسي بِصُفرَةِ المَوتِ، وارتَفَعَ صَوتُ صُراخٍ نِسائيٍّ كالرَّعد:

- جَاااي يا ولاد... إلحَجوا ابن العُمدِة...

وانفلتَ أحدُ الرَّجُلَيْن الآخَرَيْن هارِبًا، وفي هُروبِه فَتَحَ بابَ الوابورِ، الذي كان الضَّابِطُ قد أَغلقَه تارِكًا العُمدةَ في العَراء، وتَعلَّق الرَّجلُ الباقي بذِراعِ هلال أفندي؛ يُحاوِلُ تَخليصَ رَقبَة الشَّابِّ من بين أصابِعَه، وصَعَدَ حمدي خليفة مُرتاعًا، ورنَّ أكثرُ من صوتٍ في أُذُن الأصابِعِ المُتشنِّجَة؛ فخَفَّ تَشنُّجُها!

كان الشَّابُّ هو ابن عُمدَة جحدم، وكان يُشبِهُ الخُطَّ في مَلامِحِه الإجراميَّة!

وجلس الجَميعُ يَستريحونَ من تَوتُّر اللَّحظاتِ السَّابِقَة، وبَينما كانَ الخَفيرُ مَدبولي يُدلِّكُ رَقبَةَ ابن العُمدَة قامَت حَميدة لِتصَنعَ الشَّاي... وعندما أقبلَت بالشاي تَفَحَّصَها الضَّابِطُ... نعم؛ إنها دَميمَةٌ، عَجفاءُ كالمِعزَة، ولكِنْها -بلا جِدالٍ- امرأةٌ عاشِقَةٌ، أَلَا إنَّ نَظرةً واحِدَةً إليها تَكفي لِضَبطِ أدلَّةِ العِشقِ فيها. كانت مُهيَّأَةً بِزينَتِها كأنَّها عروس: كَحَّلَت عينيها بِطريقَةٍ يَعتَبِرها الكَثيرون في الصَّعيدِ لا تليقُ إلَّا بالساقِطات من النِّساء، وكانت عُصبة رَأسها حمراء، مائلة على جبينها، وشَعرُها نَظيفًا يَلمَعُ من كَثرَةِ تَنظيفِه بالجاز، وكانت تَلبَسُ «شبشبًا» وكَعبُ رِجْلِها يبدو منه نظيفًا من كَثرَةِ حَكِّه بالحَجَر وغَسلِه بالماء؛ وهذه علاماتٌ لا تَخيبُ على أنَّها عاشِقَة...

وبينما هم يَشربون الشايَ كان الخَط واقِفًا وراء مَبنى الوابور، ومَعَه بُندقيَّة الخفير، كان قد قَرَّر أن يَقتُلَ الضَّابِطَ بِمجرَّدِ أن جاءَته إخباريَّة العُمدَة بأنَّه قد قَرَّر زيارةَ الوابور، وتَرصَّدَه خَلفَ المبنى لِيَصيدَه بالرَّصاص عندما يَصِلُ إلى بابه، ثمَّ يَتقدَّم الخَفير مدبولي فيعتَرف بأنَّه القاتِلُ، ويُبرِّر فِعلَتَه بأنَّه ظَنَّ القادِمَ لِصًّا أرادَ أن يَسرقَ شيئًا من أدوات الوابور... وفَشِلَت الخُطَّة لِسَبَبٍ واحِدٍ: هو هذه الذراع التي تأبَّطَ بها الضَّابِطُ ذِراعَ العُمدَة مُلتَصِقًا به؛ فقد خَشي الخُطُّ أن يتحرَّكَ حركةً مُفاجِئَة فَتُصيب الرَّصاصَةُ حَليفَه عُمدَة جَحدم.

***

وحتى هذه اللحظة، وبَرغم قَسَمِ المُصحَفِ المُغلَّظ، فإنَّ عُمدَة جحدم لم يَكُن قد قَرَّر بَعدُ أن يُسلِّمَ الخُطَّ، بالعكس من ذلك؛ إنه قد تآمَرَ مَعه على حَياةِ الضَّابِط، ويبدو أنَّ فَشلَ الخُطِّ في اغتيالِ الضَّابِطِ قد حَطَّ من شَأنه أمامَ حَليفِه...

وكان وَضعُ الخُطِّ قد تَأزَّم تمامًا؛ لقد أَفقَدَه الحِصارُ كُلَّ مَوارِدِه، وتَبدَّدَت العِصابَةُ تحتَ التُّرابِ قَتلَى، أو وراءَ الأسوارِ مَسجونين، وفَقَدَ حُبَّ النَّاسِ، بعد أن طاشَ رَصاصُه فَقَتَلَ الأبرياءَ والضُّعفاءَ ومَن لا يَعرِفُهم، أصبحَ وحيدًا وضعيفًا: وحشًا حبيسًا في وابور مالطي.

وإذًان فلماذا لا يُسلِّمُه؟ إنَّه لم يَعُد مُفيدًا، وقد يَكونُ مُضِرًّا...

لحظَتَها قَرَّر حمدي خليفة أن يَعتَرفَ بالحقيقة كامِلَةً، وتَوجَّه فَقابَلَ محمد هلال، واعترف له اعترافًا صَريحًا بأنَّه يَعرِفُ الخُطَّ، وأنه يأويه ويحميه، ولم يُناقِشْ الضَّابِطُ ما مَضَى. قال:

- اللِّي فات مات.. واحنا ولاد النَّهاردَه.. وعلى العُموم كُويِّس إنَّك تعرفه؛ ده يسَهِّل لنا حاجات كتير.

وأَومَأَ العُمدَةُ مُوافِقًا، وقال إنَّ لَديه خُطَّةً للإيقاع بالخُطِّ، وما كاد يَشرَحُها حتَّى اكتشفَ الضَّابِطُ أن العُمدَة لم يأتِ بِمشروعٍ لِلمُناقَشة، ولكنْ بِخُطَّةٍ كامِلَةٍ، مَدروسَةٍ بِدقَّة، بل وبدأ بالفِعل في تَنفيذِ بعضِ خُطواتِها.

وناقَش هلال أفندي العُمدةَ في كُلِّ التَّفاصيل، ثُمَّ عَرَضَ الخُطَّةَ على مأمورِ منفلوط، فَعدَّل فيها بعضَ الشيء، وبدأ التَّنفيذ...

ذهب عُمدَةُ جحدم إلى الخُطِّ في وابور مالطي، وداعَبَ فيه نَوازِعَ الحاجَةِ، هو؛ الَّذي تَدهوَرَت حالَتُه الماليَّةُ لِقِلَّةِ ما لَديه من عَمليَّاتٍ، وحَرَّضَه على خَطفِ صَبيٍّ صَغيرٍ اسمه «شوقي عوض»، ووَعَدَه بأن يَتوسَّطَ له عند أهل الصَّبيِّ للحُصول على فِديَةٍ كبيرة، ووافَقَ الخُطُّ؛ كان جائِعًا للمال بشكلٍ لم يَحدُث له إلَّا أيَّامَ كان يَعملُ صيَّادًا للسَّمَك...

ورتَّبَ العُمدةُ أُمورَه مع شَقيق الطِّفلِ الأكبر، قَبِلَ الشَّقيقُ أن يُعرِّضَ نَفسَه وشَقيقَه لهذه المُخاطَرَةِ، وأطلقَ الطِّفلَ وَسطَ البَحرِ الأخضَر، والتَقَطَه الخُطُّ، وطَلَبَ الخُطُّ من العُمدَة مائِتَي جنيهٍ فِديةً، وعاد حَمدي خليفة يقول إنَّ أَهلَ الطِّفل لا يملكون سوى مائةٍ وخمسين فقط، وقَبِلَ الخُطُّ، المُخاطَرَةِ، وأطلقَ الطِّفلَ وَسطَ البَحرِ الأخضَر، والتَقَطَه الخُطُّ، وطَلَبَ الخُطُّ من العُمدَة مائِتَي جنيهٍ

فِدية، وعاد حَمدي خليفة يقول إنّ أهل الطفل لا يملكون سوى مائةٍ وخمسين فقط، وقبِل الخَط، وتحدَّدَت ساعَةُ الاستلام!

وحِفاظًا على أمانِ الطِّفل فإن في الفترةَ التي قضاها في وابور مالطي كان في حِراسَةِ أبناءِ العُمدَة، الذين انتقلوا للإقامَةِ في الوابور لهذا الغَرَض.

وجاء يوم الجمعة 8 أغسطس 1947...

لِيلَتَها تَسلَّلَت فِرقَةُ المَوتِ بِكامل أَفرادِها إلى البحر الأخضر، وقَبَعَ رِجالُها كالمَوتَى الأحياءِ في قلب الذّرَة.

وما أن جاءت السَّاعة السادسة حتى سَمِعَ الرِّجالُ دَويَّ إحدى عشرة رَصاصةً، ثم ظَهَرَت أقدامُ رَجُلَيْن، فَتَحَت عليهما القُوَّةُ نيرانَها، وحَوَّلَت جَسَدَيهما إلى مَزرَعَةٍ للرَّصاص!

وأعلن حمدي خليفة أن الخُطَّ هو الذي مات، وجاءَت «خالتي فضَّة» وقالت كَلِمَتَها الفاصِلَة...

الفصل الثاني عشر
بعد السقوط

كان سقوطُ الخُطِّ هو بداية النهاية لدولَةِ أولاد الليل.

فعلى امتدادِ السَّنوات القليلَةِ التَّالِيَة سَقَطَ مُعظَمُهم في يد البوليس: قتلى أو مُعتَقلين، وكان قَحْطُ الحَياةِ في الصَّعيد قد خَفَّ قليلًا بعد الثَّورة، كما أنَّ قُوَّات الأمن قد دُعِّمَت هُناك، وهكذا انتهت تدريجيًّا سُلطَةُ أبناءِ اللَّيل إلى أن أصبَحَت من الظَّواهِر النَّادِرَة التي لا تَحدُثُ إلَّا مَرَّةً كلَّ عِدَّةِ سنوات.

وكانتِ مُحتَويات جيوبِ الخُطِّ غَريبةً كَحياتِه العاصِفَة، التي لم تَتجاوَز ثمانيةً وعشرين عامًا، لا تزيد ولا تَنقُصُ؛ وَجدوا في جَيبِه سِتِّين قرشًا فَقَط، ومُصحفًا عليه اسمُه، وساعةً، وثلاثَةَ أَحْجِبَة، وصُورًا فوتوغرافيَّةً لِفتاةٍ في زِيِّ عُرسِها، مكتوبٌ عليها اسمها، وهو «عايدة رياض دوس»، من المِنيا- وإمساكِيَّة شهر رمضان. كان الخُطُّ مُتديِّنًا عَميقَ التَّدَيُّن؛ كان يُصلِّي ويَصومُ، ويَقرأ الفاتِحَةَ دائمًا لمقام سيدي «الشيخ بخيت»، وكانت الأحجِبَةُ هي بَعض هدايا عَشيقَتِه حَميدة؛ فقد أقنَعَته بأنْ يَحمِلَ حِجابًا ضِدَّ الرَّصاص، واستحضَرَت له واحِدًا أكَّدَت أنَّ مَن يَحمِله في جيبِه لا يموتُ قتيلًا.

واتَّهمَت «خالتي فضَّة» البوليسَ بأنَّه سَرَقَ الخُطَّ بعد مَوتِه، وقالت للأستاذ محمد حسنين هيكل (الذي كان الصحفيَّ الوحيدَ الذي قابَلَها):

- أين أمواله التي كانت معه عندما ضربوه؟!

وقال لها إنه من غَيرِ المَعقولِ أنْ يَسرِقَ البوليسُ الخُطَّ، فقالت:

- سَرقوه.. وحياةِ المُصحَف.. وإلَّا: أين نَظَّارَتُه المُعظِّمة؟!

ونُقِلَت الجُثَّةُ إلى المديريَّة لاستكمال التحقيق، واتُّهِمَ عُمدَةُ حجدم بقتل الخُطِّ، وبدأ يُدافِعُ عن نَفسِه باعتبارِه كان في حالَةِ «دفاع شرعيٍّ» عن النَّفس، وخاصَّةً بعد أن تبيَّنَ أنَّ الرَّصاصات الإحدى عشرة التي أُطلِقَت قبل أن يَسقُطَ الخُطُّ قد استقرَّت في جَسَدِ اثنين من أقارب الطِّفل الذي استُخْدِمَ كطُعْم له؛ فقد قابَلَهما صُدفَةً، وظَنَّ أنهما اللذان يَحمِلان الفِديَةَ، وكانا خالِيَيْ الذِّهن تمامًا عن الموضوع؛ فاستفزَّه تَجاهُلُهما واستِهانَتُهُما؛ فأفرغ فيهما آخِرَ رصاصٍ له في الحياة!

وأصرَّ البوليسُ على أن يُدشِّنَ انتصارَه على الخُطِّ بِشكلٍ لا يخلو من تَشَفٍّ، فأمر «عباس بك عسكر» حكمدار أسيوط بإعداد سيَّارَة «لوري» من سيَّارات البوليس، وُضِعَت فيها الجُثَّتان (الخط وصالحين)، ومَعَهما «خالتي فضَّة» ورشيدة (وكانت تحمل هاشم على ذِراعِها)، ورَكِبَ الحكمدار، ومعه عبد الحق الرفاعي مأمور منفلوط في سَيَّارَةٍ تقدَّمَت «اللوري»، وخلفَ المَوكِبِ سيَّارَة «لوري» كبيرة تَحمِلُ فرقَةَ المَوتِ بِكُلِّ سلاحها.



المصري 10 أغسطس1947

وسار المَوكِبُ في شوارع أسيوط الرئيسية، وميادينها الكبيرة، والناس يقفون على جانِبَي الطَّريق يَشهَدون زِفافَ الخُطِّ للموت!

وانتقَلَت الجُثَّةُ إلى درنكة، وتَصادَفَ أن يكونَ يَومُ مُوتِ الخُطِّ هو يوم عيدِ العَذراء، وكان أهالي النَّاحية -مسلمين وأقباطًا- قد تَجمَّعوا حول الدَّير يحتفلون بالعيد، وكانت هُناكَ جُموعٌ لا حَصْرَ لها من أهالي البِلادِ المُجاوِرَة تَملأ طُرُقاتِ القرية، فشارَكَت في جنازة الخُطِّ، وأُطلِقَت كثير من الأعْيِرَة النَّاريَّة فيها.

كانت جِنازَةُ الخُطِّ فَخمَةً كما يَليقُ بِرَجُلٍ من زُعماءِ أولاد الليل، وليس المُهِمُّ: هل هذا التَّجمُّع يُعبِّر عن حُزنِ الفراق، أو تَشَفٍّ في مَوتِه؛ فهذه نُقطَةٌ لا يُمكِنُ الجَزمُ بها بالدِّقَّة الواجِبَة.

خلف جُثَّتِه كانت «خالتي فضَّة» تُطلِقُ صُراخَها، مُنَغِّمَةً نَشيدَها الجنائزيَّ في وَداعِ ابنِها:

- يا أزرق العِينْتِين يا كايِد الحكومَة يا محمد...

وأَطبَقَ ظَلامُ القَبرِ على الخُطِّ.

وكانَت «خالتي فضَّة» قد أَدلَت بِحديثٍ للأستاذ محمد حسنين هيكل أكَّدَت فيه أن الخُطَّ سيُسَلِّمُ نَفسَه، وأنها نَصَحَته بذلك، إلَّا أنه كان يَخافُ المَصيرَ الذي لَقِيَه أخوه توفيق، بعد أن دَبَّر رجالُ البوليس مُؤامَرةً للخَلاصِ منه، وقَتلوه عندما لم يستطيعوا تقديمَ أَدِلَّةٍ للنيابة ضِدَّه!

وملأت أخبارُ الخَط الصُّحُفَ. وما يَلفِتَ النَّظرَ فيها جميعًا أن رواية مَقتَلِ الخَط -كما ذكِرَت وقتَها- تَختلِفُ اختلافًا جَوهريًّا عَمَّا ذَكَرَه المُلازِم محمد هلال بعد ذلك في مُذكِّراته؛ فالصُّحُف تَروي القِصَّة التي سُجِّلَت أمام النِّيابَةِ وَقتَها، والتي تقولَ:

«وفي الصَّباح خرج الخُطُّ إلى رأس الطريق، ينتظر الفِديَةَ، فوجَدَ أخوى الفتى المخطوف، فسألهما -ولم يَكُن العُمدَة قد أخبرهما- فَظَنَّها مُؤامَرَةً عليه، وساقَهما أمامَه في حقلِ الذُّرَة، ورآه راعٍ من الرُّعاةِ فَطارَ إلى عُمدَة جحدم، فسارَعَ العُمدَةُ إلى هناك ومعه عَددٌ من أقاربه، وبينما هم في الطَّريق سمعوا الرَّصاصات التي أطلقها الخُطُّ على الأَخَوَيْن من على بُعْدِ 800 مترٍ فأرداهما قتيلَيْن، ووصلوا إلى ناحيته، ثم أطلق الخُطُّ رَصاصَه فغاص العُمدَةَ في حقل الذُّرة ومعه أولاده وأقاربه، وانتظرَ الخُطُّ أن يَخرجوا من الناحية الأخرى من حقل الذُّرة، لكنهم لم يَخرُجوا، بل كَمنوا في الذُّرة، ثم أطلقوا هم عليه الرَّصاص...».

وتقول روايةٌ أخرى قريبَةٌ من تلك الرواية إنه: «وبينما كان الخُطُّ يَقِفُ أمامَ العُمدَة أطلق ابنُ العُمدَة النَّارَ على الخُطِّ فسقَطَ قتيلًا، وأطلق العُمدَةُ النَّارَ على زَميله صالحين فسقط يَتخبَّطُ في دَمِه».

وعلى أيِّ الأحوال، فإن الذي شاع وقتَها أن العُمدَة هو قاتِلُ الخُطِّ، وعلى هذا تَغَنَّت «الخالة فضَّة» في جِنازة ابنها قائِلَةً:

- يا اللِّي كِدْتْ الحكومة.. وما طالِتَكْش يا محمد!

وبالطَّبع، فإنَّ التَّفسير الوحيد لهذا التناقُضِ هو أن البوليس آثر أن يتحمَّل عُمدَة جحدم مسؤوليَّةَ دَم الخُطِّ وحده؛ باعتبار أنه قَتَلَه في حالَة «دفاعٍ شرعيٍّ»، بعد أن كَثُرَ استخدامُ البوليس نفسه لهذا التَعبير لتبرير عَجْزِه عن الحُصولِ على مُتَّهَمين أحياءً، وتقديمهم للقضاء، وتَفضيله دائِمًا أن يعدِمَهم بحُجَّة أنَّه في حالة دفاعٍ شرعيٍّ.

وبرغم هذا، فإن البوليس لم يَسْلَم من أَلسِنَةِ الصُّحُف، وعَلَّقَت جريدة «السواري» على التَّحقيق الذي يُجرَى مع عُمدَة جَحدم لإثبات قَتلِ الخُطِّ وهو في حالة دفاع شرعيٍّ، فقالت إن الخُطَّ قد «قُتِل بِيَدِ العُمدَة وأقاربِه بِطريقَةٍ تَناهَت في البَساطَة، بعد أن دَوَّخَ بوليسَ مصر بِضعَ سنين»، وذَكَرَت أن المديريَّة سارَعَت بكتابَةِ تَقرير في الحادِثَة، وكذلك فَعَلَ المأمورُ «فأكَّد في تَقريره أنَّه كان يَعرِفُ مكانَ الخُطِّ، وكان يُرسِلُ إليه العُيونَ والأرصادَ، وهو الذي مَهَّدَ للعُمدَةِ السَّبيلَ؛ لأنَّه كان يَزورُه في نفس الليلة، ولكنَّ العُمدَةَ لم يُفاتِحْه بِنِيَّةِ القتل...»، ويُنهي المَأمورُ تقريرَه بِقَولِه بأنَّه «يَترُكُ للداخلية تقديرَ مَجهودِه»... وعلَّقَت «السواري» على الخَبَرِ سائِلَةً الدَّاخليَّة:

«يا داخليَّة: هل للمأمور تقرير واحِد قال فيه حاجة من دي قبل ما يِتقِتِل الخُطّ؟»»!

***

وفيما بعدُ أصبح الخُطُّ موضوعًا لِعدَّة أفلام سينمائيَّة، استلهَمَت قِصَّة حياتِه العاصِفَة، كان أَوَّلها: «الخارج عن القانون»، وقد مَثَّل فيه فريد شَوقي دَورَ الخُطِّ، ثم: «الوحش»، ومَثَّل دورَه فيه «محمود المليجي»، وفي كلا الفيلمَيْن أُدمِجَ دَورُ «سميرة» بِدَور «حميدة»، ولَعِبَت الدَّورَ في الفيلم الأوَّل مُمثِّلَة لم تُمثِّل غيرَ هذا الفيلم، اسمها «مونا فؤاد»، أمَّا في «الوحش» فقد لَعِبَت هذا الدَّورَ

المُدمَجَ الرَّاقِصَة «سامية جمال». واسْتَلهمَت فصول أخرى من حياةِ الخَط في فيلم «سلطان»، الذي مَثَّله فريد شوقي.

وقد عالَجَت هذه الأفلامُ القصَّةَ كلها من وجهة نَظرِ ضُبَّاط البوليس، دون أيِّ مُحاوَلَةٍ للنَّفاذ إلى عُمقِها الإنساني، فيما عدا بعض اللَّمحات المضيئة في «الوحش»، الذي رَبَطَ بين نشاط الخُطِّ وبين أعيان أسيوط.

وقد كَتَبَ سيناريو هذا الفيلم الكاتِبُ الكبير نجيب محفوظ، وكان من بواكيرِ المرحَلَة الواقعيَّة في حياةِ المُخرج «صلاح أبو سيف».

***

على أن الشَّهرَ الذي قُتِلَ فيه الخُطُّ قد شاهد تَصاعُدًا مُستمرًّا في الاهتمام به، وسارَعَت الصُّحُف المُؤيِّدَة للحكومة تَستغلُّ الحادِثَ للهجوم على «الوفد» الذي كان في المُعارَضَة آنذاك، وتَسخَرُ من أسلوبِه في مُعالَجَة مَسائل السِّياسة المصريَّة، وكانت المَحاكِمُ المِصريَّة مَشغولةً أيَّامَها بِنَظَر قضيَّة «قنابل 6 مايو التي اتُّهِمَ فيها عَددٌ من الشُّبَّان المُتَّصِلين بالوَفد بأنهم ألقوا عددًا من القَنابِل على مَركَزٍ تابعٍ للجَيشِ البريطاني، وطالَبَت الحُكومَةَ بتطهير البِلادِ من هَؤلاء السَّفَّاحين.

ورَدَّت صُحفُ «الوفد» بأنَّ الحكومة تفتَعِلُ كُلَّ هذه الضَّجَّة لتبيع استقلالَ مصر، وأن هؤلاء السَّفَّاحين أبرياء إلى أن يُدينَهم القَضاءُ.

وكان رئيسُ الوزراء وقتَها (محمود فهمي النُّقراشي) قد قَطَعَ المُفاوَضات وسافَرَ لِيَعرِضَ قَضيَّة استقلال مصر على مَجلِسِ الأمن، وثار الوَفديُّون، وأعلن مصطفى النَّحَّاس أنَّ النُّقراشي يَحكُمُ ببرلمانٍ مُزيَّفٍ، ويَفتَقِدُ لِثِقَةِ الأُمَّة، وأنَّه ليس من حَقِّ رئيسِ وزراةٍ لا يَنالُ ثِقَةَ مُواطِنٍ واحِدٍ في البَلَد أن يَعرِضَ قَضيَّتَها على المُجتَمع الدولي، وأرسل تِلِّغرافًا شهيرًا بهذا المعنى إلى الأُمَمِ المُتَّحِدَة...

وثارت صُحفُ الحُكومَة، اتَّهَمَت النَّحاسَ بِخيانَةِ قَضيَّة مصر، بعد أن خان «مَليكَه المُفدَّى» في حادث 4 فبراير، وعَيَّرَته بأنَّه الرَّجُلُ الذي يَكرَهُ العَرشَ.

وقُتِلَ الخُطُّ في نفس الأسبوع الذي كان النقراشي يخطب فيه في مجلس الأمن.

وكانت «آخر ساعة» و«أخبار اليوم» من «صُحُفِ السَّراي»، المُدافِعَة عن الحُكومَة، والمُنتَصِرَة لمولانا على مصطفى النحاس؛ باعتباره رَجُلًا «تَعوَّد قِلَّةَ الأدبِ في حَقِّ الملوكِ»، وكانت صُحُفُ «الوفد» تتحدَّث عن أنَّ الحكومات التي تقوم على برلماناتٍ مُزيَّفَة تُفسِدُ أخلاقَ الأُمَّة؛ فعندما يَسرقُ النُّوَّابُ مقاعِدِهم بالغِشِّ والتَدليس، فمعنى هذا أنَّ السَّرقَة مَشروعَةٌ؛ لأنَّ واحِدةً من السُّلطات التي تقوم عليها الدَّولَة -وهي السُّلطَة التشريعيَّة: أهم هذه السُّلُطَات- تقوم على السَّرقَة.

لكنَّ هذا كُلَّه لم يُعجِب صُحُفَ الحكومة، التي انتهَزَت فُرصَةَ مَقتَلِ الخُطِّ لِتَسخرَ من كُلِّ ما كان «الوفدُ» يُمثِّله: ثِقَة الأُمَّة، والدِّفاعِ عن الديمقراطية... وهكذا أَخَذَت «آخر ساعة» تُندِّدُ بِكُلِّ ما تقوله صُحُفُ «الوفد»؛ فنَشَرَت صَفحةً جَعَلَت عنوانَها: «بأسلوب الصُّحُف الوَفديَّة»، قَلَّدَت فيها -بأسلوبٍ ساخِر- بعضَ الزَّاويا الثَّابِتَة، التي توجَدُ -عادَةً- في أيِّ صحيفَةٍ وفديَّة، وتَخيَّلَت كيف ستكتب صحُفُ «الوفد» عن حادِثِ مَقتَلِ الخُطِّ؛ قالت في الافتتاحيَّة:

«... أراد العَهدُ الحاضِرُ أن يُحوِّل الأنظارَ عنِ مُؤامَرَةِ النّقراشي باشا مع الإنجليز في نيويورك، فصَدَر الأمرُ لبوليس أسيوط بأن يضربَ الخُطَّ في ظَهره فيُرديه قَتيلًا، وليس اليَومَ مَحلَّ مُحاسَبَةِ الحُكومةِ على ارتكابِ هذه الجَريمَةِ النَّكراء في وضَحِ النَّهار، والدُّنيا هيام، والنَّاس نِيام... ليس اليَومَ مَجالُ مُحاسَبَةِ الحُكومَة على طريقة مُعامَلَتِها التَّعسُّفيَّة لخصومِها، في وَقتٍ تَدَّعي فيه أمام العالَمِ أنَّها حُكومَةٌ ديمقراطيَّة، ولكنَّنا نَنعى على الزَّميلاتِ أنْ تَتسرَّع وتَتَّهِمَ حَضرة صاحِبِ العِزَّة الخُطَّ بك بأنه مُجرِمٌ أثيمٌ، برغم أنَّ القَضاءَ لم يُصدِرْ كَلِمَتَه بَعدُ في هذه التُّهمَةِ التي تَصيَّدَها البوليسُ؛ ليَلصِقَ العارَ بابنٍ بارٍّ من أبناءِ هذه الأُمَّة...»!

وكان عمود «الرئيس الجليل» بابًا ثابتًا في كُلِّ الصُّحف الوفديَّة، ينشر مُقابَلاتِ واجتماعاتِ رئيس «الوفد» مصطفى النحاس، وكان الزعيم الراحل مَعروفًا بالمُجامَلَةِ الشَّديدَة؛ إذ كان لا يُفوِّتُ فَرحًا دون أن يُهنِّئَ أصحابَه، أو مأتمًا بغير أن يُشارِكَ بالعَزاء فيه؛ ولهذا نَشَرَت «آخر ساعة» في صفحتها الساخِرَة (بأسلوب الصحف الوفدية) تحت عنوان «عمود الرئيس الجليل» ما يأتي:

«وأَوفَدَ الرَّئيسُ الجليلُ الأستاذَ علي قِشاشة سكرتيرَه الخاصَّ إلى أسرَةِ فَقيدِ الوَطَن، المَغفورِ له، صاحِبِ العِزَّة: الخُط بك؛ لإبلاغ أفراد الأُسرَةِ عَزاءَ مَقامِه الرَّفيع في الفَقيدِ الكَريم»!



آخر ساعة العدد 668 (26 رمضان 1366 - 13 أغسطس 1947)

وفي نفسِ الصَّفحَة نَشَرَت «آخر ساعة» قصيدةً ساخِرَةً، تَسخَرُ فيها من مَدحِ أعضاء «الوفد» لزَعيمِهم، وجَعَلَتها على لِسانِ الأستاذ حسن ياسين، وكان عضوًا بمجلس النُّوَّاب، وزَعيمًا لشباب

«الوفد»، ومن أخلصِ أنصارِ النَّحَّاس وأقرَبِهم إليه، ومن المُحتَمَل أن يكون صاحِبُ هذه القصيدَة «الحَلَمَنتيشيَّة» هو الشَّاعِر الرَّاحِل كامل الشِّناوي، الذي كان يَرأَسُ تحرير «آخر ساعة» وقتَها...

وتقول القَصيدة:

«قصيدة أمير شُعراء الوَفد الأستاذ حسن يسن:

قَتلوا الخُطَّ أو رَماه الرَّصاصُ

فَعزاءً يا مُصطفى «النحَّاسُ»

وعَزاءَ رِجالِ وَفدٍ إذا وَقَفَت

ساعَةُ مِصرَ وعُطِّل الرَّقاصُ

أَوَ تَرضَى حُكومَةٌ في شُعو-

بِ الأرضِ فيها للنَّابِغين اقتناصُ؟

أَوَ يُرمَى الخُطُّ العَظيمُ جَها-

رًا ونَهارًا، فأين القَصاصُ؟

ليس في الكَونِ مِثْلَه سَرَّ-

اقٌ عَبقريٌّ، وللدِّمَا مَصَّاصُ

مَجلِسَ الأَمنِ كَيفَ لا تَتدَخَّـ-

لُ؛ لَيسَ مِن ذِي التَّدَخُّلاتِ مَناصُ

هَجَصٌ ما «إدَّعوه»، فهو بري-

ءٌ... إنَّ رامِيهِ كاذِبٌ هَجَّاصُ

لكَ يا صاحِبَ المَقامِ الرَّفيعِ الـ

فَخرُ والصَّبرُ والرِّضَى... وخَلاصُ»

الباكي الحزين «حسن يسن».

وفي العدد التالي من «آخر ساعة» نشرت المجلة أنها تجري استفتاءً حول آراء قُرَّائِها في المصير الذي يجب أن يؤول إليه ابن الخط، وأبناء أسرته كذلك، ودعتهم إلى الإدلاء بهذه الآراء عبر البريد.

وكَتَبَ الأستاذ مُحمَّد حسنين هيكل في هذا العدد يَطرَحُ مُشكِلَةَ هاشِم ابنِ الخُطِّ، واقترحَ أن تَتولَّى الحُكومَةُ تَربيَتَه في أحد مَلاجِئِها، وأن تُنفِقَ عليه وعلى أُمِّه؛ لكي لا يَظَلَّ في إسار «خالتي فضَّة»؛ فتدفعه للثَّأر لأبيه، وتَتكرَّر المَأساةُ، واقترح أيضًا أن تَدفَعَ وَزارةُ الأوقافِ إعانَةً لأُسرَةِ الخُطِّ.

وعَلَّق الكاتِبُ الكبير توفيق الحكيم على هذا الاقتراح قائِلًا:

«ليس من العدالة الاجتماعيَّة أن تَحمِل خِزانَة وزارة الأوقاف المُخصَّصة لمُعاوَنَة من أخنَى عليهم الدَّهرُ من ذَوي السِّيرَةِ الحَسَنَة، الَّذين لم يَعتَدوا على المُجتَمع، ولم يَخرقوا القانونَ- لتُعينَ أسرةَ مُجرم اعتَدَى على القانون، وكان عَدوًّا للمُجتَمَع، وإذا جازَ للحُكومَةِ أن تُقدِّمَ مثل هذه الإعانَة فأَوْلَى بها أَنَّ تُقدِّمَها بادِئَ الأمرِ إلى أسَرِ شهداء ثورة 1919، وإلى ضحايا الغارات في الحرب، وإلى عائِلاتِ الجُنودِ المصريِّين، الذين استُشهِدوا في الدَّفاعِ عن قَناةِ السويس، وفي مَعارِكِ الحدود المصريَّة سنة 1940 و1941، أو من باب أَوْلَى مَرَّةً أخرى إلى أُسَرِ رجالِ الضَّبْطِ الَّذين ماتوا وهُم يُؤدُّون واجِبَهم الرَّسميَّ في حِفظِ الأمنِ الذي كان الخُطُّ نَفسُه أكبرَ خَطَرٍ يُهدِّدُه...

ومع ذلك، فإن الرأي الآخَرَ، وهو تَعليمُ أولادِ المُجرمِ حتى يَنشأوا نَشأةً أُخرى لها مُثُلٌ عُليا، تَنفِرُ من الاعتداءِ على المُجتَمَعِ والقانون- هو رأيٌ مَحمودٌ، والطَّريقُ العَمليُّ إليه هو أن نَلجَأَ إلى وَزارَةِ الشؤون الاجتماعيَّة، ونَطلبُ إليها تَطبيقَ قانونِ نَزْعِ الولاية الأبويَّة عن أولاد هؤلاء المُجرمين؛ لنَنْزِعَهم من الوَسَطِ المَوبوءِ، والبيئَةِ الإجراميَّة التي يَتَنفَّسون فيها، وننقلهم إلى جَوٍّ آخر يَمُنُّ عليهم حياةً أُخرى جَديرَةً بالمُواطِن...».

وكتب اليوزباشي محمد سعيد هلال ضابِط نُقطَة بني قرة -التي عاد إليها بعد سقوط الخُطِّ- يَردُّ على استفتاء «آخر ساعة»، قائِلًا:

«أستطيع مُنذُ الآنَ أن أَتوقَّع الحَربَ التي ستَندَلِع نيرانُها بين درنكة وبين حجدم عندما يَكبُرُ هاشِم، ومع ذلك فإني أقولها صريحة واضحة: وما ذَنبُ هاشِم؟!. إن الحكومَةَ يَجِبُ أن تَتبنَّاه...».

وكتب الدكتور إبراهيم سلامة الأخصائي في علم النفس يقول» «لنفتَحْ مَدرسَةً نُسمِّيها مَدرسَة جحدم، ونخصِّص فصلًا واحدًا كاملًا منها لأطفال عائلة الخُطِّ (وكانوا خمسة عشر طفلًا، هُم أولاد الخُطِّ وأولاد أشقَّائِه)، ونجعل باقي الفصولِ لأطفالِ غَيرهم ذوي حالاتٍ مُستَعصِيَةٍ من الناحية الاجتماعيَّة، ولْنُحاوِلْ -على هَدي عِلمِ النَّفس- أن نَجعلَ منهم مُواطنين صالِحين...».

وتحمَّسَ الدُّكتور محمد عبد المحسن الخشَّاب (الأمين بمصلحة الآثار) لفكرةِ تَقديم إعانَةٍ لأُمِّ الخُط وزَوجَتِهِ وابنه؛ «لتبدي الحُكومَةُ لُطفَها، وتَمسحَ من القلوب أنَّها تَحملُ الحِقدَ للبريء».

وكتب أحدُ أُمَناءِ دار الكُتُبِ مُعتَرِضًا على هذا كُلِّه، مُتَبنِّيًا نظريةَ أنَّ الجَريمة وراثة، فروى عن حكيم إيرانيٍّ قصَّ قِصَّةَ قاطِعِ طَريقٍ دوَّخَ إيران، فَاحتالَ به المَلِكُ حتَّى قَبَضَ عليه وقتله، وتَشفَّعَ أحدُ العُلَماءِ لِطفلِهِ الصَّغير، فأَخَذَه ورَبَّاه العُلماءِ لِطفلِهِ الصَّغير، فأخَذَه ورَبَّاه حتى كَبُرَ، ثم سَمِعَ المَلِكُ يومًا أنَّ الطفل قَتَلَ العالِمَ، فقال:

غُديتَ بِدَرِّنا وَنَشَأتَ فينا
فَمَنْ أَنْبَاكَ أَنَّ أَباكَ ذِيبُ؟
إذا كانَ الطِّباعُ طِباعَ سَوْءٍ
فَلا أَدَبٌ يُفيدُ وَلَا أَديبُ!


ابن الخط

هل تتبناه الحكومة؟

وسَخِرَ موظَّفٌ من دَيروطَ من هَذا كُلِّه، وكانَتِ الصُّحُفُ أيَّامَها تَتحدَّث عن شيءٍ اسمه «التَّنسيق»، يَرفَعُ مُستوى مُرتَّبات المُوظَّفين، وقال الموظَّف:

«يُقال إنَّ الحكومة ستتبنَّى ابن الخُطِّ... أَهُوَ تَنسيقُ المُجرمين؛ شَمِلَ الخُطَّ في الدَّرجَة الأُولى؟ وهل أطمع أن يشملني في الدَّرَجَة التَّاسِعَة من كادرِ الجريمة؟! على أيِّ حالٍ، لن أيأسَ، وعندما تدلهمُّ الأمورُ بي سوف أَذهَبُ إلى عُمدَة جحدم ليقتلني وأَترُكَ أبنائي للحُكومَة»!

وتَلقَّت «آخر ساعة» أكثرَ من خمسمائة إجابة على الاستفتاء، ومن الغريب أن حوالي نصفها قد رفضَ أصحابُها أن تُقدِّم الدَّولَة أيَّ مَعونَةٍ لِتَبَنِّي هاشم!

وأكَّدَت نتيجةُ الاستفتاء أن ثَمَّةَ شيئًا من القَسوَةِ يَملأ كَثيرًا من القُلوب...

كان العُنفُ الذي ناء على النَّفسِ المصريَّة يَخلقُ رُدودَ أفعاله المُتباينَة والمُربِكَة، وهكذا، فإنَّ بعض المُستَضعَفين والفُقراء والباحثين عن «التنسيق» و«الأنصاف»- قد تَطوَّعوا للإفتاء بجَوازِ حِرمانِ هاشم من الحَياة، وتَأثيم الخُطِّ وأُسرَتِه ونَسلِه، كأنَّ الفُقراءَ والضُّعفاءَ قد خُلِقوا لِيَكونوا خُطاةً، كَفَّارَةَ عالَمٍ غارِقٍ في الإثمِ حتَّى رأسِه: يُحَوْقِلُ، ويُبَسْمِلُ، ويَعِظُ!

وتلك ظاهِرَةٌ من ظَواهِرِ مَوجَةِ العُنفِ الَّتي شَهِدَتها مِصرُ في نَفسِ السَّنوات الغريبة...

ولعل هناك سَببًا آخر لهذه النّتيجَةِ الغَريبَةِ لاستفتاءِ «آخر ساعة»، تلك أنّ قرَّاءَ الصُّحفِ والمَجلّات هم في الأساسِ أبناءُ تِلكَ الشَّرائِح الدُّنيا من الطَّبَقَةِ الوُسطَى، هؤلاء الّذين تَضيقُ رُؤيَتُهم للعالَم، ويَضيقُ أفُقُهم أحيانًا لِدَرجَةِ أنْ يُحافِظوا على نِظام يَطحَنُهُم ويَدوسُهم بالنِّعال ويُحبِطُ كُلَّ آمالِهم؛ لِمُجَرَّدِ حُلمِ -لا يَتحقَّقُ إلَّا بأفدَحِ التَّضحيات- أن يَركَبوا يومًا قِمَّتَه...


ابن «الحظ»
تتبناه الحكومة..!

الشركة العربية للمناجم والمحاجر

للاكتتاب العام

آخر ساعة العدد 668 (26 رمضان 1366 - 13 أغسطس 1947)

على أنَّ المُشكِلَةَ لَم تَكُن مُشكِلَةَ هاشم وحده، لم تَكُن مُشكِلةَ الخارجين عن القانون؛ لأنَّ القانونَ لكي يُحترَمَ يَنبغي أن يكون إنسانيًّا، واحترامُه رَهينٌ بأنْ يَصوغَ ويَحمي عَلاقاتٍ إنسانيَّةً بين النَّاس، علاقات ليس فيها جوعٌ ولا فَقرٌ، ولا لَطَماتٌ ظالِمَة...

ولم يَكُن هاشم وَحدَه الَّذي تُحَلُّ مُشكِلَتُه بتطبيق «قانون سَلْبِ الولاية»؛ كانت مِصر كُلُّها في حاجَةٍ إلى تَطبيقِ هذا القانونِ على الَّذين يَتَوَلَّون أمورها رغمًا عنها؛ لكي يَتنفَّسَ كُلُّ أبنائِها هواءً نَقيًّا، وينتقلوا إلى حياةٍ أخرى تَليقُ بالمُواطِن...

حياة بلا أفيون...

ولا عُنف...

ولا بنادق...

شُكرٌ وامتِنان

حين شَرَعتُ في إعداد هذا الكتاب للنشر، واستكمال فصوله من بين أكوام من الملفَّات التي تركها خلفه «صلاح عيسى» - انتابتني خَشيَةٌ عظيمةٌ، وأرَّقني قَلَقٌ مُمِضٌّ. أمَّا السَّبب فهو: أن صلاح قد اعتاد في نَشرِ كُتُبه على أن يقوم بتنسيقها بنفسه، والمشاركة في إخراجها، وجَمْع صُوَر الشخصيات التي وَرَدَ اسمها في الكتاب، والأماكن، والملابس وشكل الشوارع والميادين التي تجري فيها الأحداث، والحُليِّ المُستَخدَمَة، والموضة السائدة، وغناء العصر وشِعره وأدبه ونُكَتِه الذَّائعة، والعُملَة المُتداوَلَة فيه، وأفيشات الأفلام المعروضة- بمعنى آخر: كان يجعل من الكتاب -فضلًا عن مُتعَة القراءة- مُتعَةً بَصريَّة فاتنة.

كان هذا جُزءًا من منهج «صلاح عيسى» في العمل بشكلٍ عام: البحث المُضني عن المعلومة في شتَّى مَصادِرها المكتوبة، وتدقيقها، مع شهاداتٍ حَيَّة ممَّن عاصروها، والانشغال بكافَّة التفاصيل التي تُضيء المعنى، وربما تضيف إليه، أو تتوصَّل لمعنًى جديدٍ في سياق البحث والتحرِّي؛ لكي يحوِّل أحداث التاريخ الصَّمَّاء إلى حكاياتٍ شَيِّقَة، وإلى بَشَرٍ من لَحمٍ ودَمٍ، ينبضون بالحياة.

لكنَّ الله أراد أن يُخفِّف عني الضغوط التي تراكَمَت فوق رأسي، وأخافتني من الشعور بالتقصير والعَجز عن الوصول بالكتاب إلى بعضٍ من المستوى الرفيع، الذي كان يقوم به صلاح في إعداد كُتُبِه للنَّشر، حين ظهر في الصُّورَة -بمبادَرةٍ شخصيَّة منه- الابن الغالي والصديق الوفي «وليد حسن »؛ أحد مُحبِّي «صلاح عيسى»، والمتابعين بِدقَّةٍ مُتناهِيَة لإنتاجه الفكري والتاريخي والثقافي والأدبي، منذ بداياته، والعارفين بِفَضلِه. لَعِب هذا الظُّهورُ دَورًا في تغيير الوضع بين ليلَةٍ وضُحاها، وتخفيف حالة القلق والخوف من عدم القدرة على الإنجاز. وبالتأكيد فإن مَلفَّ الصُّور الذي يحتويه هذا الكتاب يدين للمجهود التَّطوُّعي الكبير الذي بذله «وليد حسن»؛ مَحبَّةً لصلاح عيسى أوَّلًا، ونيابةً عنِّي ثانيًا؛ للبحث عنها في أماكنها المُشتَّتَة والمبَعثَرة في كلِّ مكان: من دار الكتب والوثائق، إلى الجمعية التاريخية، ومن صحيفة الأهرام إلى أرشيف صحيفة الأخبار، ومنهم إلى دار الهلال، وجمعهم وتصويرهم بطريقةٍ تُيسِّر على الجهاز الفَنِّيِّ في دار المحروسة فُرَصَ الاستفادة منها في إخراج وتوضيب هذا الكتاب، ولهذا؛ فالشُّكر والامتنان له بلا حدود، ولجهده الذي طَوَّق عُنُقي، وأعانني حين كنتُ في أشَدِّ الحاجة طَلَبًا للمُساعدة واحتياجًا لذلك العون. والشكر موصول أيضًا للأصدقاء في دار المحروسة الذين جعلوا أمر إصدار هذا الكتاب ميسورًا، بالجهد المبذول في المراجعة والتَّدقيق والإخراج الفني.

أمينة النقاش

بضعة إيضاحات

أَلَّف صلاح عيسى كتاب «أفيون وبنادق» سنة 1973. ونشر فصولَه مُسَلسَلةً في مجلَّة 23 يوليو الأسبوعية سنة 1979 التي كانت تَصدُر في العاصمة البريطانية لندن. والمجلَّة أسَّسَها ورأس تحريرها الكاتب الكبير «محمود السعدني». وكتب صلاح في المجلة -بجانب ذلك- عددًا من التحليلات السياسية، باسم مُستعار، هو «صادق عنان»، وهو الاسم الذي كان صلاح يُوقِّع به مقالاته في عددٍ آخر من الصُّحُفً العربيةِ في عهد الرئيس السادات، بعدما كان قد تَمَّ التحقيق معه -بجانب آخرين- أمام المُدَّعي الأشتراكي بتُهمَةِ كتابة مقالاتٍ في الصحف الخارجية تَضرُّ بسُمعَة البلاد.

شرح «محمود السعدني» شرحًا وافيًا، في واحدٍ من أهمِّ كُتُبه، وأكثرها اقترابًا وفَهمًا للسياسات العربية، التي أعقبت اتفاقيات كامب دي□يد، وتوقيع الرئيس السادات لمعاهدة الصُّلح مع إسرائيل- قصَّةَ إصدار تلك المجلة، التي كانت تستهدف بالأساس مواجهة التَّطبيع مع إسرائيل، وتسليط الضوء على مخاطر الحلول المنفَرِدَة معها. كما بَيَّن المناوراتِ والألاعيب التي قادت إلى إغلاقها وتَوقُّفها بعد صدور نحو 40 عددًا منها فقط، ونوعية المشاكل التي صاحَبَت الصدور، والعراقيل التي أَجبَرَتها على التوقُّف. والكتاب بعنوان «الولد الشقي في المنفى»، وهو كتابٌ ينطوي على دروسٍ بالِغَةِ الأهمِّيَّة لمن يسعى لِتَفَهُّم موقف الدول العربية من النظام المصري في عهد الرئيس السادات، والتي بادَرَت بقَطْع العلاقات معه في قِمَّة بغداد الشهيرة عام 1979، ونَقْل الجامعة العربية والمنظَّمات الجماهرية التابعة لها من مصر إلى خارجها؛ عقابًا لها على توقيع اتفاقات كامب دي□يد!

وبجانب الرؤية الثاقبة التي قَدَّمها «السعدني» لموقف النظام العربي من النظام المصري في عهد السادات، كشف الكِتابُ -بجسارةٍ- أمراضَ المعارَضَة المصرية في الخارج لنظامه، التي تحوَّلت لدى البعض إلى مجالاتٍ للتربُّح والاسترزاق، وحتى الثراء الفاحش، بزعم التَّصدِّي لكامب دي□يد، والصلح المنفرد مع إسرائيل!

وكتاب «أفيون وبنادق» الذي يؤرِّخ فيه «صلاح عيسى» لحياة «محمد منصور»، المشهور بـ- «خُطِّ الصعيد»، ربما يكون -في حدود علمي- من أوائل الكُتُب التي تُقدِّم رؤيةً اجتماعيَّةً وسياسيَّةً شامِلَة لظاهرة أولاد الليل في صعيد مصر في العهد الملكي. قَبلَه عالَجَت السِّينما المصريَّةُ القضيَّةَ في فيلم «الوحش»، الذي أخرجه صلاح أبو سيف عام 1954، وشارك نجيب محفوظ في كتابة سيناريو وحوار الفيلم، وقام ببطولته: محمود المليجي وأنور وجدي وسامية جمال وعباس فارس وسميحة أيوب. ويحكي الفيلمُ قِصَّة مُجرمٍ هاربٍ من العدالة يُلقَّب بـ «الوحش»، ويفرض سَطوَتَه على الجميع في إحدى قرى الصعيد، وينهبُ الزَّرعَ ويستوقف القطارات ليسطو على البضائع، ويخطف الأبناء لطلبِ فِديَة، ويُهدِّد الأهالي ورجال الشرطة، وينعم بحماية العُمَد والباشوات الذين يستخدمونه للتخلُّصِ من خصومهم ومنافسيهم في الانتخابات العامة. ويستمرُّ حال القرية على هذا المنوال، إلى أن يتمكَّن ضابطٌ جَسورٌ من إقناع الأهالي بالتضامُن معه، وعدم الخوف من التعاون مع البوليس؛ لتخليص القرية من الوحش، وينجح في ذلك، ليعلن الرواي في نهاية الفيلم بلَهجَةٍ خطابيَّةٍ لا تخلو من لُطفٍ: «ما أهدأ العيش في ظلِّ الأمن والاستقرار». وكانت أحداث الفيلم هي بالضَّبط قِصَّة «خُطّ

الصعيد»، الذي كان «محمد حسنين هيكل « قد حقق وقائِعَها ونَشرَها على صفحات مجلة «آخر ساعة» في أواخر عام 1947.

ولعلَّ مُشاركة نجيب محفوظ في كتابة فيلم «الوحش» هي التي ألهَمَته في عام 1961 كتابةَ روايته «اللص والكلاب»، التي استلهم أحداثها من واقِعَةِ ما كان يُعرَف آنذاك بقضية السَّفَّاح «محمود أمين سليمان»، الذي أصبح في الرواية: «سعيد مهران»؛ اللص الذي خرج من السجن وقتل أكثرَ من واحدٍ، وهرب من ملاحقة البوليس، وبات مُحمَّلًا بذكرى الزوجة التي طَلَّقته وتَزوَّجَت من شريكه، وذكرى الابنة التي حُرِم منها منذ كانت طفلةً، ورغبة لا تنطفئ للانتقام من خيانة وحرمان وتزوير الحقائق، وانتهازيَّة الذين صعدوا وأثْرَوْا على حساب الآخرين، وتَنكَّروا له. وتقوده دائرة الانتقام إلى أن يَلقَى مَصرَعَه في نهاية المطاف، بعد أن بات ضحيَّةً لماضٍ فشل في تجاوُز مِحَنِه، ولواقعٍ خارجيٍّ فَظٍّ، افتقد لميزان العدل والإنصاف، ولم يمنحه الفرصةَ للعيش بتوازُنٍ في حاضره.

ولعلَّ رواية نجيب محفوظ «اللص والكلاب» تكون قد ألهَمَت «صلاح عيسى» وشجَّعَته على تحقيق وتقصِّي حالة «خط الصعيد»، والكشف عن الدوافع النفسية، والعوامل الخارجية السياسية والاجتماعية التي ساهَمَت في بروز تلك الظاهرة التي تتحدَّى سُلطَة الدَّولة وسلطة القانون، وتهزُّ الاستقرار المجتمعيَّ، وتُزَعزِع سُلطَةَ مَن بِيَدِهم إنفاذُ القانون وحفظ الأمن. وهي ظاهرة -كما يكشف الكتاب- لا تعيش وتنتعش وتتمدَّد سوى بالتواطؤ المُجتمَعيِّ والفساد المالي والإداري والسياسي.

أمينة النقاش

ملحق الوثائق

الثمن ١٠ مليمات

مصر

حــوادث واحاديث
الأستاذ الكبير سلامه موسى

قناة السويس

في المــوقف الســياسي
بريطانيا تحاول التدليل في دفاعها بشرعية معاهدة ٣٦
مصر ترفض الذهاب الى محكمة العدل الدولية

القضية المصرية

وفد الائتلافيين

حملة منظمة

تسويف ...

تصريح خطير

حركة التسلح

دفاع باطل

القضيــة المصرية
في عطر حملة بريطانية كبيرة

أســواق الذهب
وجوب امتناع الدول عن دخولها

رئيس الوزراء

فهمي عطا الله

جلالة الملك

اعتزم حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك القيام برحلة بحرية في حوض البحر الابيض المتوسط عقب عيد الفطر المبارك

الحركة القضائية

الوطنية

تضمنت الحركة القضائية الوطنية في قسمها الاول التي ستصدر قبل عيد الفطر، ترقية حضرات أحمد حسين بك وكيل محكمة استئناف مصر الوطنية رئيسا لمحكمة استئناف أسيوط وأحمد المازندار بك وكيل محكمة استئناف الاسكندرية وكيلا لمحكمة استئناف مصر ومحمد توفيق بك وكيل محكمة استئناف أسيوط وكيلا لمحكمة استئناف الاسكندرية ومحمد حسن بك عبد الرحمن المستشار بمحكمة استئناف أسيوط وكيلا لمحكمة استئناف أسيوط

وترقية أحمد حلمي بك وعبد الرحيم غنيم بك المستشارين في محكمة استئناف مصر مستشارين في محكمة النقض والابرام

وترقية لمناصب المستشارين كل من سليمان اباظه بك وإبراهيم [illegible] بك وعبد الفتاح [illegible] بك ومحمد [illegible] بك ومحمد توفيق [illegible] بك وعلي عبد الحميد بك و[illegible] بك وأحمد عصمت بك وإبراهيم [illegible] بك و[illegible] يوسف بك وإسماعيل حمدي بك ومصطفى [illegible] بك و[illegible] بك ومحمد حسن [illegible] بك ومحمد عبد الله بك وبعض رؤساء النيابة وبعض وكلاء المحاكم الى [illegible] المستشارين

الاقمشة القطنية وتوحيد أسعارها

انتهز معالي وزير المالية فرصة زيارة [illegible] مصر وبحث معه [illegible] توحيد سعر الاقمشة القطنية بحيث لا يكون هناك سعر [illegible] آخر [illegible]. وانما يكون للصنف الواحد سعر واحد تضمن الحكومة احترامه

استخراج الزيت من الفول السوداني

تجري وزارة الزراعة الآن تجارب التوسع في استخراج الزيت من الفول السوداني في مصر وقد انتهت فيها الى انشاء معاصر لهذا الغرض وتجهيزها بالآلات الحديثة وهي الآن في سبيل الاتفاق على شراء هذه الآلات من الخارج

معركة كبيرة

أصابة ٣٦ شخصا

جاء من مراسلنا في [illegible] انه قام خلاف بين شخصين بعزبة [illegible] بشأن [illegible] الزراعة [illegible] مركز [illegible] بين افراد اسرتي الشخصين [illegible] واصيب ٣٦ شخصا من الفريقين [illegible] بعضها خطر

تلقت السلطات مديرية أسيوط أن بعض أهالي ناحية [illegible] مركز البداري تشاجروا [illegible]

ذكرى سعد

تحتفل بذكرى مرور العام العشرين على وفاة المغفور له سعد زغلول باشا يوم السبت ٢٣ الجاري في [illegible]

الحوالات المالية

المرسلة من بريطانيا لمصر

أذاعت وكالة الانباء العربية في [illegible] انه يسمح لكل شخص في بريطانيا بارسال حوالة مالية الى مصر أو السودان [illegible] وزارة المالية البريطانية

وهذه احدى [illegible] خروج مصر من كتلة الاسترليني

ولا يسمح بارسال اكثر من عشرة جنيهات استرلينية في حوالة واحدة.

وقد أصبحت [illegible] التي اتخذتها وزارة المالية [illegible] تنطبق على مصر وهي القواعد التي كانت تطبق زمن الحرب ولا تزال تطبق على البلاد الخارجة عن الكتلة الاسترلينية

ومصر اليوم [illegible] لا يجوز [illegible] حوالات [illegible] بين بريطانيا ومصر أو السودان

التعامل التجاري

بين مصر وسويسرا

وصل مندوب البنك الاهلي المصري الى جنيف أمس ليبدأ المفاوضات مع البنك الاهلي السويسري بخصوص التبادل التجاري بين مصر وسويسرا. ولا زالت سويسرا ترفض قبول [illegible] المصرية [illegible] الاسترليني كوسيلة للدفع.

وقد [illegible] هذه الحالات الى [illegible] سويسرا [illegible] المصرية [illegible] من البلاد السويسرية

ويلاحظ أن الواردات لنا من سويسرا ازدادت في المدة الاخيرة وخصوصا في الآلات والمواد الكيميائية واذا [illegible] المفاوضات [illegible] في طلب وزارة المالية المصرية [illegible] باشتراك سويسرا كوسيط للتبادل التجاري بين مصر والدول ذات النقد الصعب.

القضية المصرية

برقية وكيل الطلبة الاهلية

أرسل حضرة صاحب السعادة [illegible] برقية الى حضرة صاحب [illegible] رئيس الحكومة المصرية بالنيابة [illegible] لحضرة صاحب الدولة النقراشي باشا [illegible] قضية مصر [illegible] لنا الآمال الوطنية في ظل جلالة مليكنا المفدى

بورصة العقود

[illegible]

عرض معالي وزير المالية مذكرة [illegible] هذه البورصة [illegible] وجهة النظر في بورصة العقود [illegible] العقود [illegible] دون العرض [illegible]

بيان لنائب رئيس الوزراء

عن بعض نقط خطاب النقراشي باشا

وزع مندوب رئيس الوزراء بالنيابة على الصحفيين بيانا يشتمل على تعليقا على خطاب دولة النقراشي باشا في مجلس الامن وإليك نص البيان

تناولت بعض الصحف خطاب صاحب الدولة النقراشي باشا بمجلس الامن يوم ٥ اغسطس سنة ١٩٤٧ بالتعليق وقد انتقدت بعض هذه الصحف الخطاب من وجهين:

الاول: ان الخطاب اغفل الرأي في المطالبة بالوحدة بين مصر والسودان

الثاني: انه لا يتضمن الحديث عن اتفاق ثنائي بين مصر وانجلترا

فاما عن النقطة الاولى وهي الوحدة بين مصر والسودان فان خطاب النقراشي باشا قد أوضح جلاء كيف ان الطبيعة ارادت ان يكون وادي النيل كيانا واحدا وتناول مسألة الوحدة من الناحية الجغرافية والانثروبولوجية والاقتصادية باسهاب. ولما كانت العقبة في سبيل الوحدة هي من جهة وجود الجيوش البريطانية في مصر والسودان وقيام الادارة الانجليزية في السودان من جهة اخرى فان مطلب مصر كان مزدوجا وهو:

أولا: الجلاء الناجز عن مصر والسودان

ثانيا: انهاء الادارة الاجنبية الانفصالية التي تقوم في جزء عظيم من أراضينا وتعمل لفصله عن الطرف الواحد

ويلاحظ أيضا ان التقدم بمطالب الى مجلس الامن يجب ان يكون متسقا مع طبيعة اختصاصاته ورسالته لحفظ السلم والامن فطلب الجلاء وانهاء الادارة الانجليزية في السودان — وهما السبيلان اللذان يحولان دون الوحدة — هما أكثر المطالب مسايرة وأقربها سبيلا الى اختصاصات المجلس

وكما قال خطاب دولة النقراشي باشا صريحا أن مصر والسودان انما يكونان في الواقع وحدة [illegible] وما طالب مصر [illegible] رجال القانون — [illegible]

أما المسألة الثانية وهي ان الخطاب لا [illegible] في عقد اتفاق ثنائي بين مصر وانجلترا [illegible] كل البعد عن [illegible] خطاب دولة [illegible] ان مصر [illegible] الدخول في اي اتفاق خاص كما نصت المادة [illegible] ميثاق الامم المتحدة [illegible] أعضاء الامم المتحدة [illegible] بأن يضعوا تحت تصرف مجلس الامن القوات المسلحة والتسهيلات الضرورية لحفظ السلم والامن الدولي وذلك طبقا لاتفاقات خاصة والى أن تنفذ هذه الاتفاقات [illegible] الى أن تكون القوات المسلحة التي توضع تحت تصرف مجلس الامن [illegible] يجب التشاور بين الدول الخمس [illegible] مع اعضاء الامم المتحدة الاخرين للقيام بالاعمال المشتركة اللازمة لحفظ السلم والامن الدولي.

فلا يقصد اذن من الاشارة الى الاتفاقات الخاصة الا ان مصر مستعدة لعقد اتفاق مع مجلس الامن أو الدول الخمس الكبرى للقيام بالاعمال المشتركة الضرورية لحفظ الامن [illegible] طبقا لاحكام الميثاق.

معارك طاحنة

بين الهوارة والفلاحين

علمنا من مراسلنا في مركز دشنا [illegible] المعارك الطاحنة التي دارت رحاها اخيرا [illegible] الشيخ عبد المنصور [illegible] من الهوارة [illegible] من الفلاحين [illegible] من الهوارة [illegible]

وقد [illegible] ابناء الهوارة [illegible] الفلاحين [illegible] هؤلاء [illegible] رجال البوليس [illegible] الحالة [illegible] المديرية [illegible] ٥٠ جنديا [illegible] ضابط [illegible]

ويقول [illegible] حادث [illegible] الهوارة [illegible] عليهم بعض الفلاحين [illegible] جرح [illegible] خطيرة.

حادث في الطريق

[illegible]

قتل الخط

وقتل آخر برفاقه

تلقت وزارة الداخلية من مديرية أسيوط ان القتيل الكبير [illegible] عبد المنصور الشهير باسم الخط والذي روع مديرية أسيوط بعصابته وجرائمه [illegible] مع آخر شخص من رجال عصابته [illegible] من إحدى نواحي مركز منفلوط [illegible]

وفي صباح امس [illegible] الزراعة [illegible] الشقيقان [illegible]

وعلى اثر ذلك [illegible] الى مكان الحادث [illegible] الرصاص [illegible] الخط [illegible] ٦٠ قرشا وصورة فوتوغرافية [illegible] مكتوب [illegible]

وقد حضر الى مكان الحادث مدير أسيوط بالنيابة وحكمدارها ووكيله وقوة من رجال البوليس والادارة

تنظيم الاستيراد

والتصدير والنقد

[illegible] محمد عبد الله [illegible] بك وكيل وزارة التجارة والصناعة في الاجتماع الذي عقد قبل ظهر أمس في الغرفة التجارية المصرية بالاسكندرية [illegible] التجار [illegible] شكوا من صعوبة الحصول على اذونات الاستيراد أو التصدير بسبب تعدد الجهات الادارية [illegible] الوزارة من هذا العام [illegible] في ادارة واحدة [illegible] النقد [illegible] ادارة خاصة. [illegible] هذه الادارة [illegible] يوم الاثنين من كل اسبوع [illegible] الخاصة بذلك.

[illegible]

نتائج الامتحانات

في هذا العام

دلت نتائج الامتحانات السنوية في هذا العام لمختلف المعاهد والاجازات على ان اكثر من نصف الطلبة قد رسبوا في عدة مواد، واضطروا على الرغم منهم الى [illegible] الامتحان الدور الثاني القريب

[illegible]

نوع جديد

من الاذرة الرفيعة

وفق قسم تربية النباتات بوزارة الزراعة في انتاج صنف جديد من الذرة يفوق [illegible]

في سطور

أخبار وحوادث مختلفة

• أصدر جلالة الملك أمره الكريم [illegible] التشريفات في عيد الفطر المبارك

• سافر سعادة بدوي خليفة باشا وكيل وزارة الداخلية أمس الى الاسكندرية لعرض [illegible] بعض شئون الوزارة

• بحث الوفد في اجتماعه أمس الحالة السياسية من جميع نواحيها [illegible] القضية المصرية

• توالي وزارة الداخلية العمل [illegible] تطبيق قواعد التنسيق وترقية الموظفين الذين توافرت فيهم الشروط الى درجات [illegible]

• كان من نتيجة الخلاف الذي نشب بين [illegible] مديرية [illegible] على أن ينقل [illegible] الى وظيفة أخرى

• ستكون الحركة القضائية المختلطة من أوسع الحركات حيث تشمل [illegible] مستشارين ومناصب [illegible] مصر المختلطة [illegible]

• يعود [illegible] عبد العزيز [illegible] بك الامين الاول لجلالة الملك من اجازته في الاسبوع المقبل لتولي مهام منصبه

• تعد وزارة [illegible]

• [illegible] كل من عبد الله [illegible] من كبار موظفي وزارة [illegible]

• [illegible] وزارة المعارف [illegible]

• [illegible] وزارة المعارف [illegible] للسيارات بالقاهرة [illegible]

• [illegible] وزارة المواصلات [illegible] كوبري [illegible]

• [illegible] الاجراءات [illegible] المطارات المصرية [illegible] الاسكندرية

• [illegible]

• [illegible] الاساتذة [illegible] وزارة المعارف

• [illegible] وزارة المواصلات [illegible] الاسكندرية [illegible]

• [illegible] وزارة الاوقاف [illegible] الادارة [illegible] مدير قسم الادارة

• وضعت وزارة المالية [illegible]

• [illegible] الاستاذ محمد [illegible] زكي [illegible] مصلحة الآثار المصرية

• [illegible] حوالات [illegible] في نفس اليوم الذي تقدم فيه [illegible]

• [illegible] وزارة التجارة والصناعة [illegible] لشراء عدد من السيارات [illegible] الصيد

• قررت وزارة المالية عدم موافقة الوزارات [illegible] الموظفين [illegible]

• يسافر سعادة حامد سليمان بك وكيل وزارة الاشغال [illegible] الى منطقة السدود [illegible]

• يعرض على مجلس الوزراء في جلسته [illegible] مذكرة [illegible]

• رقي الاستاذ [illegible] ابراهيم يوسف مراقب منطقة التعليم [illegible] بالاسكندرية الى الدرجة الثانية

من حوادث البوليس

[illegible] مشاجرة بين بعض أهالي حي بولاق [illegible] عن [illegible] الذين [illegible] يرجع [illegible]

وانتحر شاب من سكان مصر [illegible] في النيل، وقد [illegible] جثته.

وطارد بوليس [illegible] من اللصوص حاولوا سرقة [illegible]

محاولة السرقة

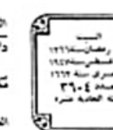
[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]



الـسبت
٢٢ رمضان سنة ١٣٦٦
٩ أغسطس سنة ١٩٤٧
٣ مسرى سنة ١٦٦٣
العدد ٣٦٠٤
السنة الثانية عشرة

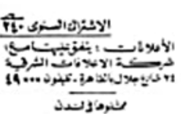
الثمن ١٠ مليمات
دار المصرى: ٨ شارع ضريح سعد
تليفون ٤٦٣٧٧
مكتب الاسكندرية: ٢٨ شارع شريف باشا
تليفون ٢٦٠٧٢
العنوان التلغرافى: مصرى بالقاهرة

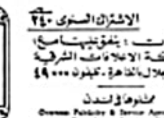


المصرى

الحق فوق القوة والأمة فوق الحكومة

الاشتراك السنوى ٢٤٠
الاعلانات: يتفق بشأنها مع شركة الاعلانات الشرقية
٢٤ شارع جلال بالقاهرة - تليفون ٤٩٠٠٠





مكتبها فى لندن
Overseas Publicity & Service Agency Ltd.
Fleet Street, London, E.C. 4

AL-MISRI
4, Sheikh Barakat Street
CAIRO
9 August 1947
No. 3604

لنـــدن تتوقع ثورة عنيفة فى مصر

أو حرب عصابات خطيرة اذا فشلت قضية الوادى فى مجلس الامن

اجتماع الوفد المصرى أمس

هل يؤيد جروميكو مصر فى مسألة السودان؟

مسألة مجلس الاستشارى تعرض على مصر و بريطانيا قريبا

نقص احتياطى الذهب

والدولارات الامريكية فى بريطانيا

الخطر السلافى يعود الى الظهور فى البلقان

تهديد تركيا واليونان – هل تقطع روسيا علاقاتها معهما؟

تمرد فيل أفريقى ..!!



روسيا تتهم أمريكا

بالاعتداء على حقوق الانسان

موقف أمريكا من القضية المصرية

رغبتها فى تسوية المشكلة وديا

٣٩ مليون دولار

ميزانية هيئة الامم المتحدة

أمريكا ترفض مشروع روسيا

للاشراف على الطاقة الذرية

الدكتور شاخت

ظهور الغام

قرب ساحل تركيا

أمـــة تنتظر

للأستاذ الكبير صاحب التوقيع

« أبو يوسف »

في القضاء المختلط

الحركة القضائية الوطنية

المرشحون للمناصب الكبيرة فيها

ذكرى مرور العام العشرين على وفاة المغفور له سعد زغلول باشا

الحياة الاجتماعية

شئون الاستيراد والتصدير

بيان هام لوكيل التجارة

موقف بريطانيا من شراء القطن المصري

قتل وحش أسيوط « الخط »

العثور على مصحف وثلاثة أحجبة معه



محمد محمد منصور « الخط »

تنسيق الدرجات

بيان وكيل الوزارة

الأستاذ موسى العلمي ينفي

اجتماعه بوايزمان وبلجنة التحقيق

خطورة الحالة في جبل الدروز

فلسطين للعرب

روسيا تستعمل الفيتو

[لمصلحة مصر ضد بريطانيا]

٢٠ مليما



حكمة اليوم



ماقل ودل

كيف تحول الحلفاء إلى أعداء

صنيعة الانجليز !..

الامير رمضان يقول :



مصرع الخـــط : البوليس يجد فى جيبه مصحفاً وحجابين

"أخرج المؤمن من تحاسن مرتين !"

بيان هام لرئيس الوزراء بالنيابة

الوفد السوداني

الصحف الأمريكية ترفض نشر .. اعلان "أخبار اليوم" !

AL-MISRI
10 August 1947
No. 3605

الاشتراك السنوى ٢٤٠

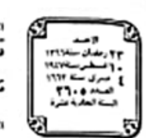
الأعلانات : يتفق عليها مع شركة الاعلانات الشرقية
٢٤ شارع جلال بالقاهرة - تليفون ٤٩٠٠٠

مندوبها فى لندن









الثمن ١٠ مليمات
دار المصرى : ٨ شارع ضريح سعد
تليفون ١٦٣٧٧
مكتب الاسكندرية : ٢٨ شارع شريف باشا
تليفون ٢٦٠٧٢
العنوان التلغرافى : مصرى بالقاهرة

العدد ٣٦٠٥

نواب بريطانيون يطالبون بالجـــلاء عن مصر

وتأليف كتلة عسكرية من الدول العربية فى الشرق الاوســـط

..وقواد بريطانيون يقولون انه لاضرورة لاحتلال منطقة قنـــاة السويس

الذهب فى الاسواق السوداء

أربعة مشروعات للسيطرة على النيل

محادثات لجنة فنية مصرية مع أوغندا والحبشة

٩ زلازل

جزيرة الجنة

خوف امريكا من استيلاء روسيا على قناة السويس

الحكومة الامريكية تميل الى حل ودى لقضية الوادى

فصل ٣٠٠ الف موظف فرنسى

حديث جديد عن تخفيض الاسترلينى فى لندن

أزمة انجلترا الاقتصادية وعلاقتها بمساعدة امريكا

أربعة اسئلة لروسيا

بشأن الاشراف على الطاقة الذرية

توقع حملة جديدة لحزب تشرشل على حكومة العمال غدا

مونتجومرى

وفاة آخر



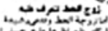
أم الخط تنكر أن المقتول ولدها ثم تعترف

الاهالي يطلقون عليه النار بعد مصرعه للانتقام

البوليس يطوف بجثته في أسيوط ــ الاهالي يحتشدون في الطرقات ويطلقون الزغاريد



هكذا كانت نهاية الخط الذي ظل الرعب يسود أرجاء الريف ولم يخشه رصاصه القتل بحثاً عن أن يلقى حتفه







الدلتا تعرض

حادث مؤلم

تصادم قطار بسيارة

طلبة الجامعة

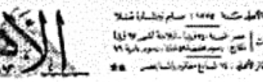
وصول الباخرة

١٠ مليمات

١٠ مليمات

AL-AHRAM





النقراشي باشا يتحدث الى « الاهرام »

بقاء القوات البريطانية في مصر ترتب عليه عواقب وخيمة

سفر وفد الجبهة الاستقلالية في السودان الى نيويورك

غدا تبدأ الجولة الثانية

وفد الجبهة الاستقلالية بالسودان

يسافر اليوم لنيويورك ومعه نجل المهدي باشا

برقيتان هامتان

حديث للمهدي باشا

اهتمام سوريا بقضية مصر

تعليمات حكومة دمشق لممثلها بمجلس الامن

اجتماع النقراشي باشا

موقف امريكا من قضية مصر

مهرجان الكشافة الدولي بفرنسا

افتتاحه امس وزيارة قبر الجندي المجهول

كشافة وادي النيل تلفت الانظار

سوق القطن في اسبوع

امساكية شهر رمضان المعظم

برنامج الاذاعة

طلعت حرب باشا

عبد الغني برعي بك

الألعاب الرياضية

فطائر العيد

هـــذه هى كلمـــة زعيم الاحرار الرئيس الدكتور هيكل باشـــا

فى نقـــد وشرح وتفنيـــد معـــاهدة سنة ١٩٣٦

التى ألقـــاها بجلسة الشـــيوخ عنـــد عرض المعـــاهدة فى ١٨ نوفمبر سنة ١٩٣٦

السياسة

لسان الأحرار الدستوريين

(اذا كنتم تريدون لمصر استقلالا تاما فالمعاهدة لا تحقق استقلالها التام، فارفضوها، وان كنتم تريدون لمصر أن تتمتع بحقوق الممتلكات البريطانية المستقلة (الدومنيون) فالمعاهدة لا تنيلكم هذه الحقوق، فارفضوها .. وان كنتم تريدون تغيير الحالة التى رسمناها دون اهتمام بنتائج هذا التغيير، لعل فى الحركة بركة، اذن فاقبلوا المعاهدة على ان تعدل بأسرع ما يستطاع تعديلا يزيل ما بها من مساس باستقلال مصر)

١ ـ هذه التى أسموها معاهدة الشرف والاســـتقلال هي وثيقة الحماية والاحتلال

٢ ـ النحاس باشا كان قد أخذ على عاتقه اقناع الامة بتساهله فيها

٣ ـ مصر كانت ترى فى ضميرها ان هذا التساهل تهاون فى حقوقها

٤ ـ ليس لبريطانيا سند الا من أقوال النحاس باشا وحده

٥ ـ معاهدة سنة ١٩٣٦ تجعـــل السودان بريطانياً أو غير مصرى على الاقل

٦ ـ أنتوني ايدن كان يعطى اشارة تهـــديدية لزعماء مصر اذا لم يوقعوا المعاهدة

وثيقة الشرف والاستقلال

مصارحة المفاوضين للأمة

تزعزع مركز مصر الدولي

خطأ المقارنات

تقدير جهود الزعماء

مصر تريد الاستقلال الصحيح

اليوم يرد النقراشى باشا على البيان البريطانى

رئيس الوزراء بالنيابة يجتمع ببعض الساسة

السفير البريطانى فى الحضرة الملكية

رئيس الوفد السودانى فى طريقه الى نيويورك

وزير الدفاع

رئيس الوزراء بالنيابة

الحركة القضائية

تكذيب

مصر اليوم فى مجلس الامن

ثورة الحق والصوت والامل

بين رجال السلكين

السياسى والقنصلى

ترقيات وتنقلات وتعيينات

فى السياسة الخارجية

موقف دقيق يهدد حكومة العمال البريطانيين

اتلى يناشد الشعب البريطانى

توحيد الجهود للتغلب على الازمة الاقتصادية

حشد قوات بلغارية والبانية

على حدود اليونان

التحقيق مع الصحف

فى حادث قتل

قنابل عربية



الاشتراك السنوى ٢٤٠

الاعلانات : يتفق عليها مع : شركة الاعلانات الشرقية
٢٤ شارع جلال بالقاهرة - تليفون ٤٩٠٠٠



الثمن ١٠ مليمات

دار المصرى : ٨ شارع ضريح سعد
تليفون ٤٦٣٧٧

مكتب الاسكندرية : ٢٨ شارع شريف باشا
تليفون ٢٦٠٧٢

العنوان التلغرافى : مصرى بالقاهرة



الجلسة الثانية لقضـــــــية الوادى فى مجلس الامن الدولى

النقراشى باشا يحذر مجلس الامن من نتيجة بقاء جنود الاحتلال

رد منـــــدوب بريطانيا على النقراشى باشا

بريطانيا ضربت الاسكندرية تلبيـــــة لدوافع انسانية ! !

طبعة الخامسة صباحا ، النصوص الكاملة لخطبتى النقراشى باشا وكادوجان تفاصيل وافية ننفرد بنشرها

انشاء محطة كبيرة لتوليد الكهرباء

عند مساقط النيل جنوبى السودان

تأجيل القضية الى يوم الاربعاء

رد النقراشى باشا

على جريدة الصنداى تيمس

سر مقتل الخط

فتاة من عائلة كبيرة تعترف بأنها أحبت المجرم وعاشرته !

فى الساعة التاسعة من مساء الجمعة الماضى ، وصل الى إدارة روز اليوسف خطاب بالبريد المستعجل عليه ختم مكتب بريد منفلوط ... وكان الخطاب يحمل شكوى فتاة إلى محرر باب (جراح قلب) تعترف له فيها بأنها تحب محمود محمد منصور الشهير بالخط ... والذى اسمته بعض الصحف « ذئب الجبال » .

وفى صباح اليوم التالى من وصول الخطاب — أى يوم السبت — اذيع خبر مقتل الخط . . وأسرعنا الى أرشيف جراح قلب واستخرجنا الخطاب الذي كان ينتظر الرد عليه فى العدد المقبل . . . وأعدنا قراءته مرة ومرات ... فهل هناك علاقة بين مقتل الخط وهذا الحب العنيف المدنس الذى تروى قصته الفتاة التى اختارت أن توقع خطابها بامضاء « مدنسة » ؟! .. إنها تقول إنها من عائلة من اكبر عائلات منفلوط فهل تدخلت ثورة هذه العائلة لشرفها والرغبة فى الأخذ بالثأر ، فى مقتل الخط ؟! ثم ماهو سر الصدفة العجيبة التى أوحت الى هذه الفتاة أن تكتب خطابها فى نفس اليوم الذى قتل فيه الخط وربما كتبته قبل مقتله بساعات ؟ إنها لايمكن أن تكون محض صدفة ، بل لابد أن فى الأمر سرا غامضا مثيرا عجيبا ، سرا ربما كان البوليس نفسه يحرص على إخفائه حفظا لكرامة وسمعة العائلة التى تنتمى إليها هذه الفتاة . .

ونحن ننشر الخطاب الذى وصلنا بنصه ، كما ننشر صورته الزنكوغرافية تأكيدا للخبر الذي قد تعجز بعض العقول عن تصديقه . .

* *

سيدى محرر « جراح قلب »

إن لى قصة ياسيدي واقعية للأسف ، أرجو أن لا تسخر منها فان فى واقعيتها مأساة يعجز أى كاتب من كتاب القصة أن يأتى بمثلها

أنا ياسيدى فتاة فى الحادية والعشرين نلت قسطا من التعليم يقولون عنه انه التعليم التالى لفتيات الطبقة الراقية التى أنتمى اليها

ومنذ ثلاثة شهور أحببت بما ظننت أنه حب

وكان البطل فتى من فتيان الطبقة الراقية يجيد الرقص والتحدث باللغة الفرنسية واستعمال أحدث أنواع البرايتين

وسمع والدى باندماجى مع هذا الفتى أكثر من اللازم فما كان منه إلا أن أرسلنى إلى الريف .. وفى الريف بدأت مأساتي .. لا ياسيدى بل بدأت حياتى ..

إنك تستطيع أن تتصور حياة فتاة مثلى فى الريف .. كنت أحاول أن أغالب الملل ، فأركب جوادا وأدور أخب به فى أرجاء الأرض ، وكنت أصادق الفلاحات وأقوم بأى شىء لمغالبة ذلك الضيق وهذا الملل وفى أحدى الامسيات .. وآه ياسيدى من امسيات الريف ، انك لا تستطيع أن تتصورها وأنت بالقاهرة . فى احدي هذه الامسيات حضر شخص اهتزت له الحقول والعزب وطلب عشاء

وتفانت العزبة فى تقديم العشاء له ، وحضر الرسل من البلاد المجاورة حاملين له الهدايا والنقود ، وبنوع من الفضول النسائى وجرأة الفتاة القاهرية المتعلمة نزلت وقابلته

أتدرى من هو ياسيدى .. إنه محمود محمد منصور .. لاتدعى عدم المعرفة به ، فانت تعرفه ، وكل قرائك يعرفونه ، وأجهل الجهلة فى مصر يعرفه .. من هو محمود محمد منصور ؟ إنه حبيبى ، ولكنكم تطلقون عليه إسما آخر .. انكم تسمونه (الخط)

ولنعد — ياسيدى — لحديثنا فقد نزلت اليه وحادثته .. كم من الجميل أن تتحدث إلى المشاهير والكبار ..

وظللنا نتحدث .. وانقضى السامر كله وبقيت أنا وهو ، وطال بنا الحديث وتشعب .. حدثنى عن مغامراته وعن مطارداته ، وعن الجرائم التى ارتكبها ، والجرائم المنسوبة اليه زورا وبهتانا .. حدثنى عن الليالى المخيفة بين عيدان الذرة العالية ..

حدثنى عن مطارديه من رجال البوليس ، فى يمينهم السلاح وبحمى القانون ظهورهم إذا قتلوه ..

وحدثنى عن مطارديه من أهالى بلدته .. وطال بنا الحديث ولم نشعر إلا ونحن فى الصباح

وتكرر حضور هذا الرجل وفى يده خيزرانة كما لو كان آمنا فى بيته وليس من المطاردين

وكان الرجال بسلاحهم يخشون خيزرانته



صورة الخطاب الذى وصلنا من الفتاة المجهولة قبل مقتل الخط بساعات وعليه طابع بريد منفلوط ...

اعلانات مبوبة

وظائف خالية

• مجلة وفدية في حاجة الى وكلاء بالأقاليم لقراءتها . . . وترسل لهم المجلة مجانا ! !

ملحوظة : لايشترط في الوكيل أن يكون ملما بالقراءة والكتابة

• حزب الوفد في حاجة الى زوار لمقابلة الرئيس الجليل بالمرتب أو العمولة ولا تشترط أى مؤهلات خاصة أو عامة . . !

(ملحوظة) ستنشر أسماء الزوار في الصحف الوفدية مسبوقة بلقب أستاذ ! !

• هارب من لمان طره منذ أسبوع ، يطلب عملا بعد نصف الليل!

• احمد عبود صاحب صالون الوطنية يعلن انه غير احمد عبود صاحب اللاپين الذى بحث يهنىء اللورد كيلرن ، فلزم التنويه ! !

• طبيب بشرى مستعد لاستبدال زبائنه بزبائن طبيب بيطرى مع دفع خلو رجل مناسب !!

• بك معروف بمحطة اذاعة مصر يرغب التبادل مع ناظر محطة طنطا المخابرة كتابيا ! !

• جامعى مستعد لتأجير نفسه مدة الصيف بقيمة القسط الذى عليه من المصروفات المستحقة . .

• أحمد الألفى عطية .·. عد إلى حزبك ولننس ما مضى إن الكتلة حزينة من أجلك وزعيمك في انتظارك

« مكرم »

اختام وأشياء مفقودة

• جانيت كلارك فقدت كلبها وزوجها أمس في حفلة ساهرة فمن يعثر عليهما يرد الكلب فقط وله الشكر . . والاجر والثواب .

• حكيم معروف فقد ثقته بنفسه من يجدها يتصل به في جريدة الكتلة وله مكافأة . !

• ابراهيم عبد الجواد فقد حافظته وبها عشرون قرشا واوراق مهمة جدا للغاية من يجد الحفظة يرسل له العشرين قرشا ويحتفظ بالأوراق الهامة لنفسه ! !

فتيا ، وأخيرا شعرت أنه ذو سلطان على لايقاوم . . واعترفت بيني وبين نفسى بأني أحبه

قد تقول إنى أحببت الجريمة ، وعشقت الضلال ولكن لاياسيدى إنى ماأحببت فيه إلا جمال الرجولة

إن المرأة تحب الجرأة والشجاعة ولاأظن هناك رجلا توافرت فيه هذه الشروط أكثر منه . . من حبيبى محمد . . ليتك ياسيدى كنت امرأة حتى أستطيع أن شرح لك سحر هذا الرجل ، أوليتنى كنت رجلا حتى أستطيع أن أفك طلاسم سحره .

ولنعد مرة ثانية لحديثنا

إنى أحببته كما قلت لك ، ولكنى لم أحاول أن أنزل من عليائى لأفهمه أنى أحبه

ولكن الذى حدث ياسيدى أن هذا المجرم الحبيب أفهمنى بأدب قاتل أنه يعبدنى ، ويثق بى وأنه يضع رقبته بين يدى بحضوره كل ليلة ليرانى وأن فى هذا مخاطرة كبرى بالنسبة اليه وذلك لأنه ويالفرحة ، يحبنى . لم أطق أكثر من هذا ياسيدى وتهاوت منعته من الحضور إلى ، لأذهب أنا اليه ، كنت أخرج ، وعندما أدخل فى بحر الدرة الخضم يقابلنى أحد رجاله ويوصلنى حتى أجد نفسى بين ذراعيه . .

فى بعض الليالى تستيقظ فى نفسى الفتاة القاهرية التكلفة ويشتد بى الحنين إلى الارزوناومارلى والأوبرج وآنور وتشتد بى الثورة حتى أحاول أن أخلص نفسى من هذا الجحيم ولو نسبيت فى مذبحة ولكن سرعان ماتستيقظ فى نفسى المرأة فأخرج لألقى نفسى بين ذراعيه وكم فى ذلك من مغامرات لذيذة ؟!..

سيدى .. إن مشكلتى هى نفس المشكلة القديمة بين العقل والقلب ، ولكنى لاأدرى لمن ستكون الغلبة ؟

أرجوك ياسيدى ، حاول أن تساعدنى ، وابحث لى عن علاج فان عقلك ، وانت بعيد عن سيطرة هذا الوحش المعبود ، يستطيع أن يدلنى الى أين أذهب ؟. أظن أنه لا خلاص لى من هذه الحياة الدنسة الممتعة الا إذا تخلصت من حياتى نفسها ..

ولكنى ياسيدى لا اريد أن أموت لا لأنى أخشى الموت ولكن لأنى لا أريد أن أبتعد عنه ..

ياسيدى ساعدنى فربما كان فى كلماتك شفائى وخلاصى

«مدنسة»

اعذرنى إذا لم استطع ان اكتب اليك فى ورق أفضل فهذا هو النوع الوحيد الذى وجدته هنا ولم آخذ ورقا من مكتب العزبة حتى لا افضح نفسى وأفضح والدى

(روز اليوسف) قتل محمد محمد منصور الشهير بالخط ، ولا نظن أن صاحبة هذا الخطاب فى حاجة لأن نساعدها ، بعد أن ساعدها الله .. فأراحها من حبها العجيب ..

ابن الخط

هل تتبناه الحكومة ؟



تلقت « آخر ساعة » هذا الخطاب :

« أخيرا وبعد صراع طويل عنيف سقط « الخط » فطويت صفحة رجل طالما ازعج الحكومة وروع الاهلين .

سقط الخط بعد أن حشدت له الحكومة جنودها وبعد ان بذلت في سبيل اصطياده الكثير من مالها .

كثيرون هم الذين قتلهم وكثيرون لقوا مصرعهم في سبيله .

انتهى الخط ولكنه خلف لنا « بذرة » قد تنشر الرعب بعد اعوام .

خلف لنا « هاشم » وقد يعقد الحقد الى قلبه فينشر صحيفة طويت .

في يقيني أن « آخر ساعة » لن تتردد في أن تطلب الى الحكومة أن تحمل من « هاشم » تجربة .

طموه لعل العلم ينزع الحقد من قلبه . لتحتضنه الدولة فتدخله المدرسة وتنتقل به درجة بعد درجة فتبعد له من بعضها ما ينسيه الثأر الكامن في اعماقه لم تعرض لوالدته وارملته مرتبا شهريا من خيرات الاوقاف فيبدو العمل عطفها وتسمع من القلوب انها تحمل الحقد الدفين .

ستشعر « خالتي فضة » وستدرك « رشيدة » أن الدولة انما كانت تطارد الجريمة وانها لاتحمل لاسرة « الخط » حقدا ولا ضغينة .

لتصل به الى الجامعة ، ولتبعث به الى اوربا فلا شك انه سيبعث من جديد .

طموه حتى لاتكون « جعدم » مسرحا لتمثيل مأساة دامية جديدة .

أشعروا بالرحمة قلب « خالتي فضة » حتى لاتنفث منه السم في قلب الوليد .

انشروا العطف حول الارملة الحزينة حتى لاتسكب في قلب الصغير من فيض قلبها المكلوم

بينوا للجماهير الصورة الجميلة للدولة بعد اذ أبديتم لها الصورة الصارمة .

تلك فكرة أومن بها وأرجو ان تنال تقديركم

دكتور محمد عبد المحسن الخشاب
الامين بمصلحة الاثار

•

ورأت « آخر ساعة » ان





الخطاب يحوي فكرة تستحق ان تكون موضع بحث فعرضته على الاستاذ توفيق الحكيم ..

وكتب الاستاذ توفيق الحكيم يقول ...

« ليس من العدالة الاجتماعية ان تحمل خزانة وزارة الاوقاف المخصصة لمعاونة من اخنى عليهم الدهر من ذوي الاسرة الحسنة الذين لم يعتدوا على المجتمع ولم يخرقوا القانون لتعين اسرة مجرم أعتدى على القانون وكان عدوا للمجتمع !

واذا جاز للحكومة ان تقدم مثل هذه الاعانة فاولى بها ان تقدمها بادىء الامر الى اسر شهداء ثورة سنة ١٩١٩ والى ضحايا الغارات في الحرب والى عائلات الجنود المصريين الذين استشهدوا في الدفاع عن قناة السويس وفي معارك الحدود المصرية سنة ١٩٤٠ و ١٩٤١ .. او .. من باب اولى ـ مرة اخرى الى اسر رجال الضبط الذين ماتوا وهم يؤدون واجبهم الرسمي في سبيل حفظ الامن الذي كان الخط نفسه اكبر خطر يهدده

ومع ذلك فان الرأي الآخر وهو تعليم أولاد المجرم حتى ينشأوا نشأة اخرى لها مثل عليا تنفرهم من الاعتداء على المجتمع والقانون فهو رأي محمود والطريق العملي اليه هو ان نلجأ الى وزارة الشئون الاجتماعية ونطلب اليها تطبيق قانون نزع الولاية الابوية من اولاد هؤلاء المجرمين لننزعهم من الوسط الموبوء والبيئة الاجرامية التي يتنفسون فيها وننقلهم الى جو آخر يمهد لهم حياة اخرى كريمة جديرة بالمواطنين النافعين

•

خطاب ورأي يثيران مشكلة عجيبة لها مثل حي قائم يمكن ان تطبق عليه .. فما هو السبيل المثالي بينهما ..؟

ان « آخر ساعة » تطرح هذا السؤال .. تضع المشكلة امامك .. آراء الذين يعرضونها والذين يناقشونها ثم تسألك :

ـ ما هو رأيك ؟

اكتب الى « آخر ساعة » وساهم معنا في حل هذه المشكلة

ثم يبقى بعد ذلك ان تقول ان الرأي الذي ستنتهي اليه غالبية القراء سوف تتبناه « آخر ساعة » وتكافح من اجله حتى يتحقق ..

وتحب « آخر ساعة » في نفس الوقت أن تعرض الحقائق المجردة التي تحيط بالمشكلة ..

ـ ١ ـ

ان « هاشم » بن الخط ليس هو المشكلة .. انما المشكلة مشكلة الثأر وجو الجريمة الذي يتنفس فيه « هاشم » وعمه المشكلة كما انها مشكلة هاشم فهي ايضا مشكلة الخمسة عشر من ابناء وبنات اعمامه .. !

ـ ٢ ـ

ان اخوة الخط ـ اعمام هاشم ـ ماتوا جميعا قتلى في نفس ميدان الاجرام الذي لقي فيه الخط مصرعه .. وتركوا بالنسبة لاولادهم قائم بنفس نسبة قيمته الى هاشم وبنفس الظروف !

ـ ٣ ـ

انه ما من احد يختلف مع الذين يقولون انه اذا كان هناك من سيذكي في « هاشم » روح الثأر فهي جدته « خالتي فضة » والشيء نفسه ان هاشم هو ابن « الخط » ولكن الوضع بالنسبة « لخالتي فضة » يختلف فهو لايعدو ان يكون حفيدا من احفادها الخمسة عشر .. وسيكون نصيبه من اهتمامها بنفس نسبته الى ابناء اعمامه وبناتهم !

ـ ٤ ـ

انه اذا انتزع هاشم من « خالتي فضة » فان ذلك سيذكي حقدها ويؤجج النار التي ستصبها في قلوب احفادها !

ـ ٥ ـ

ان خالتي « فضة » لا تملك شيئا ... وهي الآن المسئول الاول عن خمسة عشر طفلا وخمس ارامل .. سواها هي !

ـ ٦ ـ

ما هو مصير « خالتي فضة » نفسها .. وما هو مصير الارامل الخمس ... هذا اذا انتهينا من تدبير مصير الاطفال الخمسة عشر ؟

ـ ٧ ـ

ان خالتي فضة تقول ـ والقسم والعهدة عليها وحدها !! ـ انها لم تأخذ من الخط طوال حياتها غير جنيه واحد اشترت به طرحة تتلفع بها ..

وتقول خالتي فضة ـ والقسم والعهدة عليها ـ انها كانت تريد أن تسلم الخط لولا انه كان يخاف ان يلقى المصير الذي لقيه اخوه « توفيق » ، فقد دبر رجال البوليس مؤامرة للخلاص منه وقتلوه ـ وكان هذا هو رأي الخط على اي حال ... ـ ولكن .. والعهدة على خالتي فضة ايضا .. لم يسعفني الوقت !..

• • •

وبعد ...

طاغية الصعيد .. ذو الشعر الأصفر والعيون الزرق!

« لقد قتل الخط »

هذا هو نص الاشارة التليفونية التي تلقتها آخر ساعة ..

وبعد ساعات قلائل كانت سيارة من طراز « جيب » تشق طريقها الى منقلوط ومن منقلوط تشق عرض الوادي الى حضن الجبل على خط الصحراء مارة بالقرى والنجوع والكهوف التي كان الخط يتخذها مسرحا لأيامه الاخيرة ..

وكان في سيارة « الجيب » الاستاذ محمد حسنين هيكل المحرر بآخر ساعة والاستاذ محمد يوسف كبير مصوري « دار أخبار اليوم » ..

●

الرصاصة الاخيرة !

ان الرصاصة الاخيرة في قصة « الخط » لم تطلق بعد .

انها رصاصة باقية مدخرة لطفل صغير عمره الآن أقل من سنتين ، ولا يمكن أن تعتبر المعركة منتهية حتى تنطلق هذه الرصاصة تستقر في قلب الطفل البرئ الذي يحدق في الناس بشرود وهو لا يدري مصيره ولا يعرف أي حقد سيتفجر في قلبه منذ الآن لكي يكبر ويأخذ بثأر أبيه .

والطفل هو هاشم . والأب هو « الخط » !

ان هذا الطفل الصغير الضئيل هو الرجل الوحيد الباقي من عائلة « الخط » وليس هناك شك في أن أمه وجدته ستعملان كل ما في وسعهما منذ الآن لتغذيته بالحقد والكراهية والضغينة هذه حقيقة يعلمها كل الناس ويعلمها أيضا أولئك الذين قتلوا « الخط » .. ومن هنا كانت الرصاصة المدخرة .

خالتي فضة !

ومع أن « خالتي فضة » أم « الخط » – كما يسميها أهالي درنكة – تصر أن لا شيء لا ...



رشيدة وهاشم .. تزوجها في حماية « النوبي » او المدفع الرشاش !

ولا شيء . ولكنك تكاد تلمح وراء الدموع والشجن قوة الاعصاب والعزم الاكيد على أن الثأر لن ينسى ....

وهي « رشيدة » زوجة « الخط » الصبية التي تزوجها وهي في التاسعة من عمرها ولم تره طلاقا بعد زواجها أكثر من عشر مرات . هذه الصبية هي الاخرى تكاد تلمح في عينيها ظلال المعركة المقبلة عندما يكبر ابنها ويصير رجلا .

انها لم تعرف زوجها كما يجب ومع ذلك فالثأر هو الثأر ... هذه هي شريعة درنكة !

وأخذ يعني « الخط » الى جبل الطور عدة تزوجها ثم فر وعاد ليصبح عدو الحكومة رقم (١)

فضة » مدفع النوبي السريع ونصب بباب المنزل تحرس عن العرام . وقد يتصادف أن يمر ساعتها واحد من أهل درنكة فيراها ويبادرها – صباح الخير يا خالتي فضة .

وترد « خالتي فضة » وهي تهز مدفع النوبي في يدها ووجهه تتراقص في وجه عابر السبيل . ويفهم أن « الخط » في الداخل . ويمضي في طريقه لا يلوي على شيء .. ولا يعلم شيئا ..

وهكذا نتردد قبل أن نقول ان « رشيدة » كانت تحب « الخط » وانها لهذا سوف ترضع ابنها لبن الانتقام ... ولكن مرة أخرى الثأر هو الثأر . ثم ان ...

« الخط » الى الحياة بعد سنوات طويلة !

الخط .. أم الخط ؟

– أتعرفون ماذا قال لي جلالة الملك اليوم ؟

وكان المتكلم هو عزيز اباظة باشا مدير أسيوط ... وكان الحديث أثناء اجتماع عقد في مكتبه في أسيوط من شهور طويلة لجميع مأموري مراكز مديرية أسيوط ...

ونظروا اليه متسائلين . واستطرد عزيز باشا قائلا :

– حضرت للتشريفات العيد وحينما جاء دوري لأصافح جلالة الملك نظر الى جلالته وقال :

– قل لي يا عزيز باشا أتري اسمه « الخط » أم « الخط » ؟

وفهمت قصد جلالته وفهمت اللوم المختفي في ثنايا الكلمات وأحسست بأنه يجب بذل كل الجهود الممكنة وغير الممكنة للخلاص من « الخط » .

وسكت عزيز باشا وبدأوا هم يتكلمون .. وطال الاجتماع ساعات بحثوا خلالها أنجح الوسائل للقبض على « الخط » ثم انتهى الاجتماع بتأليف فرقة أسموها « فرقة الموت » .. ان على أفرادها أن ينالوا رأس « الخط » أو ينال « الخط » رؤوسهم جميعا ..

وبدأت المعركة !

صراع مع الموت !

وكان « الخط » السعيد الحظ انجى مائة مرة من الموت ورفقة الموت ...

ويقول الملازم أول محمد سعيد هلال رئيس فرقة الموت :

– لقد كان الخط حليفا « للحظ » لم يتخل عنه طوال المطاردة التي ظلت عاما كاملا .. كان يسمع بسفينته من طراز « لي انفيلد » لم يطلقها بلا تردد وسقط صحيته وهب لمطاردته فاذا هو لم يترك أثرا يدل عليه ... لم يرسل الينا « الخط » من يروي لنا حركاتنا نحن وسكناتنا خلال التحقيق ... بروحها بطريقة لا تدع مجالا للشك في أن « الخط » كان أقرب الينا مما نظن ومع ذلك فساعتئذ كان يبدو لنا انه أبعد من السماء ...

وكم من مرة أمكننا الخطط للقبض عليه وكنت انظر الى الحوادث المتشددة فلا يساورني شك في أن « الخط » في أيدينا ومع ذلك كان يفلت دائما ..

وكانت بندقيته لا تخونه أبدا وكأنها هي رسول الخط اليه .. يسدد من بعد ألف متر ويضرب .. والضرب في القلب تماما ..

وكان ذكاؤه أيضا خارقا للعادة .. ولم يكن أقوى من ذكائه الا قوة ارادته وقوة أعصابه وقوة عضلاته ..

وذات مرة لاح أمام أصابعنا مقمع على الشيخ بحثت وطرقنا وراءه وبعدما يتسلق الجبل ورصاصنا لا يناله ، فقد كان حريصا على أن تحمي الصخور ظهره وهو ...

فرقة الموت وراء «الخط» طاغية الصعيد





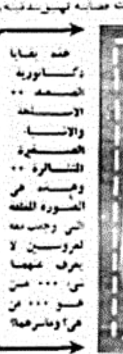

عبد الحق بك
مأمور مركز منفلوط

الأمزم أول محمد سعيد هلال
رئيس فرقة الموت

الغول ...
الدكونستابل الماز

عدو الحكومة !

تاريخ !



هذه بقايا دكتاتورية الصعيد .. الأسلحة والأشياء الصغيرة التافهة .. وجدت في الصورة الملفة التي وجدت معه لعروسين لا يعرف عنهما شيء ... من هو ... من هي؟ وما سرهما؟



الأرستقراطى الذى أضاعته امرأة !



إنها تروى قصة زواجها بعشر شهما أبى وشجن

وهذه هى زوجة حارس وابور الساطى .. كانت تشوى له الحمام والدجاج ..!

[illegible] عشرة جنيهات !

[illegible] بالورقة فمزقها [illegible] الخادم فعاد بها الى سيده ..

ورجع الخادم بعد قليل يحمل ورقة بخمسين جنيها !

[illegible] سجائره .. [illegible] ..

[illegible] هى [illegible] التى يلفها بنفسه .. [illegible] الذى كان لا يشرب سواه .. والشمسية [illegible] التى لا يعلى بحرها !

وكانت هوايته الكبرى [illegible] فى [illegible] .. وكم مرة [illegible] فى معركة [illegible] فى سبيل امرأة .. [illegible] امرأة هى التى [illegible] مصرعه حين [illegible] الاستقرار فى وابور [illegible] [illegible] الرصاص [illegible] والعشرون

آخر الأحياء !

ولقد [illegible] فى [illegible] اخوانه [illegible] ..

[illegible] اخوانه « عواد » [illegible] الناس [illegible] .. [illegible] مرة مع [illegible] وكان يعود الى منزل [illegible] كل يوم يطرق الباب [illegible] .. رجل او امرأة او طفل ويكون هو [illegible] وحدث [illegible] الباب يطلقها على من [illegible] وبقى هاربا .. وبقى عندنا عشرة أيام .. ولم تجد

[illegible] ان تسوى الخلافة بينه وبينها !

[illegible] عواد [illegible] أمام [illegible] « [illegible] » [illegible] افراد العصابة بما فيهم اخوته جميعا ..

وكانت الحكومة قد [illegible] كل القرى [illegible] مقرا من [illegible] حين [illegible] عن الميدان واختفى مؤقتا وظل مختفيا عدة شهور [illegible] زوجته رشيدة انه [illegible] الى القاهرة والاسكندرية وبورسعيد !

ثم لم يطق صبرا .. فعاد الى الميدان وكان المسرح معطلا [illegible] ..

الفرة [illegible] .. والحبل قائم كما هو .. والمطاردة خفت حدتها بعد شهور من الحراسة [illegible] .

العودة !

وعاد « الحصد » من احتفاله الطويل ..

عاد يوم قتل « توفيق » آخر اخوته الاحياء وكان احبهم الى قلبه فهو اصغرهم جميعا [illegible] ثعالبا فى [illegible] ..

وفوجئت به انه يدخل الدار بعد منتصف الليل .. ليقضى فى المنزل ساعة واحدة ..

ومد يده يصافحها مغربا .. فقالت له :

– البركة فيك ...

ودخل ليرى زوجته .. وحلت الام [illegible] النوم وخرجت تحرس الباب ..

على قمة الجبل ينظر الى ابنه

ابن

حسن

؟



قمة الشيخ بخيت .. كان يصعدها في اربع دقائق ، فانه كان يعرف كل شبر وكل حجر !.

وكان ذلك جزءا من برنامج استقراره .!

ونظرت اليه وهو ملقى ينزف دما لكنه طيه وكانت هذه هي الدمعة الوحيدة التي سكبت عليه غير دموع أمه وزوجته ..

ولقد انكرته امه حين رأت جثته فنظرت الى مأمور منفلوط وقالت :

ـ اهذا هو الذي قتلتموه ؟

ـ أجل ..

ـ احملوه .. احملوه . . . انه ليس ابني !

وصعقوا .. لـ رأته زوجته فصاحت مولولة .. وهنا اعترفت الام مرغمة !

ايـن ؟

وتتساءل الام :

ـ اين امواله التي كانت معه عند ما ضربوه ..

ثم تسكت لتقول :

ـ كان معه جنيهات كثيرة فمن اخذها .. ؟

وتقول :

ـ غير معقول ان يسرق الخط بعد قتله .

فتقول في اصرار :

ـ سرقوه وحياة المصحف .. والا فاين نظارته المعظمة ! ..

وكان الخط لا يسير الا وفي رقبته هذا المنظار من مخلفات الميدان وتقول امه انه اشتراه مسروقا من الجيش الانجليزي بتسعة جنيهات ..

وتعود امه فتسأل ...

ـ اين هذا المنظار ؟

وتسكت وتسرح بها الذكريات ثم تقول :

ـ كنت انظر به من فوق سطح المنزل الى قمة جبل الشيخ بخيت حيث يقوم ضريح الشيخ بخيت نفسه .. وكان « الخط » يناولني هذا المنظار فاصرخ واقول له : ضريح الشيخ بخيت انتقل من قمة الجبل الى سطح منزلنا .

وكان « الخط » يضحك مني ..

وتنظر الى زوجته رشيدة وابنه هاشم وتشير اليهما :

ـ وكان يحب أن يراهما ولكن الظروف كانت تحول دون ذلك فكان يتفق على ساعات معينة اجمعهما ـ رشيدة وهاشم ـ يصعدان فوق السطح ويقف هو فوق قمة الجبل ومنظاره على عينيه ناحيتهما .. وظل يرقب زوجته ويرقب ابنه الوحيد برهة من الزمن ثم يمضي في المغاور والكهوف ..

ولقد بدءا القرية تحمل هاشم .. وتقول في جلد وحزم :

ـ انه الرجل الوحيد الباقي لنا !

وكان هو قد اتخذ من وابورات المياه في المديرية حصونا منيعة يختفي فيها وبمساعدة صاحبي ولم يكن عضوا في العصابة وانما كان كتاتها فقط يبقيها ليجمع لها الاخبار ويمايز السرج قبل الهجوم .. واتخذته « الخط » وليفا وساعدا .. ولم يكن هناك غيره على اي حال ..

قصة غرام !

ولم يكن يستقر في وابور واحد فقد كان دائب التنقل والترحال ووراءه دائما كلب الحراسة الامين « صالحين » .

لم ختق كلبه عند « وابور » الساحل واصابته نوبة استقرار .

ويقول مأمور مركز منفلوط :

ـ وبدأت رائحة الخط تفوح وكان هناك همس ولغط .. ان الخط في منفلوط ، وبدأنا نعمل على النور ونرسم الخطط .

وذهبت الى عمدة « جحدم » وتعاهد معي على الكشف الذي نعمل ضد « الخط » .

ومرت أيام ثم سمعت اشاعات عجيبة عن « الخط » ..

اشاعة تقول انه حضر الى منفلوط ليقتل رفيق الطرزي من اعيان منفلوط ـ وهو المتهم في قضية التنابل ـ بايعاز من بعض خصومه .

واشاعة اخرى انه استقر في القرية عند مالكة عازر .

واشاعات اخرى كثيرة ..

واتصلنا بمحروس عازر واستطعت ان افهم انه يؤوي « الخط » او على الاقل يعرف كيف يجده .. وعلمت ان طلبات الخط قد ازدادت على محروس فاراد ان يتخلص منه بالايقاع به فاظهر ميلا الى التعاون معنا ثم جبن اخيرا ..

كان « الخط » يهبط « القرية » في الليل ويمر بمنزل القرية فيأخذ الطعام والسجائر وزجاجة الزبيب ثم يعود الى وابور الناظر ويدفع محروس عازر كل الحساب !

وقال عازر انه لا يريد معارك في بيته فاتفقنا معه على ان يدعو « الخط » الى وليمة عشاء حتى نقتنصا ثم ندس له مخدرا في الطعام ونأخذه بلا معارك !

وذهبت استشير كل الاطباء واقول لهم :

ـ نريد مخدرا غير سام .

واشاروا باستعمال « الفينو باربتاين » و« الشربنال » واعطيته لمحروس ليدسه للخط .. ولم تنجح المؤامرة .. وجاءني محروس يقول ان « الخط » لا يذوق طعاما ولا يأكل منه مضيفه قبله .. وكنت اعرف هذا فعلا عن « الخط » ..

وبدأنا محاولة اخرى ..

ولم اكن حتى ذلك الوقت سمعت شيئا من عمدة جحدم .. فذهبت اليه استطلع اخباره .

وقال لي :

ـ ان « الخط » سوف يقع في يدك هذا الاسبوع !

ولم افهم ما يعنيه اذ ذاك !

المعركة الفاصلة

وكان عمدة جحدم يفهم ما يقوله ويعنيه ..

كان « الخط » قد بحث عن قريبة سهلة فاختطف الغلام « شوقي » وطالب بفدية قدرها مائتا جنيه

وبدلا ان يذهب اليه اقارب المخطوف ذهب اليه عمدة جحدم وحده .. وكان الخط يعرفه ويحبه وبدأت مفاوضات لانزال الفدية الى مائة جنيه وعاد العمدة بالغلام المخطوف .. وفي الصباح خرج « الخط » الى رأس الطريق ينتظر الفدية فوجد أبوي الغلام المخطوف فـ« تهماه » بكل العمدة فداخرجا غضبها مؤامرة عليه وساقهما امامه في حقل الذرة .. ووراءه راع من الرعاة فطار الى عمدة جحدم فسارع العمدة ومعه عدد من اقاربه .. وبينما هم في الطريق سمعوا الرصاصات التي اطلقها « الخط » على الابوين من بعيد لينالهما على فرارهما فيقتلهما !

ووصلوا الى ناحيته وكان تلاشي حاد .. ثم اطلق « الخط » رصاصة فناس العمدة في حقل الذرة ومعه اولاده واقاربه ...

وانتظر « الخط » ان يخرجوا من الناحية الاخرى من حقل الذرة ولكنهم لم يخرجوا بل كمنوا في الذرة ثم اطلقوا عليه الرصاص دفعة واحدة وعشرون رصاصة في دفعة واحدة ولم يقع بل اطلق عشر رصاصات وكل هذه الذخيرة داخل جسمه ..

ووقع ووقع وراءه قاتلين !

النهاية !

اخبار الساعة

●●●

طويل

ابن « الخط » تتبناه الحكومة ..!

رأى القراء أن الحكومة يجب أن تتبنى « هاشم » ابن الخط .. !
وكانت نسبة الآراء هي :
٣٤٢٨ قارئا مع هاشم ..
١٢١٦ قارئا ضد هاشم ..

لماذا .. ولماذا !

وكانت حجة الذين وقفوا مع هاشم حجة انسانية دون نظر لأى اعتبار آخر .

وقد قالوا جميعا : لقد كان الخط طريد الحكومة وعدوها اما هاشم فما ذنبه ..؟ لم لسنا لا تحميه الحكومة من القالة الاخرى بشكل لا يدرى عنه شيئا واذا كان أمر الثأر ليس امره وحده بل هو تركة متنازعة بينه وبين أولاد عمه ، فلماذا يتركون هم الاخرون وهم لو تركوا على يتعدى الأمر احدى حالتين :

الاولى ان يفتك بهم خصوم الخط ..!

والثانية ان يفتكوا هم بخصوم الخط ..!

وكلا الحالتين عناء وتعب .. ثم هناك بعد ذلك العامل الانساني وهو كيف يعيش هذا الطفل البرىء .. وكيف يعيش ابناء عمه .. واذا انتزعوا جميعا من امهاتهم فكيف تعيش هؤلاء الارامل ؟

الحل الوحيد اذن أن تتبنى الحكومة « هاشم » وأن تربى عائلته لتحول بين بذرة الاجرام وبين ان تجد ارضا خصبة في عائلة الخط !

ولنستعرض بعد ذلك بعض ما قاله انصار « هاشم » ..

كتب اليوزباشي محمد سعد هلال ضابط نقطة بني قرة ورئيس « فرقة الموت » التي كانت تطارد الخط .. كتب الى « آخر ساعة » يقول :

« لقد كنت اكبر اعداء الخط في حياته وكان هو يعلم أن مهمتي تنحصر كلمتين : رأسي أو رأسه .

وخالتي « فضة » تعلم ذلك أيضا وهي ستلقنه لهاشم واستطيع منذ الآن ان اتوقع الحرب التي ستندلع نيرانها بين فرقته وبين جنده عند ما يكبر هاشم ومع ذلك فاني اولها صريحة واضحة ما هو ذنب هاشم .. ان الحكومة يجب أن تتبناه ومن يدرى فقد يصدق معه المثل المعروف « يخرج من ظهر الفاسد عالم » وحبذا لو خرج هاشم وابناء عمومته جميعا علماء !

وكتب الدكتور ابراهيم سلامه الاخصائي في علم النفس يقول : « انشىء مدرسة تصنعها مدرسة « جندم » وتخصص فصلا كاملا لاطفال عائلة الخط وتجعل [illegible] الفصول لاطفال غيرهم ذوى حالات مستعصية من الناحية الاجتماعية كهلاء ، وتحاول [illegible]

جان جاك روسو على الاطفال الخطرين وكان استاذ علم النفس في الجريمة ومنطقها ... هو نفسه مجرما في طفولته وشبابه وكانت المحاضرة في فصل خاص يهمه « جان جاك روسو » لمثل هذه الحالات الشخصية ..

وانا اقترح ايضا أن يعرف على مدرسة « جندم » بواسطة فرض ضرائب خاصة على المديرية التي ستسمح للخط أن يباشر جرائمه فيها والتي طالما تستر اهلها على الخط ..

الرأى الآخر !

اما الرأى الآخر الذى لم يجد اصحابه ما يبرر أن تتبنى الحكومة الخط فقد كان رأيهم أن الخط مجرم عبث بالامن والنظام فكيف تتحمل الحكومة ودافعو الضرائب مسئولية تربية ابنائه ورعاية عائلته في الوقت الذى لا يجد فيه الاف الشرفاء الفقراء لقمة العيش ..

ولنستعرض بعض آراء هذا الفريق فنجد الآراء التالية :

● اذا تعلم هاشم استغل علمه في الجريمة !

● هذه دعوة الى الجريمة .

● وكتب الاستاذ احمد محمد الامين بدار الكتب يقول :

« كتب الحكيم الايراني مصلح الدين سعدى الشيرازي في كتابه « كلستان » عن قاطع طريق خرج ايران فما زال به الملك حتى قبض عليه وقتله لم تشفع احد الطغاة في طفله الصغير فاعتقده ورباه ورعاه حتى كبر لم سمع الملك يوما أن الطفل قتل العالم فقال : قد دبت عقربا وتسامت فينا

فمن السائل أن ابناء ذئب اذا كان الطابع طابع سوء فلا ادب يفيد ولا أديب

أليست هذه الحالة تنطبق على « هاشم » ؟!

● وكتب م . م . ب بديروط يقول : لقد سجنت مرة مع سعد توفيق ابن شقيق الخط وقد التقت معه في السجن خبر « خالتكم » : فضة ودجاجها القديد الذى لا يدل على فقر ولا فاقة ومع ذلك يقال أن الحكومة يجب أن تتبنى ابن الخط .. لا أعرف تشجيع للمجرمين .. قتل الخط في الدرجة الاولى .. فهل أطمع أن تشجعنى في الحجرة التاسعة من كادر الجريمة ؟! على أى حال لن ايأس .. وعندما تفاهم الامور بي سوف اذهب الى عمه فيجندهم ليقتلنى واترك اولادى للحكومة ؟!

● أسرعوا على ايديهم فقد سمعت في أسيوط أن « خالتي فضة » اشترت لهاشم « مسدس فل » مما يصيبه الاطفال ليتدرب عليه من الآن !

والآن ..!

والواقع انه يمكن أن « نبلور » رأى القراء فيما يلى :

١ ـ تعهد الحكومة « بهاشم » وباقى ابناء عمومته فترسلهم الى الملاجىء أو الى المؤسسات الاجتماعية كمبرة محمد على أو الهلال الاحمر وبواسطة هؤلاء الاولاد جميعهم تحت اشراف الحكومة اما الى المدارس وما يليها واما الى احدى اصلاحيات الاحداث لتعلمهم بعض الحرف النافعة وتبعدهم عن جو الثأر والجريمة .

٢ ـ الارامل جميعا لا مبرر لعناية الحكومة بهن والرأى الغالب هو أن يعاد توزيعهن على الملاجىء ولن يشق على أى عائلة أن تعيد ابنتها اليها .

٣ ـ « خالتي فضة » لا تأخذها الحكومة الى احد ملاجىء العجزة

كمان ابن الخط .. موش كفاية مجلس الامن ..؟!

باسلوب الصحف الوفدية

قتل الخط

أراد العهد الحاضر أن يحول الانظار عن مؤامرة النقراشي باشا مع الانجليز في نيويورك فصدر الامر لبوليس أسيوط بأن يضرب «الخط» في ظهره فيرديه قتيلا .

وليس اليوم مجال محاسبة الحكومة على ارتكاب هذه الجريمة النكراء في وضح النهار ، والدنيا صيام «والناس نيام» ليس اليوم مجال محاسبة الحكومة على طريقة معاملتها التعسفية لخصومها في وقت تدعي فيه أمام العالم أنها حكومة ديمقراطية ..

ولكننا ننعى على الزميلات أن تسرع وتتهم صاحب العزة «الخط بك» بأنه مجرم أثيم برغم ان القضاء لم يصدر كلمته بصدق هذه التهمة التي تصيدها البوليس ليلصق العار بابن بار من أبناء هذه الامة لقد يلفق البوليس على «الخط بك» تهمة يعرف العهد الحاضر انها تهمة باطلة من أساسها ... ويقولون انه كان يجمع الاموال من أعيان أسيوط ... والواقع ان سعادة الخط بك ، وهو رجل من أكرم رجال مصر ومن أنبل أعيانها رأى أن يساهم في الدعاية لمصر في الخارج فراح يطوف على أعيان أسيوط يطالبهم بأن يتبرعوا لقضية البلاد تنفيذا لقرار الوفد الحكيم ...



هذا ما حصلنا عليه من مصادرنا التي لا تعرف في الحق لومة لائم، وهي تدل دلالة لا شك فيها على أن الوطني الكبير «الخط بك» كان ضحية مؤامرة بعض رجال العهد الحاضر

●

أمة تنتحب

بقلم ذلك الكاتب الكبير

ان أبسط النظريات التي يعرفها طلبة الحقوق فضلا عن ألمة الفقهاء والقانونيين تقول ان الحريات مكفولة بحكم الدستور ... واذا كانت الحكومة تعتدي على حرية القتل والسلب والنهب بهذه الصورة الوحشية فاننا لا نعجب منها اذا اعتدت على حرية الصحافة وحرية الانتخابات وسائر الحريات ...

صحيح انها لم تصادر صحيفة وفدية واحدة ولكنها استطاعت بوسائلها الخفية أن تمنع القراء من شراء الصحف الوفدية الشريفة المخلصة المجاهدة الثابتة على مبدئها ...

فظلت توالي نشر عمود الرئيس الجليل كل يوم وترفض أن تنشر مكانه عمود اعلانات أين تذهب هذا المساء !

وستثبت الايام ان القناعة كنز لا يفنى ولو احتجبت جميع الصحف الوفدية عن الصدور

●

عمود الرئيس الجليل

واوفد الرئيس الجليل الاستاذ علي ششانة سكرتيره الخاص الى أسرة فقيد الوطن المغفور لصاحب العزة الخط بك لابلاغ أفراد الاسرة عزاء مقامه الرفيع في الفقيد الكريم

صاروخان

كادوجان ..

المحامي الذي يطالب بتعويض للقاتل !

قصيدة أمير شعراء الوفد

الاستاذ حسن يس

قتلوا الخط أو رماه الرصاص — فعزاء يامصطفى النحاس
وعزاء رجال وفد اذا وقفت — ساعة مصر وعطل الرئاس
أو ترضى حكومة في شعوب الارض — فيها للبائسين انتحاس
أو يرمى الشطر العظيم جهارا — وجهارا فاين أين القصاص
ليس في الكون مثله سراق — عبقري ولصها مصاص
مجلس الامن كيف لا تستحي — ليس من ذي التدخلات مناص
محض ما ادعوه فهو بريء — ان راميه كاذب هجاص
لك ياصاحب المقام الرفيع الـ — صبر والصبر والرضى ، وخلاص

الباكي الحزين

حسن يس

قلب وحيد

عندما ينطفيء الصباح ...

تسبح الدنيا في الظلام ... وتهدأ الرمال الثائرة ...

وتسكن الى صدر الارض الحنون !..

عندما تتبعثر السحب في السماء ...

كالعقد الذي انفرط سمطه ، يختفي قوس قزح من الافق ،

وتهب العاصفة !..

عندما يتحطم الناي ...

تموت الالحان على الشفاه ... وينسى القلب النغمات !..

عندما تصمت الشفاه ...

ستنسى الحب او الحنان ... وتظل وحيدة تبللها الدموع .





Six Pages P.T. 1


The Egyptian Gazette
ذي اجبشيان جازيت
68th Year No. 20,177 — Sunday, August 10, 1947

2 NEW WORLD FLYERS TAKE OFF AS ODOM STARTS HIS LAST LAP

50-minute delay in Tokyo, but still expects to be on time

WHILE Captain William Odom was last night making for Tokyo on another stage of his globe-girdling flight, another American round-the-world flight began when Clifford V. Evans and George W. Truman took off at 3.10 (Cairo Time) from Teterboro, New Jersey.

Odom touched down at Tokyo airfield late last night, having averaged just over 285 miles per hour in his non-stop flight from Calcutta, which he left at 9.45 a.m. (Cairo Time) yesterday, only an hour and 40 minutes after landing.

Despite fairly bad flying conditions, Odom said in Calcutta that he hoped to complete his flight within the scheduled time. He had covered the distance from Chicago, his starting point, to Calcutta in 36 hours and 40 minutes.

At 3.15 yesterday he passed over Shanghai airport, but instead of landing decided to fly on to Tokyo.

100 m.p.h.



CLOSE-UP portrait of Mr. Attlee as he left No. 10 Downing Street for the House of Commons to make his "crisis" speech on Wednesday last week. (Keystone).

TOP-LEVEL DOLLAR TALKS EXPECTED

Washington, August 9.

UNITED STATES Treasury officials said in Washington today that they expect top-level Cabinet discussions with Britain on the Dollar crisis to follow the official level conference which, it is hoped, will open in Washington next week.

Hiroshima today

Desperate, Hitler asked: 'where, when, which?'

London, August 9.

HITLER'S last hysterical message from his underground headquarters in Berlin in April 1945 as Nazism shed out its remaining stronghold is given in the latest publication of the Fuehrer's conferences on Naval Affairs in 1945.

The message, addressed to Gen. Alfred Jodl, who was sentenced to death and hanged after the Nuremberg war criminal trials, read:

"Inform me immediately. Where is the Allied spearhead? When are they going to attack? Where is the Ninth Army? In which direction is the Ninth Army breaking through? Where are the Russian spearheads? — Adolf Hitler."

Nothing more was heard from Hitler. On the following day, April 30, he committed suicide with Eva Braun, whom he had married.



"Got Gearing"

Six killed 50 hurt in crash

US cinema ban "grave shock"

London, August 9.

Magyar leader not dead

More Calcutta riots: 3 dead

2 Jews arrested after attack on Cairo express

Jerusalem, August 9.

TWO JEWS, one of them wounded, have been arrested near Wilhelma after an exchange of fire with a military patrol. They are believed to be members of a party of men who set off an electrically-detonated mine under the Cairo-Haifa express, causing minor injuries to several soldiers.

UK TO HAVE HUNGARIAN HAM, EGGS

London, August 9.

GIRAL WILL NOT HEAD EXILED GOVT.

Paris, August 9.

NAZI DOCUMENTS STOLEN IN BREMEN

Bremen, August 9.

America agrees to hear French view on Germany

Washington, August 9.

MR. GEORGE MARSHALL, the United States Secretary of State, has officially notified the French Government that no Anglo-American decision will be taken on German economy until the French view is heard.

Agency charges

Three powers

The Moscow view



Chair which suits anyone

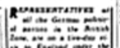
London, August 9.

Vatican has "Marshall" relief plan

100 Germans rounded-up in Shanghai

Shanghai, August 9.

'FLAMING TORCH' LIGHTS JAMBOREE



Paris, August 9.

REPRESENTATIVES of all the German police of sectors in the British Zone, are on a ...

Four Pages P.T. 1

The Egyptian Gazette



ذی اجبشیان جازیت

68th Year No. 20,178 — Monday, August 11, 1947

DIRECTION OF CAPITAL SEEN POSSIBLE IN U.K.

P.M. hears Party critics today

London, August 11.

MR. CLEMENT ATTLEE, the Prime Minister's broadcast last night though not specific about the new measures to beat the crisis and by no means partisan in tone, has conveyed a number of hints about the Government line when confronted by its Left-wing critics at today's meeting of the Parliamentary Labour Party.

Political Observers note that Attlee mentioned steel along with coal, transport and electricity among those industries which will be put "in a fit condition to serve the country."

As coal, transport and electricity have already been nationalised by law, this may be taken as a hint that the Government will assure its followers that its purposes with regard to steel, too, are unshaken.

Attlee stressed that the Government will see to it that there is equality of sacrifice in the necessary austerity measures, a point which the Labour Movement has much at heart.

"US loan strangles Britain"

Fireworks

GRENADES AT DANCE FLOOR PRECEDE GENERAL HOLD-UP

Arab thugs attack café, 4 Jews dead

Jerusalem, August 11.

CONCERN was felt throughout Palestine this morning following a "Commando" attack last night by uniformed Arabs on the Jewish café "Hawaii," on the Yarkon river, outside Tel Aviv. Four Jews, including one woman, were killed, seven critically injured, and three others lightly hurt.

MORINIGO QUITTING ASUNCION

Albania says Greek planes "intruded"

Russians to help in gem comb-out

TRUCE PLEDGE BROKEN

Picked clean

Retaliation ?

In America

Worst part

Co-operation

122 POW's Returned

CARY GRANT, famous British film star, ...

ODOM CUTS 113 HOURS OFF PREVIOUS RECORD

Chicago, August 11.

28 hrs. over Atlantic "for fun"

Soviets will salvage three sunken ships

Loses £80,000 If she weds

EVA GOES HOME

CANBERRA ACCEPTS WOOL TARIFF CUT

2,500 APPEAL FOR MURDERER'S LIFE

Weather ship operates

Gandhi may fast again if rioting continues

Calcutta, August 11.

NEWSPRINT PROBE BY U.N.O.

SFAX RIOTS WERE PLANNED

THE POPE'S PALESTINE INTEREST

USSR AMBASSADOR RETURNS TO PERSIA

Resigns patronage

"Amazon" bomb fails to hit target

GERMANY PAYS REPARATIONS

UK-AUSTRALIA IN

FRENCH CONFIDENCE VOTE TAKEN TODAY

SOCIAL AND PERSONAL

Devastating evidence likely

PREMIER WILL REPLY TO BRITISH DEFENCE TODAY

9,000-word "aggressive speech" reported

P.M. denies rumours of new talks

20,000 visitors 'invade' Jamboree tent city

HOSPITAL AT AMRIA WILL HEAL LEPERS

Plague and T.B.

Plan to unite all political parties

Working hard

Streets lie unswept in Alex.

No retreat

Teachers ask colleagues reinstated

Jaffa Mayor in U.K.

Harder than oak

Kept on Agenda

U.N.O. SPEECHES ON AIR TONIGHT

COURT REFUSES BAIL

El Mahdy, Azhary explain viewpoints SUDANESE PLEAS TO UN CLASH

Crowns of Sudan

Plot to kill manager and burn buses

MINISTER TO BEIRUT

Tribal war goes on, Kena Mudir recalled

NEWS IN BRIEF

Army camp on fire at Heliopolis

RASH DRIVER CAUSES BUS DEATHS OF 12

MITRE, BIALY RESIGNS AS LABOUR HEAD

U.K. 1946 rail toll

D.P.s find jobs

STOCKS AND SHARES

WEEKLY REVIEW OF EGYPTIAN PRESS

Small nations will fight big ones

"We are a warlike people," says Emir

Appeal to foreign communities

Anti-swearing drive

Ramadan must be more austere

WILD SCENES AT FUNERAL OF GANGSTER

الملاحظات

[←1]

[] مارتنيك: جزيرة تقع في شرق البحر الكاريبي، إلى الشمال من ترينيداد وتوباجو، وهي من مجموعة جزر الأنتيل الصغرى. تُعتَبَر أحد الأقاليم السِّتَّة والعشرين المُكوِّنة للأراضي الفرنسية.

[←2]

[] إناء كبير، يطلَق عليه في العامية المصرية: «الآزان».

[←3]

[] يقوم «العمدة» في الريف المصري بنفس الدور الذي يقوم به مختار القرية في بقية أنحاء الريف العربي، وكان يُختار من العائلات الثرية ذات النفوذ في الريف، وهو حلقة الوصل بين الفلاحين وأجهزة الحكم المختلفة، ويعمل بدون أجر.

Table of Contents